الكتاب الحائز على جائزة ابن بطوطة
للرحلة المعاصرة -2017 2018

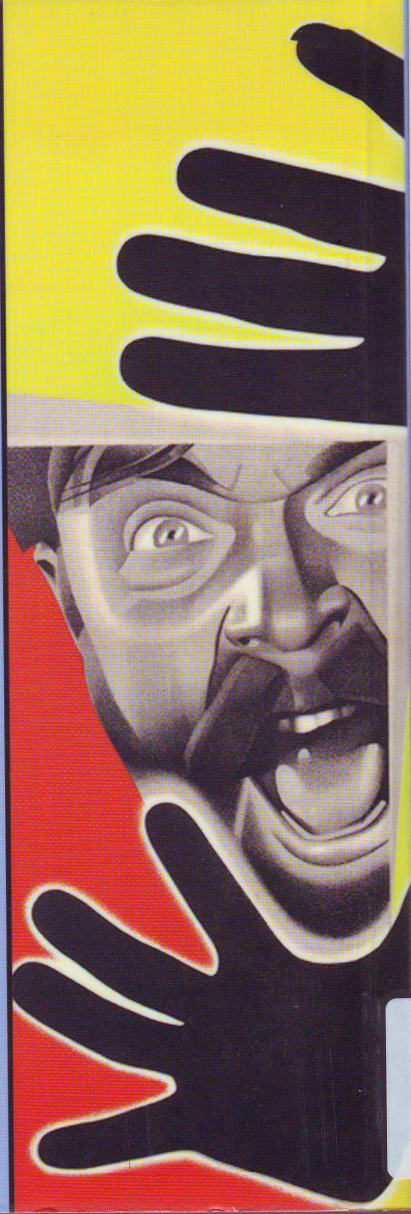

العالم في حقيبة سفر

أمير العمري

العالم في حقيبة سفر/ رحلات
تأليف: أمير العمري/ مؤلف من مصر
الطبعة الأولى، 2018
حقوق الطبع محفوظة ©

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسيّ:
المصيطبة، شارع حبيب أبي شهلا،
بيروت، لبنان، ص. ب 11-5460
هاتفاكس 707891/2 1 961+
e-mail: mkpublishing@terra.net.lb
info@airpbooks.com

دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي، ص. ب: 44480
الإمارات العربيّة المتّحدة
هاتف 6322079 2 00971
فاكس 6214311 2 00971
e-mail:alrihla@gmail.com

التوزيع في الأردنّ:
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157، عمّان 11191 الأردنّ،
هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 5685501 6 962+
موقع الدار الإلكترونيّ: www.airpbooks.com

تصميم الغلاف: ناصر بخيت / السودان
الصف الضوئي: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ: ديجو برس / بيروت، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.
جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب او اىّ جزء منه، او تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، او نقله بأىّ شكل من الأشكال، دون إذن خطيّ مسبق من الناشر.
ISBN: 978-614-419-857-5

الكتاب الحائز على جائزة ابن بطوطة
للرحلة المعاصرة -2017 2018

العالم في حقيبة سفر

أمير العمري

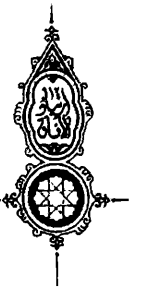

يشرف على هذه السلسلة:

نوري الجراح

اسْتِهلال

أعلن عن جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي سنة ٢٠٠٣ وتهدف إلى تشجيع أعمال التحقيق والتأليف والبحث في أدب السفر والرحلات واليوميات ، وهو ميدان خطير ومهمل ، وقد تأسست الجائزة إيماناً من «المركز العربي للأدب الجغرافي -ارتياد الآفاق» و«دار السويدي» بضرورة الإسهام في إرساء تقاليد حرّة في منح الجوائز ، وتكريساً لعرف رمزي في تقدير العطاء الفكري ، بما يؤدي بالضرورة إلى نبش المخبوء والمجهول من المخطوطات العربية والإسلامية الموجود في كنف المكتبات العربية والعالمية ، وإخراجه إلى النور ، وبالتالي إضاءة الزوايا الظليلة في الثقافة العربية عبر علاقتها بالمكان ، والسفر فيه ، والكشف عن نظرة العربي إلى الذات والآخر ، من خلال أدب الرحلة بصفته من بين أبرز حقول الكتابة في التراث العربي ، لم ينل اهتماماً يتناسب والأهمية المعطاة له في مختلف الثقافات . مع التنويه بتزايد أهمية المشروع وجائزته في ظل التطورات الدراماتيكية التي يشهدها العالم ، وتنعكس سلباً على علاقة العرب والمسلمين بالجغرافيات والثقافات الأخرى ، فالأدب الجغرافي العربي (وضمناً الإثنوغرافيا العربية) من شأنه أن يكشف عن طبيعة النظرة والأفكار التي كوّنها العرب والمسلمون عن «الآخر» في مختلف الجغرافيات التي ارتادها رحالتهم وجغرافيوهم ودوّنوا انطباعاتهم وتصوراتهم الخاصة بهم عن

الحضارة الإنسانية والاختلاف الحضاري حيثما حلّوا .

في دورتها هذه كما في دوراتها السابقة تواصل الجائزة التوقعات المتفائلة لمشروع تنويري عربي يستهدف إحياء الاهتمام بالأدب الجغرافي من خلال تحقيق المخطوطات العربية والإسلامية التي تنتمي إلى أدب الرحلة والأدب الجغرافي بصورة عامة ، من جهة ، وتشجيع الأدباء والكتاب العرب على تدوين يومياتهم المعاصرة في السفر ، وحض الدارسين على الإسهام في تقديم أبحاث ودراسات رفيعة المستوى في أدب الرحلة .

***

«سندباد الجديد» سلسلةٌ تحتفي بأدب الرحلة وتتطلع ، كما أسلفنا في سلسلة «ارتياد الآفاق» ، إلى بَعْثَ واحدٍ من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية ، وذلك بتقديم نماذج معاصرةٍ من أدبِ الرِّحلةِ العربي ، وهي سلسلة موازية للسلسلة التراثية «مائة رحلة عربية إلى العالم» التي شرعنا في إصدارها بدءاً من العام ٢٠٠١ ، في إطار مشروع «ارتياد الآفاق» .

تهدف هذه السلسلة إلى احتضان النصوص الحديثة في أدب الرحلة العربي ، وكذلك نصوص الكتاب العرب عن المكان ، والنصوص الأدبية المستلهمة من الأسفار ومدونات التراث الجغرافي العربي والإسلامي في مسعى قصده تشجيع المؤلفين على مقاربة هذا اللون من الأدب القائم على الخبرات الشخصية في العلاقة مع المكان ، والحركة عبره ، والإطلال على الطبيعة والناس والعمران وما تذخر به

الحياة الحديثة في الجغرافيات المختلفة من اختلاف في أحوال الإنسان ، معاشِه ونشاطِه الاجتماعي والاقتصادي والثقافي ، وميولِه وعاداتِه وتقاليدِه وحياتِه الروحية .

معروف أن يوميات المسافرين ومدوناتهم الشخصية تشكل في الثقافات الأخرى مكتبة قائمة في ذاتها ، وتعتبر كتب أدب الرحلة من أمتع المؤلفات وأكثرها رواجاً على اختلاف قيمتها الأدبية ، وتنوع الموضوعات التي طرقها كتابها . وهذه الحقيقة تجعلنا نتساءل : هل هناك أدب رحلة عربي جديد ، له ملامح وسمات مميزة عن تلك التي ظهرت في كتابات الرحالة العرب حتى مطلع القرن العشرين؟

مثل هذا السؤال ستجيب عنه هذه السلسلة الأولى من نوعها بالعربية . لن نستبق الإجابة ، وسنترك للقراء والباحثين العرب أن يجيبوا بأنفسهم عن هذا السؤال .

على أن هذه السلسلة من شأنها أن تفتح أبواباً عدة ، منها ما يفضي إلى إمكان المقارنة بين نظرة المسافر العربي المعاصر بوسائل وإمكانات حديثة وبين الرحالة العرب القدامى والوسيطين الذين تجشموا عناء السفر وصولاً إلى الآخر بإمكانات بسيطة ، كانت أقصى ما أتاحته لهم ظروف زمانهم . ومن شأنها أيضاً أن تجدد دم الرغبة في استكشاف الآخر ، وتردم الفجوة الكبيرة بين أدب الرحلة العربي الموضوع حتى مطلع القرن العشرين ، وبين كتابات الحاضر التي عادت إلى الظهور بعد غياب لهذا اللون الأدبي استمر أكثر من نصف قرن .

نتطلع أيضاً من خلال نصوص هذه السلسلة إلى استكشاف طبيعة الوعي بالذات والآخر الذي تشكّل عن طريق الرحلة ، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة ، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى

الدول والناس والظواهر والأفكار . فأدب الرحلة ، على هذا الصعيد ، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً ، ومخزناً للمشاهد والقصص والوقائع والملاحظات ، فضلاً عن كونه مادة سرديّة شائقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى ، ووعي يُلِمُّ بالأشياء ويحلِّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكَّرُ فيها .

الظَّاهرة الغربية في قراءة الآخر الشرقي وتأويله ، شكلت ذات يوم دافعاً ومحرضاً بالنسبة إلى أفراد من النخب العربية المثقفة ممن وجدوا أنفسهم في مواجهة صور غربيَّة لمجتمعاتهم جديدة عليهم ، وهو ما استفز فيهم العصب الحضاري ، وولَّد لديهم دوافعَ وأسباباً لشدّ الرحال نحو الآخر ، بحثاً واستكشافاً ، ليعودوا ومعهم ما يقولونه في حضارة الآخر الغربي ، ونمط عيشه وأوضاعه ، ضاربين بذلك الأمثال للناسِ ، ولينبعث في المجتمعات العربية ، وللمرة الأولى ، صراع فكري حاد تُسْتَقْطَبُ فيه القوى الحيَّةُ في المجتمع بين مؤيد للغرب موالٍ له ومتحمِّسٍ لأفكاره وصياغاته ، وبين معادٍ لذلك الغرب ، رافضٍ لهُ ، ومستعدّ لمقاتلته .

وهو ما أثرى المكتبة العربية بعدد من المؤلفات لأحمد فارس الشدياق ، محمد عبد الله الصفار ، محمد الحجوي أبو جمال الفاسي ، فرانسيس المرَّاش ، سليم بسترس أحمد زكي باشا ، إدوارد بك الياس ، محمد لبيب البتنوني ، جرجي زيدان ، محمد كرد علي ، محمد عياد الطنطاوي ، الأمير محمد علي ، مصطفى فروخ ، عنبرة سلام الخالدي ، محمد رشيد رضا الأمير يوسف كمال ، محمد ثابت ، لويس شيخو ، طه حسين ، ومحمود تيمور . . . وغيرهم .

لكن هذا اللون من الأدب سرعان ما اختفى في النصف الثاني

من القرن العشرين ، تاركاً مكانه لأعمال البحث الفكري والكتابات الأيديولوجية في حمأة صراع سياسي واجتماعي عربي محتدم ، إضافة إلى ظهور الرواية وانتشارها الواسع في النصف الثاني من القرن نفسه . غفا السندباد واختفى أدب الرحلة ، ولم تعد الكتابة في هذا الميدان تشكل ظاهرة أدبية يمكن الإشارة إليها .

نطمح أن تكون هذه السلسلة من الكتب مؤشراً على يقظة السندباد .

محمد أحمد السويدي

مقدمة

أغوتني فكرة الرحلة الطويلة الممتدة ، وأغواني السفر ، ثم أغوتني الكتابة عن السفر ولم أكُ قد جربتها من قبل ، ولكني لم أشأ أن تكون كتابتي مجرد سرد للأماكن والمحطات البارزة ، بعد أن وجدت نفسي تلقائيا ، أمزج بين السرد والتأملات الذاتية والذكريات ، وأحيانا كنت أجنح إلى نوع من التحليل ، وأتوقف أمام وقائع محددة وقعت لي خلال رحلاتي . لم أكن قد أعددت ووضعت خطة مسبقة للكتابة بشكل هندسي يقوم على عناصر محددة ، لذلك فقد جاءت كل رحلة من الرحلات التي يضمها هذا الكتاب ، مختلفة في سياقها وطريقة ومسار السرد فيها عن غيرها ، بحكم اختلاف المدخل إليها .

كانت السينما باستمرار ومنذ أن بدأت العلاقة مع الكتابة بل ومع العالم الفسيح خارج بلدي الذي غادرته للعيش في الخارج منذ زمن بعيد ، تشغل الحيز الأكبر من حياتي ومن علاقتي بالعالم . وكانت بالتالي حاضرة في معظم كتاباتي ، ولاشك أنها حضرت أيضا ، أحيانا بقوة ، بين فصول هذا الكتاب ، فالسينما لها الفضل الأكبر أولا في دفعي للسفر والترحال من أجل المشاركة كناقد في المهرجانات السينمائية الدولية ، وثانيا كان عالم السينما نفسه هو الذي ألهمني ودفعني إلى التعرف على الثقافات الأخرى ، التي تتجسد على نحو أو

آخر ، في الكثير من الافلام التي شاهدتها ويمكنني القول إنه بلغت آلافا مؤلفة من الافلام من كل الأنواع .

من خلال السينما كان اكتشاف المدن ، وفي حاضرة المدن كان اكتشافي للإنسان ، كيف يختلف عن غيره بحكم اختلاف الأماكن والثقافات والخلفيات التاريخية والاهتمامات أيضا . وفي المدينة يتجلى فن العمارة حتى أن الرحلة بين المدن المختلفة ، هي - بشكل أو آخر- رحلة في المعمار ، في جماليات الأماكن والإبداعات سواء تلك التي تركها لنا الأجداد في شتى بقاع الأرض ، أو يسعى المحدثون إلى ترسيخها من منظورهم الحديث لكي تكون شاهدة عليهم في المستقبل .

من الإبحار في التاريخ والتأمل في فنون العمارة والسينما والتصميم الفني ، ومحاولة العثور على مفاتيح المدن المختلفة ، جاء هذا الكتاب الذي يجب أن اعترف أن تجربة كتابته كانت بالنسبة لي بمثابة اكتشاف أيضا للذات ، للنفس الباحثة عن الجمال وعن متعة اكتشاف العالم ، عن التفاصيل التي تكمن وراء ظاهر الأشياء ، ومحاولة تقديم تحليل أو تصور شخصي للكثير منها من وجهة نظر ذاتية ، دون أي حساب للصنعة ، ودون أن يكون الهدف هو الإبهار أو الصدمة . فلعل القارئ سيعثر في الكثير من سطور هذا الكتاب على بعض ما عبرت عنه من انتقادات أحيانا ، أو مراجعة لبعض المفاهيم التي كانت مستقرة في الماضي ثم جعلتها الرحلة والتحليق عن قرب من «الحقيقة» ، أكثر جلاء ووضوحا .

وربما يمكن للقارئ أن يلمس أيضا ويتعرف على الكثير مما يشغل الكاتب ، ويقلقه وليس فقط ما يبهجه ويدخل السعادة على نفسه .

وربما يجد القارئ ما يتناقض مع تصوراته المسبقة عن بعض الأماكن والبلدان ، وكلها جزء من فرحة الاكتشاف ، ومن متعة الرحلة . ورغم أن الفصول مقسمة بطريقة واضحة ومحددة تحمل عناوين تشير إلى أسماء بلدان معينة ، إلا أن السرد يجنح أحيانا إلى التداخل ، وفي أحيان أخرى يعود في نوع من «الفلاش باك» أو العودة إلى الوراء -باستخدام المصطلح السينمائي المعروف- لرواية بعض الوقائع والأحداث التي تتداعى في الذهن من وحي الأماكن التي أتوقف عندها ، كما أن بعض الأحداث تتداخل أحيانا بأسلوب التداعيات الحرة التي لا تلتزم بوحدة المكان والزمان ، فلم يكن الهدف صنع بناء درامي متصاعد للكتاب ، بل كانت الرغبة الأكثر إلحاحا ، هي التعبير الذاتي عن العالم من خلال استرجاع الوقائع والأحداث واستلهام الكثير من الأماكن التي مررت بها وأصبح يفصلني عنها عشرات السنين . وكان من بين ما اكتشفته خلال الكتابة ، وهو ما أدهشني ، أن الذاكرة لاتزال تحتفظ بالكثير مما يمكن استرجاعه وسرده بدقة أكثر لم تكن واضحة أمامي عندما كنت في قلب التجربة . ولعل هذا الانبلاج الذي يأتي فجأة بينما يتأمل المرء في الماضي ويحاول استعادته بالصور والحركة والأصوات والألوان أيضا ، هو ما يشكل معا «سحر الكتابة» .

في طبقة ما ، بين سحر المكان وسحر الكتابة ، يقع هذا الكتاب الذي أرجو أن يستمتع القارئ بما جاء فيه كما استمتعت وانا أسترجع مادته وفصوله وأصوغها ، في معظم الأحيان كما لو كنت أكتب لنفسي . وربما يكون الشئ الوحيد الذي لا يجعلني راضيا تماما هو أنني لم أتمكن من وضع كل ما مررت به وما خبرته خلال رحلاتي وأسفاري من تجارب ، في هذا الكتاب . لكن ما وضعته عنها ربما يكون كافيا في

نقل الكثير من مشاعري وأفكاري وأنا أمر بكل ما مررت به من أماكن وأشخاص .

وكل ما أتمناه أخيرا أن يصل كتابي هذا إلى قلوب القراء ، ويدخل السعادة على نفوسهم ويقربهم من عالمي ، فهذا التواصل بين الكاتب والقارئ هو أسمى الأهداف ، وعندما يتحقق تصبح المتعة لا تعادلها متعة أخرى .

أمير العمري

١
المرة الأولى: إلى الجزائر

في مارس ١٩٨٠ ركبت الطائرة للمرة الأولى في حياتي . كنت قد قررت السفر من مصر إلى الجزائر للعمل هناك . لم تكن الطائرات في ذلك الوقت ، قد بلغت ما بلغته حاليا من تقدم ، سواء في سرعتها أو في أجهزة الاتصال الموجودة فيها التي توفر لها الاتصال مع خدمات التوجيه الأرضي ، بالإضافة إلى أشياء أخرى مثل صوت المحركات ، فقد كان صوتها حقا مزعجا بل مخيفا ، وكان ينبهك طيلة الوقت إلى أنك داخل آلة تطير في الجو ، وأنه لم يعد لك حول ولا قوة منذ أن ابتعدت المركبة بك عن كوكب الأرض . وقد قضيت نحو أربع ساعات هي المدة التي قطعتها الطائرة من القاهرة إلى الجزائر العاصمة ، أفكر في هذا الاختراع المخيف : في فكرة السير في الأجواء العالية (أكثر من عشرة كيلومترات فوق سطح الأرض) أي عشرة آلاف متر في خط سير محدد ، يعرفوه الطيارون وقد تدربوا عليه ، رغم أنك إذا تطلعت من النافذة المجاورة لك ، لا تستطيع أن تتبين أي معالم على الإطلاق ، فالطائرة تطير في الواقع ، فوق السحب التي تحجب الرؤية في الأسف في معظم الأحيان ، لكنها أجهزة التوجيه والمتابعة الالكترونية هي التي تلعب الدور الرئيسي في مسألة الطيران .

كانت بعض التساؤلات «الوجودية» ومازالت ، تلح علي كلما

ركبت الطائرات ، وقد ركبتها منذ ذلك الوقت حتى الآن- مئات المرات ، كل أنواع الطائرات ، بما فيها الطائرات البدائية غير النفاثة التي تطير فوق الصحراء ولا تتسع لأكثر من ثلاثين راكبا . كانت عندي دائما تساؤلات تتعلق بفكرة التعلق في الجو بين السماء والأرض ، حيث لا يملك المرء من أمره شيئا ، فهو لا يستطيع أن يتحكم في حركة السير ، ولا أن يطلب من الطيار مثلا أن يهدئ السرعة أو يتوقف قليلا لالتقاط الأنفاس ، أو للنزول للاستراحة قليلا ثم العودة ، فقد أصبح يواجه مصيره ، دون أن يعرف بأي أرض يموت في حالة وقع خلل أو عطل مفاجئ في الطائرة كما يحدث أحيانا .

كنت مثلا . . لكوني لا أعرف السباحة ، أموت في جلدي- كما يقولون- كلما رأيت المضيفين والمضيفات ، يقدمون لنا ما يسمونه «عرض ضمانات السلامة» وهو ما أطلق عليه «عرض الموت» أو ما قبل الموت ، فهم يشرحون للمسافرين الإجراءات الواجب اتخاذها في حال تعرضت الطائرة للسقوط في الماء أي في مياه البحر ، ويندر ألا تطير الطائرات فوق البحار بل والمحيطات أحيانا . وكنت دائما وحتى الآن ، أضحك كثيرا على «عرض الموت» هذا عندما أسمع المضيفة تشرح لك كيف ترتدي سترة النجاة وتشدها جيدا حول وسطك وتربطها ، ثم تستخدم خرطوما لنفخ الهواء في السترة لتجعلها مثل البالون يمكنها أن تطفو بك فوق سطح الماء ، مع تحذيرك بضرورة عدم نفخ السترة إلا بعد الخروج من الطائرة (ياروح ما بعدك روح!) ، كما تنبهك أيضا إلى استخدام صفارة مرتبطة بالسترة للفت الانتباه ، ربما تقصد- لفت انتباه أسماك القرش التي ستهرع لالتهامك كوليمة دسمة شهية .

كنت دائما أعتقد أن هذا العرض أو الاستعراض الذي يتكرر

بالحاح كلما ركبت الطائرة ، أمرا مثير للسخرية ، فكيف بالله عليكم يمكن لأي إنسان مهما بلغ من القدرة على ضبط أعصابه ، أن يتبع كل هذه الخطوات المنهجية بالترتيب عندما يكون قد أصبح مشرفا على الوقوع في «شر أعماله» في أعماق مياه البحر . وكنت على يقين من أن الكثير ممن يتعرضون لمثل هذه الحوادث يفقدون الحياة بفعل الصدمة العصبية قبل أن ترتطم الطائرة فعلا بسطح الماء .

الغريب أنني كنت أشعر بالقلق أكثر عندما تطير الطائرة فوق البحر وليس فوق اليابسة ، لأنني أولا لا أعرف السباحة ، وهو خطأ «تاريخي» لا أستطيع أن أغتفره لنفسي ، وثانيا لرفضي فكرة أن أصبح طعاما شهيا لبعض الأسماك المتوحشة . وكنت أشعر ببعض الاطمئنان عندما تطير الطائرة فوق الأرض اليابسة بل حتى الجبال ، رغم أن قدرتك على التدخل بأي شكل في توجيه الطائرة معدومة من الأساس في كلتا الحالتين .

مع تكرار السفر بالطائرات مرات ومرات ، اعتدت أن أتجاهل «عرض الموت» ، كما أتجنب دائما فكرة الجلوس بجوار النافذة مفضلا الجلوس في المقعد المجاور للممر الفاصل بين صفي المقاعد ، فهو يتيح لك مراقبة حركة البشر وتصرفاتهم في المقاعد المجاورة ، كما يمكنك أن تسد أذنيك بسماعتين وتستمع للأغاني وتشاهد الأفلام ، وتوهم نفسك بأنك جالس في قطار مكيف مريح ، وهو شعور لن تستطيع التمسك به ذا ما بدأت الطائرة في الاهتزاز والارتجاف بفعل «المطبات الهوائية» التي تأتي كثيرا وتصل لدرجة مزعجة أحيانا .

مع التقدم في العمر وتعمق تجربة الطيران ، لم يعد الأمر مرتبطا بالخوف من السقوط أو من الموت عموما فهو قدر ومكتوب علينا

جميعا ، بل شعور فقط بالقلق ومن فكرة انعدام القدرة على التحكم- ليس فقط في طريقة سير الطائرة وقيادتها- بل فقدان القدرة على التحكم في جسدك نفسه ، فيزيائيا وفسيولوجيا ، فمن الممكن أن تشعر مع الاهتزاز الشديد للطائرة ، بارتفاع في ضغط الدم ، واحتقان الوجه ، وافراز العرق من كفيك ، مع الشعور بالدوار بالطبع . وكانت مسألة الدوار أول ما واجهت في السنوات الأولى لتجربتي في السفر بالطائرات . وكنت أحيانا أضطر لاستخدام مهدئات تساعد على الاسترخاء وتنويم الدماغ قليلا حتى تكف عن التفكير ومن ثم الشعور بالفزع من تلك التجربة التي وصفها «دعاء السفر» بـ«كآبة المنظر وسوء المنقلب» كما لو كانت نبوءة بـ «انقلاب» الطائرة!

هذا الهم المؤرق من ركوب الطائرات ظل معي حتى اليوم اي بعد أكثر من ٣٥ عاما على أول رحلة بالطائرة . لم أشعر قط بالاستمتاع من تجربة الطيران مثل كثيرين غيري ، وأشعربالحسد إزاء كل من أراهم من حولي في الطائرات ، يتبادلون الأحاديث والضحكات والقفشات كأنهم يحضرون حفلا . ولكني أيضا ألاحظ بعض من يكتمون شعورهم بالقلق والتوتر ، خاصة من كبار السن ، ومنهم من يقرأ في القرآن الكريم طوال الوقت ، لعله يصل بفكره وعقله إلى دنيا الله ، ويغادر ولو ذهنيا وعلى نحو مؤقت ، عالم الطائرة .

يجب أن استدرك لأقول إنه رغم عدم ارتياحي من ركوب الطائرات ، إلا أنني أدمنته ، فلم أفكر أبدا في الاستغناء عنها ، ولو خيرت بين القطارات كوسيلة للسفر وبين الطائرة لاخترت الأخيرة ، لأنني أيضا أكره فكرة الجلوس لساعات طويلة قد تصل إلى أيام ، في انتظار الوصول إلى مقصدي ، وأفضل سرعة الوصول الذي توفره الطائرة .

اكتشفت أيضا بعد فترة أن طقوس تقديم الطعام لركاب الطائرات وهي طقوس تستغرق الكثير من الوقت وتمر بمراحل معينة مثل توزيع المشروبات ثم تقديم الأطعمة ، ثم الشاي والقهوة ، ثم جمع الفوارغ والمخلفات ، ليس مقصودا منها بالدرجة الأساسية «تغذية» ركاب الطائرات ، أو توفير مواد غذائية تمنحهم السعرات الحرارية المطلوبة أو التي تعوض ما يفقدونه بسبب مجهود السفر ، من الاستيقاظ المبكر والسعي نحو المطار والانتظار لفترة قد تصل إلى ساعات عدة ، ثم ركوب الطائرة والاستجابة لمرحلة الصعود القاسية التي قد تستغرق عشر دقائق ، بل إن الهدف الأساسي من تقديم الطعام هو مساعدة المسافرين على نسيان أنهم يطيرون في الجو ، وإشغال بالهم وتحويل تفكيرهم بعيدا عن التفكير في هذا «المأزق الوجودي» .

هبطت الطائرة الأولى التي ركبتها في ذلك العام المشهود ، بسلام في نهاية المطاف ، على أرض مطار الجزائر . وبعد إنهاء إجراءات ختم جواز السفر ، تعرضت للتفتيش اليدوي الدقيق بحثا عما يمكن أن أكون قد خبأته من «عملات صعبة أجنبية» . كان الهاجس الرهيب المسيطر على عقول المسؤولين في الجزائر وقتها ، هو «العملة الصعبة» التي يستخدمون في وصفها كلمة «الدوفيز» ، وكانت الجزائر بعد رحيل الرئيس بومدين لاتزال تخضع لحكم سلطة تشبه نظم الحكم التي كانت لاتزال قائمة في البلدان الاشتراكية أو بلدان أوروبا الشرقية ، دون أن تملك برامج مشابهة للتنمية بالطبع ، ناهيك عن القوة الصناعية . كان من المحظور إدخال عملات صعبة دون أن تعلنها وتستبدلها بالعملة المحلية التي حسب السعر الذي تحدده الحكومة وليس حسب مقتضيات السوق ، وهو نظام مازال قائما ليس في الجزائر

بل وفي بلدان المغرب العربي الثلاثة ، كما تحظر هذه البلدان خروج أي مسافر بالعملة الأجنبية دون أن يكون لديه ورق رسمي يفيد بحصوله عليها من البنوك الرسمية ، أي لابد أن يكون لديه حساب بهذه العملات أو يقوم باستبدال ما تسمح له به الحكومة فقط وهو عادة يكون مبلغا زهيدا . والهدف كان ولايزال مقاومة السوق السوداء ، لكن سياسة التضييق كانت دائما تؤدي إلى العكس أي تشجع على التهريب وعلى ازدهار السوق السوداء بدلا من أن توقفها أو تقضي عليها .

المهم . . أنني لم أجد الصديق الذي كان يفترض أن يكون في انتظاري في مطار الجزائر الذي أطلقوا عليه مطار هواري بومدين نسبة إلى الرئيس الأسبق الذي صنعت منه الدعاية الرسمية عبر سنوات أسطورة . كان يتعين علي أن أستقل سيارة أجرة (تاكسي) لتوصيلي إلى عنوان صديقي الذي كنت أعلم بأنه قد يكون مرتبطا في محاضرة بالجامعة في ذلك الوقت ، وربما يكون قد تأخر لهذا السبب . وعندما تمكنت من الوصول إلى منزله ، لم أجده هناك واضطررت للانتظار أمام الباب بعض الوقت إلى أن حضر وأخذ يعتذر كثيرا عما حدث بسبب اضطراره لأخذ محاضرة أستاذ آخر كان قد تغيب بشكل مفاجئ .

لم يكن عدد سكان الجزائر في ذلك الوقت يتجاوز عشرين مليون نسمة . وكانت العاصمة لاتزال تتمتع برونقها وسحرها الخاص ، وألوان بنياتها السكنية البيضاء مع النوافذ المطلية باللون الأزرق . ولم تكن الشوارع قد أصبحت مكتظة بالسكان كما أصبحت بعد أن تضاعف عدد السكان وازدادت البطالة وأصبح الشباب يقف في الساحات الرئيسية في المدينة مثل ساحة «جراند بوست» أو ميدان دار البريد ،

وهو مبنى بديع مصمم عل الطراز العربي الإسلامي أنشأه الفرنسيون في المنطقة الأساسية التي توازي شاطئ البحر قرب الميناء وتمتد كيلومترات على ارتفاعات مختلفة فوق التلال والجبال الخضراء ، وكانت هذه المنطقة التي تشمل عددا من الأحياء الراقية تضم الفرنسيين والأجانب الأوروبيين المستوطنين عموما ، وكان عددهم كبيرا ، أما الجزائريون فكان معظمهم يقطنون حي القصبة الشهير أو المدينة القديمة وهي مرتفعة كثيرا عن سطح البحر وفيها الكثير من المعالم القديمة التاريخية والآثار والمساجد والقلعة القديمة ، كما توجد بعض الأحياء الشعبية الأخرى مثل باب الواد والحراش .

عندما دخلت حي القصبة وجدت بيوت الجزائريين ملتصقة ، والشوارع ضيقة ، وملتوية ، والحارات متعددة المستويات ، يمكن الوصول إلى بعضها عن طريق سلالم مرتفعة .

في الطريق من المطار إلى المدينة كنت أشاهد من نافذة سيارة التاكسي مناظر رائعة للمدينة التي تقع فوق ربى جبلية ، وفي المساء تلمع الأضواء التي تضئ المساكن ذات الأسطح القرميدية . وضيق الطرق داخلها ، والتواؤها هو معلم من المعالم الثابتة في كل المدن العربية القديمة التي زرتها ، بل والمدن القديمة الواقعة داخل أشهر المدن الإيرانية أيضا . رأيت هذا الطابع العربي الصميم في المدينة القديمة بتطوان في شمال المغرب ، والرباط ، والدار البيضاء ، وتونس ، ورأيته بالطبع في القاهرة القديمة الإسلامية ، في أحياء الحسين والباطنية ومصر القديمة . وفي البازار القديم في قلب مدينة اصفهان ، والأمر كذلك في اسطنبول . وهو نمط موجود أيضا في الأحياء القديمة في مدن الأندلس مثل اشبيلية ، ولكنه ليس قاصرا على الأحياء الإسلامية بل

هو أيضا علامة مميزة لما يسمى بالحي اليهودي في اشبيلية مثلا بل وحتى في براج التشكية .

ويبدو أن فكرة المباني المتلاصقة والشوارع الضيقة والبناء فوق مرتفعات جبلية والابتعاد عن السهول وساحل البحر ، تتسق مع الرغبة في الحماية ، والقدرة على الدفاع عن النفس ضد الغزاة الذين يأتون عادة من البحر أو من السهول ، إلى جانب الرغبة في الاختفاء والاختباء وعدم الاختلاط (في حالة الجيتو اليهودي مثلا) . وقد رايت نفس النمط في المدن العربية والشرقية القديمة التي زرتها : في إيران كما في المغرب وتونس وسوريا واسطنبول بل ومدن الأندلس مثل قرطبة واشبيلية .

كانت الجزائر العاصمة في أوائل الثمانينيات رغم الانغلاق السياسي ، مدينة يتعايش فيها الكثير من أبناء الدول العربية ، من السودان ومصر وسوريا ولبنان والعراق وفلسطين واليمن . وكانت الجزائر العاصمة قد أصبحت إحدى المدن التي لجأ إليها المثقفون «المعارضون» اليساريون بوجه خاص ، من مصر والعراق تحديدا ، بعد الهجمة الطاغية التي تعرضوا لها سواء من قبل مخابرات نظام صدام حسين (خاصة مذبحة ١٩٧٩) ولجوء آلاف الشيوعيين العراقيين إلى الجزائر ، وكانت الغالبية الساحقة منهم من المهنيين والمثقفين وأساتذة الجامعات ، وبدرجة أقل جاء إلى الجزائر عدد من المثقفين المصريين الذين وجدوا أنفسهم خارج النظام تماما مستبعدين من الحياة العامة بعد توقيع نظام السادات اتفاقية كامب ديفيد .

عرفت بعد فترة من الإقامة هناك أنه قد جاء إلى الجزائر الكاتب المسرحي الكبير الفريد فرج ، والمفكر والكاتب سعد زهران ، والشاعر

نبيل قاسم ، والمناضل العمالي الكبير يوسف درويش ، والشاعر حسن فتح الباب ، وغيرهم كثيرون . وكان هناك أيضا الفريق سعد الدين الشاذلي الذي لجأ إلى الجزائر بعد أن استقال من منصبه كسفير لمصر في البرتغال بعد توقيع السادات اتفاقية كامب ديفيد . وكان الشاذلي يعمل مستشارا عسكريا لرئيس الجمهورية الجزائري .

كان من الممكن أن تلتقي بعض هؤلاء المثقفين المصريين وكثير من المثقفين العرب في مقهى شهير بشارع ديدوش مراد في وسط العاصمة ، وكان ما يقال عنه أنه بؤرة تجمع أجهزة المخابرات العربية كلها . تستمع وتراقب وتسجل . لكن من الحق أن يقال إن المناخ العام في ذلك الوقت كان مناخا جميلا ، فيه قدر كبير من التجانس بين البشر ، ولم تكن أحوال الشارع الجزائري قد شهدت ما شهدته بعد ذلك في التسعينات ، من توتر حاد مع بروز جماعات الإسلام السياسي والعنف باسم الدين وما تلا ذلك من صراع مسلح استمر لسنوات .

بعد أيام قضيتها في العاصمة الجزائرية كان لابد أن أسافر إلى مدينة بسكرة في الشرق الجزائري حيث كانت توجد هناك مجموعة من الأصدقاء ، وكنت أنتظر أن التحق بالعمل هناك بعد نحو شهرين قضيتهما في ضيافة الصديق المهندس هاني المنياوي وشقيقه عبد الرحمن المنياوي . وكان الإثنان يعملان في مجال الهندسة المعمارية ، في بناء ما يعرف بـ «القرى الاشتراكية» وهو مشروع عملاق تبنته الحكومة الجزائرية في عهد بومدين واستمر في عهد خلفه الشاذلي بن جديد ، واقامت بموجبه ٤٠٠ قرية من تلك القرى الحديثة التي تتوفر على نمط معماري مميز وساحات مفتوحة وملاعب وأسواق وغير ذلك . .

وكان البناء يعتمد على المواد المحلية مثل الأحجار بعد تأهيلها وجعلها مناسبة للاستخدام ، وكان منهج الأخوين المنياوي يتسق مع مدرسة حسن فتحي وكانا قد تتلمذا على يدي مهندس من تلاميذ حسن فتحي ، علمت أنه توفي في حادث سير مأساوي في الجزائر .

كان في مدينة بسكرة أيضا الدكتور محمد الدرديري ، الذي زاملته في الدراسة الجامعية وهو يكبرني ، وقد اتجه للتمثيل بعد أن غادر الجزائر وعاد إلى مصر لكنه لم يحقق نجاحا يذكر بل ظل بكل أسف- رغم موهبته التي لاشك فيها والتي برزت خلال سنوات المسرح الجامعي في السبعينات- يقوم بأدوار ثانوية في بعض الأفلام والمسلسلات . كان هناك أيضا عدد من المهندسين الشباب الذين كانوا يعملون في المكتب الخاص بالأخوين المنياوي وهو المكتب الذي افتتح طبقا للنظام الحكومي الذي كان يسمح بوجود مثل هذه المكاتب الخاصة (الأجنبية) على أن تعمل فقط لحساب الدولة أي تحصل على مشاريع من الولاية نفسها التي يوجد المكتب في نطاقها . وكان من حق المكتب أن يحول جزءا من أرباحه الى الخارج . وكانت قضية العملة في الجزائر شديدة الحساسية فلم يكن مسموحا للمواطنين الجزائريين سوى الحصول على مبلغ زهيد بالفرنك الفرنسي عند سفرهم إلى الخارج الذي كان يقتضي أيضا الكثير من التصاريح والإجراءات .

تبعد مدينة بسكرة عن الجزائر العاصمة نحو ٤٠٠ كيلومتر . هناك طيران مباشر بواسطة طائرة بدائية أصغر قليلا من حجم حافلة ، كانت تقطع المسافة في حوالي ساعة بعد رحلة طيران فوق الصحراء الممتدة ، وكانت تصدر صوتا مرتفعا مزعجا ، ولكن المحظوظين فقط هم الذين كان يمكنهم الحصول على تذكرة سفر على متن هذه الطائرة ، وفي

معظم الأحيان عن طريق وساطة من أحد المسؤولين أو «المعارف الكبار» . وكان الأخوان المنياوي بحكم عملهما مع سلطات مكتب الوالي (أي المحافظ) يمكنهم الحصول لهما ولأصدقائهما على هذه التذاكر . أما الوسيلة الثانية فكانت الحافلة أو الباص الذي يقطع المسافة في حوالي ٧ ساعات يمر خلالها ، مثله مثل السيارة الخاصة ، بطريق جبلي صاعد يبلغ حوالي ٤٠ كيلومترا يسمى طريق الطبلات . ولعل التسمية لها علاقة بطبيعة هذا الطريق الذي يخترق الجبل ويلتوي كالثعبان التواءات كثيرة جدا بين كل عشرة أو ١٥ مترا ، ليصبح مثل الثعبان ، ولا يمكنك القيادة في هذا الطريق الضيق بسرعة تزيد عن ١٥ كيلومتر في الساعة . وكثيرا ما شهد الطريق حوادث مميتة لمن لا يعرفونه جيدا ، خاصة بعض الجزائريين الذين عادوا لتوهم من فرنسا ، بعد سنوات من الغياب ، وكانوا يقودون سياراتهم بسرعة جنونية متصورين أن الطريق قد اصبح مفتوحا ، وفجأة يجدون أنفسهم في منطقة معينة يمكنني أن أطلق عليها «منحنى الموت» الملتوي الذي لا يمكن إلا للسائق الماهر الذي يعرف أسرار الطريق أن يتحكم في عجلة القيادة دون أن تهوي منه السيارة من فوق الجبل إلى هاوية سحيقة . وقد شهدت بعيني رأسي أكثر من حادثة في تلك المنطقة ، وذات مرة كنت أقود السيارة في طرق «الطبلات» هذا وعبرت بجواري سيارة محملة بكثير من السلع الفرنسية كما كان يبدو من زجاجها ، وكان يقودها شاب جزائري وبجواره صديقه أو قريبه . وكان في أغلب الظن عائدا إلى بلاده بعد أن عمل لسنوات في فرنسا ، سعيدا لا يستطيع الانتظار لحين رؤية عائلته ، وبعد أن أصر على تجاوزي ، وعبر مسرعا ، سرعان ما وجدت السيارة بعد مسافة قصيرة للغاية ، وقد

سقطت من فوق الجبل وتحطمت وتصاعد منها الدخان . لقد قضى المسكين قبل أن يصل إلى بلده!

كان المهندس هاني المنياوي موجودا في العاصمة وقت وصولي ، وقد جاء إلى منزل صديقي ليصطحبني معه إلى بسكرة ، وأخذ يقود السيارة بسرعة مخيفة وكانت سيارته صغيرة من طراز رينو - ٥ الصغيرة ، وكنت مذهولا من جمال الطبيعة الجبلية في المنطقة الخضراء ، التي تجعل المرء يشعر وكأن يد الله قد خطت على جسد الجبال أشكالا بديعة التصميم ، ورشقتها بالأشجار والنباتات ولابد أنها تحوي أيضا الكثير من الحيوانات النادرة التي لن يصادفني منها فيما بعد ، أي بعد أن أصبحت قادرا على أن أقود سيارتي في هذا الطريق من وإلى العاصمة ، سوى بعض الذئاب التي يمكنها أن تهجم على سيارتك في الليل بينما تلمع عيونها في شراسة غريبة ، ولابد أن تكون النوافذ الزجاجية للسيارة مغلقة وإلا فقد يتمكن الذئب من القفز لكي ينهش يدك ، وهو ما لم يحدث لحسن الحظ!

تقع مدينة بسكرة في الشرق الجزائري على بعد نحو ٢٠٠ كيلومتر من مدينة قسنطينة العظيمة . وبالقرب من بسكرة هناك «حمام الصالحين» وهو مزار شهير اكتسب سمعة عالمية ، يأتي إليه كبار السن والذين يعانون من أمراض الروماتيزم ، للاستجمام والغوص في مياهه المعدنية التي تساعد على تخفيف الآلام ويقال إنها تشفى الكثير من امراض العظام لكني لم أجرب .

في ذلك الوقت كنا شبابا صغيرا ، متمردا يميل إلى المغامرة ، وكنا ننطلق في الكثير من المغامرات والرحلات ، نقطع الجزائر من شرقها إلى غربها . كنا كثيرا ما نذهب لقضاء بعض الوقت في منتجع زيرالدا

وضاحية سيدي فرج على مسافة ٢٠ كيلومتر غربا من العاصمة الجزائرية ، حيث مطاعم السمك الفاخرة التي لم تكن تقل في مستواها عن أفخم مطاعم أوروبا ، ولكن بأسعار زهيدة للغاية . وذات مرة قمت مع اثنين من الأصدقاء ، برحلة من بسكرة إلى وهران أي من شرق الجزائر إلى غربها على الساحل الشمالي . كانت المسافة حوالي ١٢٠٠ كيلومتر . وعندما وصلنا إلى وهران في المساء كان الفندق الذي سنقضي الليلة فيه ، يقع خارج المدينة قليلا إلى الغرب منها ، وقد وجدنا أجواءه صاخبة حقا . كان الشباب قد تجمع في الساحة الرئيسية للفندق وكانت ساحة مفتوحة ، وأخذ يرقص فتيانا وفتيات على الإيقاعات الموسيقية الصاخبة ، ولم يكن ممكنا لمن ظل يقود السيارة لأكثر من عشر ساعات ، أن يركن للنوم في تلك الليلة . ولم يكن هناك بد من الاستيقاظ إلى حين طلوع الصباح لكي نبدأ رحلة العودة على أن نتبادل القيادة خلال مراحل الطريق المختلفة . ولابد من القول إن وهران بجمالها وبهائها قد بهرتني في ذلك الوقت ، وتمنيت أن أنتقل للإقامة والعمل فيها ، ولكن كان الأمر صعبا . كانت وهران تختلف تماما عن بسكرة في كل شئ ، فمناخ بسكرة شديد الحرارة صيفا ، وكان يمكن أن تصل درجات الحرارة إلى خمسين درجة في الشمس . ولم تكن السيارات في ذلك الوقت مكيفة ، ولا كانت تعرف أصلا التحكم الدقيق في عجلة القيادة الذي أتى بعد سنوات أي نظام الـ «باور ستيرينج» الذي يجعل القيادة أسهل وأكثر سلاسة . وكان الجلوس لمدة طويلة داخل السيارة في الصيف جحيما لا يطاق .

وقد وقعت لي ذات مرة حادثة من أغرب ما تعرضت له خلال رحلاتي وأسفاري الممتدة منذ أكثر من ٣٥ عاما . فقد كنت مسافرا من القاهرة إلى الجزائر (في الثمانينات) وكنت قد حجزت على الخطوط الجوية الجزائرية . وذهبت إلى المطار في وقت مبكر كعادتي ، وأنهيت كل اجراءات السفر بما في ذلك تسليم الأمتعة التي لاشك قد وجدت طريقها إلى مخزن الحقائب في الطائرة . وجلست أنتظر أن يحين موعد النداء على المسافرين من أجل ركوب الحافلات التي ستنقلنا إلى حيث توجد الطائرة .

كنت من مكاني في صالة الانتظار ، أستطيع أن أرى الطائرة الجزائرية التي لم تكن تبعد كثيرا عن صالات السفر . وكعادتي كنت دائما أكره التزاحم والمزاحمة والتدافع الذي كثيرا ما يحدث في المطارات ، فمن أكثر السلوكيات غرابة ، ذلك الاندفاع الصاخب الذي يدفع المسافرين إلى النهوض والحرص على الوقوف في الطابور قبل غيرهم وكأنهم قد سئموا الانتظار ، وربما أصبحت فيما بعد أفهم سر هذا السلوك الذي كنت أراه بدائيا . لكنني في ذلك الوقت كنت أنفر كثيرا من مزاحمة ومحاولة أن أكون من الأوائل ، ففضلت الانتظار إلى أن يركب الجميع الحافة . وبالفعل امتلأت الحافلة بالركاب ، وعندما هممت وخلفي اثنان فقط من المسافرين للخروج من باب القاعة لركوب الحافلة منعني موظف الأمن المسؤول . وأشار علي أن أنتظر الحافلة التالية . أثار تصرفه هذا استغرابي ، فقد كنا فقط ثلاثة أشخاص وكان يمكن أن نندس بين ركاب الحافلة الأولى التي بدأت في التحرك بالفعل تجاه الطائرة . وتأخرت الحافلة الثانية كثيرا ثم وصلت ، وركبنا

فيها أنا وزميلاي الصامتين تماما . وكان أحدهما جزائري تشوب وجها علامات الاكتئاب أو ربما الخوف والحذر فلم يكن يود على ما يبدو المغامرة بالتحدث أو الاحتجاج بل كان ينتظر في صمت . أما الآخر فكان رجلا ليس من الممكن تحديد فيم يفكر بالضبط . المهم أننا جلسنا في الحافلة وجاء السائق وأغلق الأبواب ، لكنه لم يتحرك بل أخذ يتواصل بواسطة جهاز اللاسلكي مع موظفي الخدمة الأرضية في المطار في انتظار التعليمات بالتحرك الى حيث توجد الطائرة . لكن انتظارنا طال ، وبدأت أتساءل بصوت مرتفع عن سبب عدم تحركه ، وصرخت فيه أن يفتح الأبواب لكي نهبط ونسير إلى الطائرة التي كانت تقف على مسافة قريب للغاية . لكنه لم يستجب . ثم حدث شئ غريب عجيب ، فقد بدأت الطائرة الجزائرية تتحرك بالفعل نحو ممر الإقلاع . وأخذت أصيح وأصرخ في السائق وألعن كل من في المطار . وجاء ضابط من ضباط الأمن وأنزلنا من الحافلة وأخذ يعتذر بدعوى أن هذا التصرف لم يكن من جانبهم ، موضحا أن ما حدث يتنافى تماما مع إجراءات الأمن ، فحقائبنا قد أقلعت بالفعل إلى الجزائر ، ومن المحظور تماما أن تسافر الحقائب دون أصحابها- كما قال .

عدنا إلى المطار وألغيت تأشيرة الخروج من على جواز سفري وختم الجواز بختم الدخول ، كأنني سافرت ورجعت خلال ساعة واحدة . . وكنت أصرخ في كل من ألقاه في طريقي من الضباط ومسؤولي المطار ، فمن الذي يتحمل تعطلي عن عملي . . أما المسافران الآخران فكانا صامتين صمت القبور . وقد تبخر تماما موظفو الشركة الجزائرية . وطلب منا مراجعة مكتبها في وسط القاهرة . ولم تكن هناك طائرات بين القاهرة والجزائر سوى مرة واحدة في نفس اليوم من كل أسبوع . . واذن

كان يتعين علي التأخر لمدة أسبوع كامل لى أن يحين موعد الطائرة التالية . وقد علمت فيما بعد أن سبب ما حدث يرجع الى أن الطائرة كانت قادمة من جدة في السعودية ، وكان قد لحق بها في للحظة الأخيرة من هناك ثلاثة من كبار الموظفين الجزائريين (المهمين) على ما يبدو . وبالتاالي فد جاءت الطائرة إلى مطار القاهرة ليكتشف مسؤولو الحركة في المطار أن هناك ثلاثة مقاعد من المقاعد المخصصة لركاب الطائرة من القاهرة ، قد اصبحت بالفعل مشغولة . وبالتالي صدرت الأوامر «السرية» بالتخلص بأي وسيلة من آخر ٣ مسافرين ، وكنت أول هؤلاء الثلاثة . لقد فاتتني الطائرة باختصار شديد ، لأنني تكاسلت في اللحاق بأول الصف مع غيري . وقد اعتذر لي مدير فرع الخطوط الجزائرية في القاهرة كثيرا ، وأخذ يبرر ويشرح أنها ليست غلطته ، وقام باستقبالي بنفسه عند سلم الطائرة عندما حلت ساعة الإقلاع في الأسبوع التالي ، وأجلسني في مقاعد الدرجة الأولى . لكن هذا لم يشف غليلي ، فودعت نهائيا الثقة في انضباط شركات الطيران واحترامها لقواعد الحجز المؤكد وما إلى ذلك ، وأصبحت منذ ذلك اليوم المشؤوم أحرص كل الحرص على أن أكون ضمن أوائل المتزاحمين على ركوب الطائرة ، فلا يجب أن يلدغ المؤمن مرتين!

٢
الطريق إلى تونس

في نوفمبر من ذلك العام قررت أن أذهب للمرة الأولى إلى تونس لكي أحضر مهرجان قرطاج السينمائي . صديقي المهندس هاني المنياوي رتب لي الأمر بحيث أسافر مع سائق خاص كان يعمل لديه في سيارة من سيارات الدفع الرباعي ضمن سيارات المكتب الذي يديره . كان السائق رجلا جزائريا تجاوز منتصف العمر ، بسيطا طيب القلب . وقد بدأت رحلتنا بعد الظهر وقطعنا طرقا ممهدة تمر بالجبال الخضراء تحيطها الطبيعة الرائعة . كانت وجهتنا مدينة تيبسة القريبة من الحدود مع تونس ، ومنها إلى المعبر الرسمي إلى الأراضي التونسية . لكن بعد أن قطعنا نحو ١٧٥ كيلومتر بالسيارة ومررنا بمناطق تهطل فيها الأمطار الغزيرة ، كان الوقت قد أصبح ليلا وكنا قد أصبحنا في منطقة تحيط بها الغابات لا يسكنها بشر . وفجأة توقفت السيارة وفشل السائق في إدارة محركها . كانت البطارية قد ضعفت الى أن توفيت - بالسكتة القلبية . وكعادة الجزائريين توقف بعض أصحاب السيارات والسائقين لتقديم المساعدة ، لكنهم فشلوا في إفاقة البطارية فظلت على عنادها ، ورفضت الاستجابة لكل محاولات الإصلاح . وكان الليل قد توغل وأصبحت تصلنا أصوات الطيور والحيوانات الغامضة الموجودة داخل الغابة . المسافة بين المنطقة التي نوجد فيها

وبين أقرب بلدة تبعد حوالي ثلاثين كيلومترا . لم تكن هناك في ذلك الوقت هواتف محمولة ، ولم يكن من الممكن عمل شئ بعد أن انقطع سير السيارات الأخرى على الطريق . كان يتعين علينا قضاء الليلة بين أحضان الطبيعة داخل السيارة . وكانت بالنسبة لي تجربة قاسية ، فقد كان البرد قارسا ولم تكن لدينا أغطية أصلا . وقد افترشت الجزء الخلفي من السيارة «رانج روفر» ، وكان يعيقني عن الاستغراق في النوم بالاضافة إلى البرد الشديد ، صوت الغطيط الصادر عن رفيقي السائق المرهق بعد هذه الجولة من القيادة الصعبة ، وكان صوت ارتطام قطرات المطر بزجاج السيارة ، كفيلا بإيقاظي كلما تصورت أنني ساستغرق في النوم . كانت أفكاري تتركز في منطقة واحدة بين الحلم واليقظة ، حول سؤال واحد هو : متى يطلع الصباح؟

في الصباح الباكر نهض السائق ، وتمكن من فصل البطارية عن السيارة ، وأوقف سيارة من السيارات العابرة بجوارنا وقال لي إنه سيذهب إلى البلدة القريبة ليصلح البطارية ثم يعود إلي . وبقيت بالتالي أنتظر داخل السيارة . ومر الوقت كأنه دهرا وكنت بصراحة ، أشعر بنوع من الخوف وأنا الغريب المنقطع الصلة عن العالم في تلك المنطقة النائية التي خفف من وطأة الشعور بعزلتها ، جمال الطبيعة الممتدة هناك . عندما عاد السائق أخيرا تنفست الصعداء . وقد تمكن من توصيل البطارية بعد أن شحنها ، ثم أدار السيارة لنواصل السير . ولكن كانت في انتظارنا مفاجئة أخرى عند وصولنا إلى منطقة العبور الحدودية ، فعندما طلب ضباط الحدود أوراق السيارة وتصريح خروجها من الجزائر لم يكن لدى السائق تصريح الخروج ، وأسقط في يدنا ، بعد أن رفض السماح لنا بالعبور الى الجانب الآخر ، وأصبح يتعين علينا

العودة إلى بسكرة ، أي قطع نحو ٣٠٠ كيلومتر ، لكي نأتي بالتصريح . كان هذا خطأ لا يغتفر من جانب السائق المسكين الذي سرعان ما سيدفع ثمنه عندما يتم الاستغناء عن خدماته بسبب إهماله وما كلفه للشركة من تكاليف ضاعت في الهواء .

كانت مغامرة شاقة حقا . وقد كان تصريح الخروج الموجود على جواز السفر الخاص بي يكاد ينفذ ، ولم يكن هناك وقت طويل ، وقد أجرى المنياوي اتصالاته لكي أحصل على تجديد لهذا التصريح ، وكان اليوم يوم عطلة رسمية ، ولكن ضابط قسم الشرطة الذي كان المنياوي يكرمه باستمرار بتقديم الهدايا والعطايا ، نزل من بيته وأتى ليفتح مكتبه في قسم الشرطة خصيصا من أجل أن يضع خاتما جديدا على جواز سفري ، ولكي يعتمد تصريح خروج للسيارة . وكان سائقا آخر أكثر شبابا ويقظة هو الذي سيقوم بالمهمة ، وكان أيضا أكثر حنكة ودراية بالطريق . وقد عاودنا في اليوم التالي الرحلة بعد أن كنت قد شعرت باليأس من العثور على حل ، لكن المنياوي تمكن من حل كل المشاكل وتذليل العقبات الإدارية بمعجزة وفي زمن قياسي .

التشكك والحذر

عند منطقة العبور إلى تونس من الجانب الجزائري تعرضنا لتفتيش أمتعتنا بل وللتفتيش اليدوي المباشر أيضا . وكنت أحمل معي جهاز تسجيل صغير من الأجهزة التي كانت قد ظهرت حديثا ، من التي يحملها الصحفيون معهم لتسجيل المقابلات الصحفية وغير ذلك . وعند فحص الأمتعة ، كان يتعين علي أن افتح حقيبتي وأترك للضابط المسؤول فرصة العبث بمحتوياتها كما يشاء ، لكنه أمسك على آلة

التسجيل الصغيرة والأسلاك المرتبطة بها (المحول والسلك) كما لو كان قد عثر على كنز ثمين ، ولابد أن المسكين الذي لم يكن قد شاهد شيئا من هذا القبيل من قبل ، فقد تصور أنه عثر على جهاز من أجهزة الشفرة التي يخفيها الجواسيس بمهارة . وأخذ ينظر إلى نظرات ملؤها الشك والريبة مع تكشيرة مخيفة على وجهه بشاربه الكث الذي يعتلي شفتين تشيان بالقسوة . وسألني كما لو كان سيوقع بي في فخ ما : ما هذا ياشيخ؟ فشرحت له الأمر وأن هذا جهاز تسجيل صغير ، وكان في حقيبتي شريط مسجل عليه أغاني فيروز فتناولته ووضعته داخل الجهاز وكان في داخله لحسن الحظ بطاريات ، وأدرت آله التسجيل ليستمع بنفسه ويرى ويحكم . لكنه أخذ ينصت بغباء ونظرات الشك لا تفارق وجهه . . ثم أخذ الجهاز واتجه إلى رئيسه الجالس في الخلفية يراقب الوضع . وأخذ الرجل بدوره يقلب الجهاز ويتفحصه بعين تشع بالغباء والشك ، ثم ناوله للضابط وهو يشير بيده إشارة تدل على اليأس أو بما معناه : دعه يمر . . بلا وجع دماغ!

حدث لي موقف مشابه بعد بضع سنوات ، عندما كنت عائدا من القاهرة إلى لندن على الخطوط الرومانية وكان يتعين علي الهبوط والانتظار في صالة الترانزيت لبعض الوقت في مطار بوخارست . كان هذا بعد أيام محدودة من كارثة انفجار مفاعل تشرنوبيل في أوكرانيا السوفيتية عام ١٩٨٦, وكنت أشعر بالقلق الشديد من احتمال أن يكون التلوث النووي قد وصل إلى بوخارست أو على الاقل أصاب الطائرات الرومانية . وكانت رومانيا لاتزال تخضع لحكم الديكتاتور تشاوشيسكو قبل أن يطاح به بشكل درامي عام ١٩٨٩ .

كنت أحمل في حقيبة يدي عددا كبيرا من صور الأفلام

الأجنبية والعربية لزوم الصنعة ، أي للنشر مع المقالات التي أكتبها . ولم نكن بالطبع قد اقتربنا بعد من عصر الصور الرقمية والتكنولوجيا الرقمية عموما . وعندما هبطت الطائرة في مطار بوخارست ، وخرجنا منها رأيت عددا من الجنود المدججين بالسلاح الذين يرتدون معاطف الجيش على غرار الجنود السوفيت الذين سبق أن شاهدتهم في الأفلام التسجيلية عن الحرب العالمية الثانية . أصابني بالطبع الفزع . . وتصورت أنهم سيلقون القبض علينا جميعا نحن القادمون من قلعة الرأسمالية العالمية أي من بريطانيا ، باعتبارنا «مشروع جواسيس محتملين» . لكنهم نقلونا بحافلة إلى صالة الترانزيت وأغلقوها تماما علينا . وجلس من حالفهم الحظ فوق المقاعد القليلة الموجودة ، أما من تبقى مثلي فقد افترشوا الأرض . كانت الكهرباء مقطوعة تماما عن هذه الصالة . وكانت الحرارة خانقة فقد كانت الصالة مغلقة ولم تكن هنا تهوية على الإطلاق . وكان البعض يشعل السجائر (لم يكن التدخين قد أصبح ممنوعا بعد) . وكانت دورة المياه الوحيدة المتوفرة الملحقة بالصالة غير صالحة للاستخدام الآدمي . وكلما توجه أحدنا إلى الضابط الوحيد الذي كان يحرس باب الصالة ليسأله متى ينتهي انتظارنا ونركب الطائرة التي ستنقلنا إلى لندن لم يكن يتلقى سوى تكشيرة غاضبة وأمرا بمجرد الإشارة- بالعودة إلى مكانه ، فلم يكن الضابط يفهم حرفا واحدا من الإنجليزية ، لغة الأعداءالأيديولوجيين طبعا!

عندما نادوا علينا بعد أكثر من ساعتين للخروج من هذا السجن البشع تعرضت حقائب اليد للتفتيش اليدوي الدقيق . وأخذ الضابط الذي كان يشع وجهه بكل علامات الشك ممتزجا بالغباء يستخرج

الملفات التي كنت قد وضعت بداخلها الصور ، ثم أخذ يخرج الصور واحدة بعد أخرى ويتفحصها جيدا بعيون ملؤها الشك كما لو كان يبحث في داخلها عن أسرار عسكرية مكتوبة لشفرة سرية أو صورا ربما قمت بتصويرها لحساب الإمبريالية العالمية ، ثم أخذ يتفحص الكاميرا الصغيرة التي كنت أحملها ويفتحها ويفتش عن أي شئ مخبأ بداخلها . وقد أخذت أشرح له وأكرر أن هذه الصور ما هي سوى صور من أفلام سينمائية ، وأنني أستخدمها في النشر الصحفي ، ولكنه لم يكن يفهم كلمة مما أقوله . وقد انتزع ملفات الصور وأراد أن يصادرها كلها مما دفعني إلى الصراخ فيه لكي يعيد إلي الصور . وقد بدا لي أنه اطمأن قليلا عندما عثر على بعض الصور التي تظهر فيها راقصات حسناوات مغريات من بعض الأفلام الأجنبية ، فباعد بين فكيه ليكشف عن اسنان تشي بالفظاظة والغباء ، وأعاد الصور إلي وهو يغمز بعينيه غمزة ذات مغزى قبيح!

كنت دائما أعتقد أن كل ضباط الجوازات والحدود في جميع الدول التي عبرت عليها أو زرتها يشبهون بعضهم البعض ، تماما مثلما أجد تشابها يصل إلى حد التطابق ، بين سائقي شاحنات النقل الثقيل في جميع أنحاء العالم ، فهم عادة يتصفون بالفظاظة والخشونة والعنف وقلة الذوق ، ويشعرون بتفوقهم بسبب ضخامة حجم شاحناتهم قياسا إلى حجم سيارتك الصغيرة عندما يمرقون بجوارها ، وغالبا ما يصدرون فجأة صوتا بشعا من بوق الشاحنة يسبب الفزع ثم يتطلعون إليك ويضحكون ضحكات شيطانية سادية . ولاشك أن الصورة الرهيبة التي جسدها المخرج الأمريكي سبيلبرج لفظاظة وعنف سائقي الشاحنات في فيلمه المبكر «المبارزة» (١٩٧١) The Duel ، ظلت دائما عالقة في ذاكرتي!

عودة إلى الحدود الجزائرية التونسية ، فبعد التفتيش والتنقيب والتدقيق والذي منه ، تمكنا من العبور الى تونس من الجنوب . وعندما اقتربنا من مدينة قفصة حاولت مجموعة مسلحة تتوسط الطريق أن توقف سيارتنا ، وكان الوقت الصباح الباكر ، أخذ السائق يهدئ من سرعة السيارة مع اقترابنا من الحاجز متصورا أنه حاجز للشرطة ، لكني لمحت أشخاصا يرتدون الملابس المدنية ويحملون الأسلحة ، وعلى الفور أشرت للسائق أن يمضي مسرعا دون أن يتوقف ، وهو ما فعله بعد أن أصبح واضحا أن هؤلاء ليسوا من رجال الشرطة التونسية . كنت أخشى أن يطلقوا النار علينا فخفضت رأسي إلى أسفل ، لكن الأمر مضى على خير ، وبعد نحو كيلومتر واحد شاهدنا مجموعة أخرى تقف على أحد جانبي الطريق ، ومرة أخرى يسرع السائق ليمر بمعجزة دون أن نتعرض للقتل أو لسرقة السيارة والدفع بنا في أفضل الأحوال ، داخل الغابات المنتشرة على جانبي الطريق لكي نواجه مصيرنا .

من هؤلاء؟ هل هم لصوص وقطاع طرق؟ أم متسللون ليبيون أو تونسيون منشقون على النظام؟ كانت المنطقة نفسها قد شهدت في أوائل عام ١٩٨٠ عملية مسلحة قام بها عدد من المنشقين التونسيين الذين أرسلهم نظام القذافي إلى مدينة قفصة ، وقتلوا بعض الجنود وسيطروا على المدينة لبعض الوقت قبل أن يتمكن الجيش التونسي من إحباط محاولتهم والقبض عليهم . وكان العقيد القذافي وقتها على خلاف مع الرئيس بورقيبة ، وكان يريد تحقيق وحدة مع تونس بعد أن فشل في تحقيقها بالقوة والابتزاز مع مصر . وقد تشدد معه الرئيس التونسي ، فأراد على ما يبدو أن يحدث نوعا من الفوضى في تونس أو

ربما أيضا ، أن يسقط النظام بالقوة . كانت الثمانينات فترة جنون كامل في المنطقة العربية . وكانت على الصعيد العالمي فترة انتقالية بين عالمين . كان الاتحاد السوفيتي وقتها يعاني من تضييق الأمريكيين عليه بعد مجئ الرئيس رونالد ريجان الى السلطة . وكانت الحرب في أفغانستان قد أصبحت تسبب الانهاك للسوفيت ، واتخذ الرئيس السادات في تلك الفترة أيضا قرارا بالانضمام للحلف الذي كان يقف وراء الجهود الأمريكية في أفغانستان ، ثم كان حصار بيروت في ١٩٨٢ ، وما أعقبه من خروج المقاومة الفلسطينية من لبنان الى تونس ، ثم اختطاف السفينة الايطالية أكيلي لاورو ، وأزمة الرئيس مبارك مع الولايات المتحدة بعد أن اختطفت الطائرات الحربية الأمريكية طائرة مصرية كانت تنقل أبو العباس- قائد عملية أكيلي لاورو- إلى إيطاليا . وكان صدام حسين في العراق مدعوما بقوى محلية ودولية ، يستعد للانقضاض على إيران بعد تصاعد خطابات تصدير الثورة الخومينية إلى المنطقة . وكانت علاقة أمريكا وإيران قد وصلت الى نقطة الصفر بعد احتجاز الرهائن في السفارة الأمريكية في طهران ، وغير ذلك من أحداث صبغت الثمانينيات بالكثير من نوبات الجنون التي مازلنا ندفع ثمنها حتى اليوم .

وصلنا الى تونس في المساء بعد قيادة صعبة بين الجبال والطرق المتشعبة والسريعة . . وأوصلني السائق إلى منزل صديقي عدنان الشعبوني وهو شخصية رائعة لمثقف تونسي منفتح على العالم ، يتمتع بالكياسة وسعة الأفق والثقافة العريضة . وكانت ابنته عزة وقتذاك لاتزال طفلة صغيرة ، وقد أصبحت الآن تعمل بالمونتاج السينمائي . وهي بالمناسبة التي قامت بعمل المونتاج لفيلم «نحبك هادي» الذي فاز

بجائزتين في مهرجان برلين السينمائي ٢٠١٦ .

كانت تونس في ذلك الوقت ، تتمتع بالحرية ، تسير في شوارعها النساء بزينتهن دون أن يعترضهن أحد المتشنجين أو المتعصبين ، وكانت مقاهيها ، خصوصا تلك التي تنتشر على جانبي شارعها الرئيسي الذي سمي على إسم مؤسس الجمهورية التونسية ، الحبيب بورقيبة ، وعلى غرار «الشانزليزيه» في باريس ، تعج بالمثقفين اليساريين والليبراليين قبل أن يصل نظام بورقيبة إلى الإفلاس بعد أن شاخ الرئيس وأصبحت زوجته هي التي تتحكم في الأمور . وسألحظ ما حدث من تغير كبير في خريف ١٩٨٦ وكنت وقتها أزور تونس لحضور مهرجان قرطاج السينمائي ، عندما فر رئيس الوزراء محمد مزالي إلى الجزائر ومنها إلى باريس بعد أن لاحقته اتهامات بالفساد وكاد أن يخضع للمحاكمة . كان المناخ العام قد أصبح خانقا ، وكانت قوى الإسلام السياسي قد بدأت في الظهور ، وعمت الاضرابات والاحتجاجات تونس ، وهو الوضع الذي سيحسمه زين العابدين بن علي عام ١٩٨٩ عندما يستولي على السلطة ويعزل بورقيبة الذي كان قد فقد السيطرة على زمام الأمور بالفعل .

العودة إلى تونس

عدت إلى تونس في العام التالي على هذه الرحلة الأولى ، أي في ١٩٨١ ، في عز حرارة الصيف ، وكان معي صديقي الدكتور مجدي صبره الذي كان يعمل في بسكرة . وقد أتينا من الجزائر بشكل مغامر تماما . وفي ذلك الصيف كانت الحدود بين الجزائر وتونس قد فتحت وسمح للجزائريين بالعبور بدون تأشيرة وبموجب بطاقة الهوية فقط ،

فتدفق على تونس ما يقرب من مليوني جزائري ، الأمر الذي تسبب في أزمة كبيرة في الفنادق والشقق بل وكل شئ . وصلنا بالحافلة عبر الطريق البري الذي يمر بمدينة عنابة ، الميناء الجزائري الشهير في أقصى الشرق على البحر المتوسط . وعنابة مدينة عريقة يعود تاريخها الى العصر الروماني ، وهي تزخر بالمناظر الطبيعية الجميلة وبالشوارع الضيقة التي تشبه حارات حي القصبة في العاصمة ، ويتجسد في تصميمات منازلها النموذج المعماري الأندلسي البديع .

ولكن عندما وصلنا أخيرا إلى تونس العاصمة بعد رحلة صعود هائلة إلى أعالي الجبال التونسية الخضراء ثم هبوط إلى الوادي والنفاذ عبر الطريق الرئيسي وصولا إلى مدينة تونس ، كانت في انتظارنا مفاجأة . كنا قد أردنا أساسا التوجه من العاصمة إلى مدينة قليبية التي تقع في شمال شرق تونس وتبعد عن العاصمة أكثر قليلا من مائة كيلومتر وبالقرب منها تقع مدينة الحمامات السياحية بشاطئها الشهير . وكنت أعتزم حضور مهرجان سينما الهواة الذي يقام في المدينة منذ عام ١٩٦٤ أي قبل مهرجان قرطاج السينمائي ، ويعد بالتالي المهرجان الأعرق ربما في القارة الافريقية كلها . لكنه لا يتمتع بشهرة مهرجان قرطاج وغيره ، بسبب اهتمامه الأساسي بأفلام السينمائيين الهواة .

كانت الحافلة الأخيرة التي تذهب من تونس إلى قليبية قد ذهبت بالفعل ولم يكن هناك قطار ينقلنا إلى مقصدنا . وكنت مدعوا من إدارة المهرجان للمشاركة في فعالياته . وكانت الجهة التي تنظم المهرجان هي جمعية السينمائيين التونسيين الهواة التي تخرج منها فيما بعد بعض ألمع السينمائيين التونسيين وغيرهم . المهم أننا أخذنا نبحث بحثا مكثفا

عن فندق نقضي فيه ليلتنا حتى ينبلج الصباح ، لكننا لم ننجح فقد كانت الفنادق كلها تزدحم بأصدقائنا القادمين من الجزائر ، وكان الوقت شهر يوليو وكان الجو حارا لدرجة لا تحتمل في ذلك الصيف . ومما زاده حرارة ذلك الزحام الرهيب في شوارع وسط المدينة . وبعد أن استنفذنا طاقتنا تماما في البحث عن غرفة في أي فندق بما في ذلك فنادق الدرجة العاشرة التي تستضيف النزلاء في عنابر جماعية أقرب إلى زنازين السجون ، ورأينا كيف أصبح الذين يديرون هذه الفنادق المتواضعة ، يستيعنون بالحاشيات بعد ان امتلأ ما لديهم من أسرة ، يؤجرونها للنزلاء بعد أن يفرشونها لهم في الطرقات والمناطق المهجورة في تلك الفنادق العجيبة . لم يعد في الإمكان أن نفعل شيئا . وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل . وكنا قد أودعنا معنا الحقيبتين اللتين معنا صناديق حفظ الحقائب في محطة القطارات القريبة . واستقر بنا الأمر بعد مسيرة مهلكة في عز الحر ، على مقعد خشبي مستطيل في الحديقة التي تتوسط شارع الحبيب بورقيبة حيث يمكن أن تتكفل عشرات الآلاف من العصافير التي تحلق فوق أشجاره ، بدفع المرء إلى الجنون . لكن ما هي سوى برهة إلا وقد بدأ غطيط صديقي الدكتور مجدي يرتفع عاليا بعد أن تمدد فوق المقعد الخشبي ولم يترك لي سوى بضعة سنتيمترات أجلس فوقها محدقا في الفراغ ، بينما استغرق هو في النوم . لم يكن بوسعي أصلا أن أستغرق مثله في النوم فأنا من النوع الذي يجب أن يشعر بالاسترخاء الشديد والألفة مع المكان قبل أن يأتيه النوم ، فكيف يمكنني أن أشعر بالاسترخاء بينما يمر من حولي في الاتجاهين في وسط تلك الحديقة ، عشرات البشر ، من كل الأنواع : أجانب وتوانسة ، شباب وصغار ، بل ونساء أيضا . ولكن

بعد أن تجاوزت الساعة الثانية صباحا بدأ مشهد غريب يتكون تدريجيا أمام عيني ، فقد أخذ أكثر من شاب من الأوروبيين ، يرتدون سراويل بيضاء ضيقة ، وقميصا أحمر يكشف عن أذرعهم ، يمرون في تخايل وخيلاء ، يتهادون مثل النساء في وسط الحديقة ، بينما يسير وراءهم عدد من الشباب التونسيين ، بعضهم يساومونهم كما يساومون أي عاهرة محترفة ، ولكن بعد أن انقلبت الآية ، هنا يتعين على الأوروبي الباحث عن المتعة الشاذة أن يدفع الثمن . كان مشهدا صادما بالطبع . وعندما بدأت أنبه صديقي مجدي لكي ينهض ويفسر لي ماذا يجري ، كان يلكزني بذراعه ويقول بضيق : دعني أنام يارجل . . لم لا تنام أنت الآخر وتريحني!

كانت تلك واحدة من أسوأ ما مر بي في حياتي ، ومازلت أتذكرها بكل تفاصيلها المرعبة ، فقد كنت متعبا بشدة ، سواء بسبب القيظ الشديد والرطوبة ، أو بفعل الرحلة الطويلة الشاقة بالحافلة التي كانت تهتز وهي تقطع الطرق الجبلية بمنحنياتها الكثيرة ، أو من اللهاث في شوارع تونس العاصمة بحثا عن فندق لأكثر من ثلاث ساعات . لكني تعلمت من هذه «المحنة» أن لكل شئ نهاية ، وأن كل إنسان يجب أن يتعذب قليلا حتى يمكنه أن يستمتع فيما بعد . وهي الحكمة التي ستتعمق بعد ذلك كما سيأتي عندما نقابل السيد فتحي أو «سي فتحي» كما يقول إخواننا في تونس .

مضى الوقت ثقيلا كئيبا . كنت أنتظر مرور الوقت وانبلاج الصباح وأنا أقاوم الترنح من شدة التعب ، وأخيرا طلع الصباح ، وأخذت أحاول إيقاظ صديقي بشتى الطرق ، ولم يكن المسكين قد شبع نوما . لكنه استيقظ أخيرا على أي حال ، وذهبنا معا لتناول طعام الافطار والأهم

بالطبع ، أقداح القهوة السوداء لكي تساعدنا على اليقظة . والقهوة التونسية التي تصنع على الطريقة الفرنسية غير القهوة «التركية» كما نطلق عليها . فبينما تتميز القهوة التركية بالقوة والقدرة على التنبيه بفعل ما تحتويه من مادة الكافيين ، بدت قهوة الفرنسيس التي يسمونها «إكسبريس» التي هي في الأصل اختراع إيطالي ، ضعيفة التأثير ، قليلة الكمية ، فمن الممكن أن تشربها على دفعة واحدة . وقد كنت ومازلت ، أتعجب كلما ذهبت إلى باريس ، كيف يمكن أن يجلس الرجل الفرنسي لساعات طويلة في أحد المقاهي ، يطالع صحف الصباح ويقلبها ظهرا عن وجه ، على ذلك القدح الصغير من هذه القهوة التي لم يكن ثمنها يتجاوز في تلك الفترة أكثر من فرنك فرنسي واحد!

على أي حال ، فقد شددنا الرحال أخيرا إلى قليبية بعد ان استرددنا الحقيبتين الصغيرتين . وقد وصلنا في وقت مبكر نسبيا إلى المدينة التي هي في الأصل بلدة صيادين ، ينتشر على شاطئها الكثير من صناع مراكب الصيد وشباكه أيضا ، تشم في هوائها رائحة الأسماك وملوحة البحر القوية . ولكن ما جعلني أشعر بالسعادة رغم ما كنت أعانيه من تعب شديد ، أن المناخ الساحلي هنا كان أكثر رحمة من مناخ العاصمة المحتقن .

لم يكن الفندق الذي سأقيم به يقع في قلب المدينة بل كان يبعد حوالي خمسة كيلومترات عن المدينة ، في مكان ساحر في قلب صخور البحر . كان الفندق قد شيد حديثا على شكل شاليهات متجاورة ، يتكون كل منها من عدد من الغرف . وكان هناك مطعم واحد مشترك يتناول فيه الضيوف الطعام . وأتذكر أنه كان أساسا ، طعام

الإفطار فقط . أما باقي الوجبات فكان علينا تدبر الأمر في المدينة التي كنا ننزل إليها بواسطة حافلة تابعة للمهرجان يوميا في الصباح ثم نعود بعد الظهر للراحة ، ثم ننزل مرة ثانية بعد العصر لمشاهدة أفلام المساء . كانت المدينة تحتوي على مسرح مكشوف رائع تعرض فيه الأفلام . وكان يمتلئ عن آخره بالشباب من هواة السينما ، العشاق الحقيقيون للأفلام ، لكي نشاهد الافلام على الشاشة الكبيرة مع الجمهور . وهذا هو «سحر السينما»!

كان يسكن معنا في نفس «الشاليه» الممثل الجزائري الذي كنت أعرفه من ظهوره في عدد كبير من الافلام الجزائرية في تلك الفترة . . «فوزي السايشي» . وكان وجهه مميزا وكذلك تكوينه الجسماني فهو أحدب بالولادة . وكان يظهر كثيرا في تلك الفترة في أفلام تليفزيونية وأفلام سينمائية قصيرة . ولكنه انتقل الى مجال الأفلام الروائية الطويلة منذ عام ١٩٨٦ وحتى اليوم . ومن أحدث أدواره المميزة في السينما دوره في فيلم «الطريق إلى اسطنبول» للمخرج الجزائري الأصل رشيد بوشارب . كانت فرصة جيدة للتعرف على فوزي كإنسان وليس كممثل ، وأن ألاحظ تمتعه بروح المرح والشقاوة والعبث رغم حزنه الخاص .

كان هناك أيضا مخرج أردني لا أتذكر إسمه أخذ يحدثني كثيرا عن أحداث أيلول (سبمتبر) الأسود في الأردن أكثر مما كان يحدثني عن السينما . ولم يكن الفلسطينيون قد خرجوا بعد من بيروت وانتقلوا للاقامة في تونس . لكن صاحبنا هذا لم يكن من فلسطينيي الأردن بل من الأردنيين الأقحاح الموالين كثيرا للملك حسين عليه رحمة الله ، وكان شديد الحنق والغضب على الفلسطينيين لا يتوقف عن

رواية ما زعم أنهم ارتكبوه في الأردن من تجاوزات .

مضت أيام قليبية مسرعة ، شاهدنا خلالها عشرات الأفلام الجميلة التي كانت تبشر بمولد مخرجين على مستوى جيد ، وترسخ أقدام آخرين في مجال سينما الهواة ، يرفضون أن يغادرونها باعتبار التخلي عنها نوعا من «الخيانة» ، فالهواية هدف في حد ذاته عندهم ، وهو شعور جميل بلاشك .

ملح الحياة

كنا قد التقينا خلال جلساتنا لتناول الشاي الأخضر في مقاهي البحر في قليبية برجل تونسي في منتصف العمر ، هو «سي فتحي» كان قد تقاعد حديثا كما أخبرنا ، وكان يقوم وحده بعيدا عن أبنائه وزوجته ، برحلة خاصة لقضاء عطلة الصيف في أكثر من مدينة . وكانت معه سيارة وكان يعتزم في اليوم التالي التوجه إلى الحمامات ، فعرض علينا أن نأتي معه إلى الحمامات ومن هناك يمكننا أن نركب الحافلة لنرجع الى تونس العاصمة .

كنا وقتها في شرخ الشباب كما يقولون ، يملؤنا الفخر والشعور بالقوة وبالرغبة في معانقة العالم ، وكنا أبعد ما نكون عن التطرف أو الانغلاق الفكري أو الشعور بأي نوع من الكراهية أو النفور من أي إنسان مهما كان . كانت فترة انفتاح هائل على العالم ورغبة في المعرفة والتعلم ، وهي الرغبة التي ستدفعني بعد أقل من ثلاث سنوات لشق طريق جديد في الشمال ، أي شمال المتوسط ، وللذهاب إلى ما يسمونه «عاصمة الضباب» ، لندن المدينة اللغز التي لاتزال كذلك بعد مضي عشرات السنين!

لم نكذب خبرا . استيقظنا مبكرا وذهبنا للقاء «سي فتحي» في المكان المحدد وركبنا معه سيارته القديمة التي كان قد حولها إلى شبه سفينة ، فد نثر بداخلها الكثير من أشيائه ومتعلقاه التي أخذ يحاول جمعها وترتيبها ووضعها في حقيبة السيارة الخلفية لكي يفسح لنا مكانا لنجلس ، كما وجدنا أنه غسل بعض قمصانه وقام بتعليقها على المقابض العلوية فوق ابواب السيارة . لكن لم تكن هذه الأشياء تسبب لنا أي ازعاج بل كنا سعداء بالصحبة خاصة وأن السيد فتحي كان رجلا يتمتع بالكثير من روح المرح والقدرة على السخرية والدعابة ورواية الحكايات الطريفة المسلية ذات المغزى الفلسفي ، وكان في الأصل يعمل معلما في المدارس الثانوية ، كما كان يتمتع بثقافة رفيعة ، وبمسحة أرستقراطية موروثة . لكنه كان في الوقت نفسه شديد التواضع يحمل الكثير من الحب للناس وقد رحب هو كثيرا بالصحبة ، وأخذ بعد أن بدأ يقطع الطريق ، يروي لنا الكثير من القصص الطريفة والحكايات ، بالأخص عن مغامراته الشخصية بعيدا عن «الأسرة» ، وكيف أنه أصبح بعد تقاعده يشعر للمرة الأولى في حياته بالحرية بعد أن تحرر من قيود الوظيفة ، على العكس من كثيرين ممن عرفتهم الذين يعتبرون ترك الوظيفة نوعا من الموت!

لم يكن الطريق من قلبية إلى الحمامات ممهدا بشكل جيد في تلك الفترة ، لكن من المؤكد أنه اصبح كذلك الآن بفضل التقدم الكبير الذي قطعته تونس في مجال الانشاءات السياحية . ولكن بعد أن قطعنا نحو خمسين كيلومتر وشربنا الكثير من المياه المثلجة التي كان يحتفظ بها الرجل في زجاجات يحفظها في ثلاجة صغيرة على ظهر تلك «السفينة» العجيبة ، تعطلت السيارة فجأة ولم تفلح كل محاولات

صاحبنا في دفعها لاستئناف السير .

كانت الحرارة قد ارتفعت ، وأخذ صاحبنا يفحص السيارة ويسقيها الماء ، لكنها ظلت ترفض بعناد أن تستأنف السير . كان لابد من دفعها بأيدينا لأن بطاريتها كانت لسبب ما قد ضعفت . واضطررنا للنزول من السيارة وأخذنا نبذل أنا وصديقي جهدا جبارا لدفعها ، وبدأت أتصبب عرقا ، لكن السيارة كانت تدور لبرهة وتسير لبضعة أمتار ثم تتوقف مرة أخرى في عناد غريب . وأخذنا ندفعها مرة ومرات ، إلى أن دارت وظلت تواصل السير بنا ، ولم أكن أشعر بالطبع بالسعادة بل كنت أتساءل عما دفعنا إلى هذا المصير وقد كنا في أمس الحاجة إلى الإحساس بجمال الأماكن التي نمر بها وأن نصل إلى شاطئ الحمامات ونحن نحتفظ بثيابنا نظيفة . . لكن السيد فتحي الذي كان يقود السيارة ببطء شديد ، أخذ يشرح لنا إن هذا ما هو سوى «ملح الحياة» . وكنت أضحك واقول له : كفانا ملحا والله ياسيدنا . . أليس لديك بعض السكر؟

أخذ الرجل يشرح كيف أن «ملح الحياة» فلسفة وفعل : فلسفة تتلخص في ضرورة قبول ما تأتينا به الحياة من مواقف صعبة أو مرة ، لكي يمكننا أن نشعر بحلاوة ما تأتينا به من مواقف حلوة فيما بعد ، أي الاقرار بما في الحياة من ملوحة ، والتأمل في مغزاها ومعناها ، والرغبة الدائمة في تغيير الملح الى السكر . وربما يكون ملح الحياة أيضا هو «مر الكلام» على حد تعبير شاعر العامية المصرية أحمد فؤاد نجم ، الذي وصفه في احدى قصائده الشهيرة التي غناها الشيخ امام ، بأنه «زي الحسام يقطع مكان ما يمر» ، ثم أكمل لتبيان الفرق بينه وبين حلو الكلام الذي يقال في الظواهر السلبية في حياتنا : «أما المديح سهل

ومريح ، يخدع لكن بيضر»!

عندما وصلنا إلى «الحمامات» وهبطنا من السيارة لنتفقد شاطئها الذي كان يعج بالمصطافين من الأوربيين وطبعا ، الأوروبيات بوجه خاص اللاتي استلقين على ظهورهن على الرمل تحت أشعة الشمس ، أنبهرنا بهذه الحرية وهذا القدرة على الاسترخاء ، كما بهرنا بتصميمات الفنادق الرائعة الممتدة على الشاطئ . لقد بدت الحمامات مدينة خارج إطار الحلم . وتمنيت أن أعود إليها مستقبلا لكني لسبب أو لآخر لم أفعل . ولكن ظل طعم ملح الحياة يذكرني بها دائما ويذكرني بحكمة ذلك التونسي الفيلسوف المحب للحياة .

٣
عبور الماء إلى هولندا

في أغسطس ١٩٨٤ كان يتعين علي أن أسافر من لندن إلى أمستردام . لم اكن وقتها قد حصلت على إقامة دائمة في بريطانيا . وكانت تأشيرة البقاء السياحية المؤقتة التي حصلت عليها لمدة ستة أشهر قد أوشكت على نهايتها ، ولذلك كانت الحيلة البسيطة التي عرفتها من الأصدقاء المجربين ، تتلخص في أن أغادر بريطانيا ثم أعود مجددا بعد بضعة أيام فقط . كانت الأمور وقتها سهلة كثيرا ، لم يكن قد اطل علينا بعد «عصر الإرهاب» . كان الأجانب الزوار الذين مازال لديهم أكثر من ثلاثين يوما من الإقامة في جوازات سفرهم يمكنهم الحصول على تأشيرة تسمح لهم بالعودة للدخول مجددا طالما أن لديهم من المال ما يكفل لهم الانفاق على أنفسهم وأنهم يستطيعون إثبات ذلك عمليا ، أي أن يكون لديهم بيانات حديثة بحساباتهم في البنوك البريطانية مثلا . تقدمت لمكتب الجوازات البريطاني وحصلت بالفعل على التأشيرة التي تسمح لي بالعودة شريطة أن يقتنع ضابط الجوازات بأنني زائر حقيقي لا أبحث عن البقاء بغرض العمل وما إلى ذلك .

أقرب البلاد إلى بريطانيا هولندا ، وفرنسا ، لكني اخترت هولندا ، وتمكنت من الحصول على تأشيرة لدخولها بسهولة كبيرة بموجب اقامتي السياحية المؤقتة في بريطانيا ، على أساس أنني سأقضي بضعة أيام

هناك . ألم أقل لكم أن الأمور كانت سهلة ميسرة في ذلك الوقت قبل ظهور من اختطفوا الإسلام وأصبحوا يمارسون القتل والتفجيرات والإرهاب الدولي باسمه وباسمنا جميعا فأصبح جميع المسلمين والعرب تحديدا ، من المشتبه فيهم ، وأصبح يتعين عليهم أن «يمشوا بجوار الحائط» ويخفضون رؤوسهم في المطارات الأوروبية وإلا لحدث لهم ما لا يحمد عقباه . وكلما تذكرت تلك الفترة وأنا أعبر الحوائط الأمنية المقامة في المطارات الأوروبية حاليا ، أتحسر على ذلك العصر الذهبي للسفر والانتقال حتى لمن كانوا من أمثالنا من حملة جوازات السفر الصادرة من بلدان «العالم السادس» بعد أن ارتفع الطابق ، وتراجع الترتيب بحكم ما تحقق من «إنجازات» كبيرة خلال الثلاثين سنة الأخيرة!

لم يكن ما لدي مبلغ كبير من المال في حسابي بالبنك البريطاني ، وكنت حريصا على أن أوفر منه لكي اتمكن من البقاء لأطول مدة ممكنة دون حاجة إلى أن استجدي أحدا أو أطلب مساعدة من العائلة ، فقد كنت قد قررت أن أعتمد تماما على نفسي وعلى قدراتي الذاتية في مغامرتي الأوروبية ، وكان يتعين علي أن أتحمل وحدي نتائج قراري الشخصي بالقطيعة مع الماضي ، أي مع مهنتي الاصلية ودراستي الأولى ، ومع والوطن والوظيفة والأسرة ، وأن أّهب للتعلم والدرس والمرور بتجربة العيش في «العالم الأول»- كما كنت أتخيله- لكي أحصل من الخبرة والمعرفة بما يجعلني أكثر قوة وقدرة على أن أعطي في بلدي بعد عودتي التي كنت أتصور أنها قريبة ، وأن «الاغتراب» لن يزيد عن سنتين أو ثلاث سنوات ، وهو ما لم يحدث أبدا لاسباب كثيرة .

وجدت وقتها أن أرخص وسيلة للسفر إلى هولندا ، كانت عن طريق البحر . كانت العبارات أو البواخر الضخمة تعبر بحر الشمال مرات عدة يوميا من ميناء هاروتش في جنوب شرق انجلترا إلى ميناء في هولندا يسمى هوك أوف هولاند (أي خطاف هولندا) . كان يجب أن أستقل أولا القطار من محطة فيكتوريا الشهيرة في وسط لندن إلى هاروتش ، ثم بالباخرة من هاروتش إلى هوك أوف هولاند ، ثم القطار الهولندي من هذا الميناء إلى العاصمة أمستردام . وقد استغرقت هذه الرحلة العجيبة أكثر من عشر ساعات مضافا إليها أوقات الانتظار بين الوسائل المختلفة . واستغرق عبور بحر الشمال بالباخرة أكثر من سبع ساعات . كانت الباخرة كبيرة وكان على متنها ما لا يقل عن خمسة آلاف مسافر ، كانوا ينشدون الاستمتاع بالبحر ، وليسوا مثلي ممن يستعجلون عادة الوصول إلى المقصد . وكنت أسافر بالطبع بمفردي ، لم تكن معي صحبة من الأصدقاء ، ولذلك كان الشعور بـ «الغربة» قاسيا وسط هذه الجموع الكبيرة من الشباب الأوروبيين الذين أقبلوا على قاعة المقصف في أسفل الباخرة ، وكانت قاعة هائلة المساحة متعددة المستويات ، تنتشر فيها المناضد والمقاعد ، وكانوا يتراصون صفوفا لشراء البيرة في تلك الأكواب الكبيرة التي تميز البارات الانجليزية والبريطانية عموما ، وتصل سعة الكأس الواحد منها إلى لتر كامل من ذلك المشروب المدر للبول بطريقة مزعجة أحيانا . ومن المعروف أن الانجليز والبريطانيين عموما من أكثر شعوب الكرة الأرضية إقبالا على تناول البيرة ، مع والألمان والهولنديين بالطبع ، ولكل من هؤلاء أصنافهم المميزة الشهيرة من البيرة التي يسميها العرب القدماء الجعة وهي كلمة لا أستسيغها بل واجدها مضحكة أيضا ، فالبيرة هي البيرة ، كما أن

الساندويتش هو الساندويتش وليس «شاطر ومشطور وبينهما طازج» كما تقول اللغة العربية الكلاسيكية ، فمن الضروري أن نعترف بدخول بعض الكلمات الأجنبية التي أصبحت محفورة في ضمائر الملايين من الناس في بلادنا ، بدلا من الإصرار على تعريبها . فقد أصبح من المقبول على نطاق واسع اليوم مثلا أن نقول «التليفزيون» وليس التلفاز ، و«السينما» وليس «الخيالة» والفيلم وليس «الشريط» ، والكومبيوتر وليس «الحاسوب» ، وكلها كلمات تبدو أكثر أعجمية من الكلمات الغربية في رأيي!

المهم . . كان يتوسط تلك القاعة المهولة مرقص كبير ، وكانت الموسيقى الصاخبة تنطلق لتضرب أذني من جميع الاتجاهات . وقد قضيت بعض الوقت في مشاهدة كيف يتناوب الشباب الرقص مع الفتيات ، ويعودون لاحتساء جرعات مكثفة من البيرة ثم يعودون . تركت المقصف وذهبت لتناول طعام الغذاء في مطعم الباخرة ، وكان مطعما أنيقا فاخرا جدا وسعدت بتناول وجبة من السمك كانت رائعة بالفعل . ولكني كنت أفكر طوال الوقت في أمر واحد فقط كان يشغلني هو أين سأقضي ليلتي في أمستردام . لم نكن بالطبع قد اقتربنا بأي مستوى ، من عصر الانترنت . ولم أكلف نفسي أصلا شراء كتيب صغير عن هولندا وأمستردام التي كنت أتأهب لزيارتها ، ولم أتصل تليفونيا لحجز غرفة في فندق من الفنادق بل ارتكنت فقط على الفكرة البدائية وهي أن كل شئ سيمكن تدبيره من دون جهد . . ولا داعي للقلق . . وهي فكرة من أسخف ما يكون بالطبع كما ثبت بالتجربة العملية . فبعد أن اجتزت المشوار الطويل الممل المرهق ، وعانيت كثيرا من دوار البحر ، وصل القطار في المساء ، إلى أمستردام . وبدأت رحلة

البحث عن غرفة في أحد فنادق المدينة بالقرب من محطة القطارات التي انتهت رحلتي إليها .

الدخول في المحظور

ذرعت كل شوارع المنطقة ، وسألت في كل الفنادق لكني لم أعثر على غرفة واحدة . . وجدت نفسي فجأة داخل ما يعرف بـ «الحي الأحمر» الذي كنت قد سمعت عنه ولم أتخيله أصلا ، أقصد حي الدعارة الشهير في أمستردام وهو يقع على الجانب الأيسر من الشارع الرئيسي المقابل لمحطة القطارات . شاهدت النساء في الواجهات الزجاجية في الطوابق السفلى من تلك البيوت القديمة . أفزعني المنظر وخصوصا تجمع الكثير من السياح امام تلك الواجهات يتطلعن الى النساء شبه العاريات اللاتي يقفن في أوضاع مغرية . . شعرت بنوع من التقزز بل والخوف خاصة بعد أن امتلأ الجو برائحة دخان الحشيش . كانت أمستردام ومازالت ، عاصمة المخدرات في العالم . وكان مسموحا منذ زمن مبكر للغاية ، ببيع الكثير من الأنواع منها ، وهناك مقاهي خاصة شاهدتها من الخارج دون أن أجرو على دخولها ، يتم فيها تقديم أنواع المخدرات على صحون للزبائن لكي يختاروا من بينها ما يروق لهم ، سواء بواسطة الأنبوب المفرغ على طريقة «الجوزة» المعروفة في مصر بالذات أو النارجيلة أو بواسطة السجائر أو الغليون . كان هناك الكثير من الصعاليك يقفون على النواصي ، قلت لنفسي أنهم لابد أن يكونوا من القوادين المشرفين على هذا الكم الكبير من لحم بائعات الهوى ، ولابد أن بينهم أيضا بائعي المخدرات ، وبالفعل لاحظت بعض المساومات التي كانت تجري في بعض الأركان المظلمة عند تقاطع

شوارع الحي الذي يتميز بمنازله البديعة التصميم التي تنتمي إلى القرن السابع عشر والثامن عشر وهي تحف معمارية بكل معنى الكلمة . ولكن الغريب أنني وأنا أحمل حقيبتي كنت قد شعرت بالتعب فقصدت فندقا صغيرا في ذلك الحي علي أعثر فيه على غرفة فارغة أقضي فيها الليلة و«الصباح رباح» ، أي يمكنني في الصباح أن أتجه للبحث عن فندق آخر .

توجهت إلى مدخل الفندق واستفسرت من رجل ضخم الجثة ، كث الشارب كان يقف أمام المدخل يدخن بشراهة ، ويتطلع في شراسة إلى العابرين ، فأشار إلي بيده إشارة تعني أنني يجب أن أسأل الساقي داخل الحانة التي تقع اسفل المبنى على اليمين من المدخل ، وكانت مزدحمة عن آخرها بالسكارى غريبي المنظر ، وربما يكونون جميعهم من الشواذ المثليين ، وهناك حانات كثيرة مخصصة لهؤلاء منتشرة في العواصم الأوروبية . وعندما دلفت من الباب اتجهت كل الأنظار إلي كما لو كنت قادما من كوكب آخر مما زاد يقيني انهم من المثليين الذين أثار فضولهم دخول شاب جديد لا يعرفونه ، وقد كنت أبدو غريبا تماما عليهم بالفعل ، فقد كنت أحمل في يدي حقيبة منتفخة ، أثارت على ما يبدو ريبتهم ، وكان منظري المتجهم بسبب شعوري بالإرهاق ، ومزاجي الذي يبدو بعيدا كل البعد عن أجواء المتعة والمرح التي كانوا يعيشونها في تلك اللحظة ، ينذر على ما يبدو ، بشر مستطير . لكنهم اطمأنوا بعد ما سمعوني أسأل كأي قروي ساذج ينزل المدينة للمرة الأولى ، عن غرفة للمبيت . اعتذر لي الساقي المشرف على البار في أدب . وكان علي أن أواصل البحث من جديد فحاولت أن أخرج بسرعة من «الحي الأحمر» كما يطلق عليه وعلى الأحياء المشابهة

الموجودة في بعض العواصم الأوروبية التي تسمح بممارسة الدعارة بموجب تراخيص رسمية .

بالعودة إلى الشارع الرئيسي المواجه للمحطة ، بدأت أتوقف وأسأل في كل الفنادق التي تقابلني ، واحدا بعد الآخر . لم يكن يهمني مستواها ولا درجتها ، بل فقط العثور على غرفة . ولكني فشلت تماما . وأخيرا قادتني الصدفة للمرور أمام شاب بدت لي ملامحه مألوفة ، كان يقف يدخن سيجارة أمام باب فندق صغير . أخذ الشاب يحدق في بطريقة ملفتة . توقفت وسألته عما إذا كان لديهم غرفة خالية . . سألني من اين أنت؟ فلما قلت له إنني من مصر ، انتقل على الفور للحديث بالعربية وقال إنه أيضا مصري ويعمل في هذا الفندق في نوبة الليل التي تبدأ من الثامنة مساء حتى الثامنة صباحا ، لكنه اعتذر بالقول إن كل الغرف لديهم مشغولة حاليا ، غير أنه استدرك بعد أن وجد أنني في وضع «اليائس» فقال إن لديهم غرفة واحدة في الخلفية لن تعجبني ، هي أصلا مخصصة لخدم الفندق . تشبثت بالفكرة على الفور وقلت أن هذا لا يهم ، وطلبت أن أراها على الفور فقد كنت على وشك السقوط من شدة التعب .

كانت الغرفة صغيرة بحيث لا تتسع سوى لسرير صغير لشخص واحد ، ودولاب لا يزيد عرضه عن ٤٠ سنتم ، وبدلا من النافذة كانت هناك من خلف الفراش إلى أعلى ، كوة صغيرة لا تطل على شئ أو لعلني من شدة التعب ، لم أر شيئا أو لم أهتم أصلا . وقد قضيت الليلة في هذه الغرفة . واعتزمت السفر في اليوم التالي عائدا إلى لندن عبر الطريق الذي أتيت منه بالطبع أي بالقطار ثم بالباخرة ثم بالقطار مرة أخرى إلى محطة فيكتوريا . وقد سارت خطتي كما قدرت تماما ،

فعند بوابات الوصول في الميناء البريطاني ، سألتني المسؤولة الانجليزية الحسناء عن غرضي من القدوم ، وعما إذا كان لدي مال يكفيني ، فأطلعتها على آخر كشف حساب لي في البنك البريطاني الذي كنت قد فتحته من الخارج قبل ثلاث سنوات . فمنحتني تأشيرة للدخول والإقامة لمدة ستة أشهر أخرى . إذن لقد نجحت الخطة .

وعندما وصلت إلى الشقة التي كنت أستأجرها في ذلك الوقت ، في شمال غرب لندن ، تنفست الصعداء . كان الدرس قاسيا . وكانت الرحلة مرهقة ، ونمت كما لم أنم من قبل ، وحلمت بأنني أغرق في بحر الشمال لأصحو على فكرة جيدة طرأت على بالي وقتها ، هي كيف أبدأ الدراسة الجادة في المجال الذي اخترته لنفسي .

٤
باريس هبة المترو

كانت لي تجربة سابقة فيما يمكن أن اطلق عليه «السفر العشوائي» أي دون ترتيب مسبق ، عندما سافرت للمرة الأولى من الجزائر إلى باريس في صيف ١٩٨١ ، فعندما وصلت إلى مطار أورلي توجهت إلى مكتب مساعدة المسافرين على تأجير غرف في الفنادق ، وهي بالمناسبة خدمة مجانية يقدمها مكتب التسهيلات السياحية التابع للمطار ، ولم أجد مثيلا له في أي مطار عربي . هناك بالطبع وكالات متخصصة في تأجير الغرف الفندقية والسيارات ولكن مقابل عمولة معلومة يدفعها الزبون مباشرة ، لكن هذا المكتب يعمل بالمجان ، يتصل بالفنادق تليفونيا ليحجز لك غرفة ثم يعطيك عنوان الفندق ويتركك لكي تذهب بنفسك إليه . ربما كانوا يحصلون من الفنادق على عمولات مقابل جلب الزبائن لهم لكن على أي حال هم لا يطالبونك بأن تدفع شيئا . وقد اتصلت الموظفة الفرنسية ببعض الفنادق ، ثم عرضت علي غرفة شاغرة في أحد الفنادق بحي الباستيل فوافقت ، وكان للباستيل إسم يثير الاهتمام فهو أحد الأحياء التاريخية القديمة في باريس . أعطتني الموظفة بعض المطبوعات الدعائية وخريطة لباريس ولمترو الأنفاق . أوقفت سيارة تاكسي وأعطيت السائق عنوان الفندق فعرف على الفور أنني غريب عن باريس . وقد أوصلني بعد أن تبادل معي

بضع عبارات مقتضبة ، وكانت الساعة العاشرة مساء عندما دخلت إلى حجرتي في الطابق الثالث وكانت تقع بجوار المصعد . وعندما بدأت السير في الغرفة شعرت ببعض الدوار ، فقد كان إحساسي أن أرضية الغرفة غير مستوية . غالبا كان مترو الأنفاق يمر من تحت الفندق مباشرة ، وقد يكون هذا هو سبب شعوري بالدوار من وقت إلى آخر بسبب مرور القطارات تحت الأرض مما يحدث هزة ما يمكن الشعور بها .

قضيت الليلة بأكملها تقريبا أعكف على دراسة الخريطة السياحية للمدينة وخريطة المترو لكي أفهم المنطق الذي يعمل طبقا له ، ففي كل عاصمة أو مدينة يكون بها شبكة من شبكات قطارات الأنفاق ، هناك منطق ما أو منهج معين تسير طبقا له القطارات وتعمل الخطوط . فمترو باريس مثلا لا تحمل خطوطه أسماء معينة كما هو الحال في مترو لندن لكنه يحمل أرقاما . وعليك أن تحدد اتجاه مساره حسب المحطة الأخيرة التي يتجه إليها . فالخط رقم ١ مثلا يبدأ من بون دي نولي (أي جسر نولي) في الغرب ويتجه شرقا إلى أن يصل الى محطته الأخيرة في شاتو فانسان (أي قصر فانسان) أو بالعكس فكل من المحطة الأولى والأخيرة تحمل رقم ١ ، وعليك أن ترى في أي اتجاه يجب أن تذهب حتى تصل إلى مقصدك .

في الصباح الباكر استيقظت بعد نوم لا يزيد عن ثلاث ساعات وأنا أشعر بالإرهاق الشديد ، وتناولت طعام الإفطار الفرنسي الهزيل الذي يطلقون عليه كلمة مضحكة «كونتنتال» ومعناها الذي أفهمه «قاري» ، أي نسبة للقارة الأوروبية تحديدا أو بمعنى أكثر بساطة ، إفطار «أوروبي» ربما في مقابل الفطور الإنجليزي وهو أكثر دسامة ، أو الأمريكي وهو يتميز بكميته الكبيرة واحتوائه على اللحم والسلاطة وخلافه ،

بينما الكونتنتال هذا عبارة عن قطعة من الكرواسو وهو اختراع فرنسي عجيب جيد الطعم لكن شديد الدسامة ، وبعض شرائح الخبز والمربى والزبد مع عصير البرتقال أو شئ يشبه العصير ، وربما لو أسعدك الحظ ، تحصل أيضا على قطعة من الجبن ، مع قدح من القهوة أو الشاي .

كنت أود أن انتهي من الإفطار بسرعة على أي حال ، فقد كنت قد حسمت أمري بعد ان ظللت لفترة طويلة أتقلب في فراشي عاجزا عن الاستغراق في النوم بسبب ضجة المصعد وذلك الأزيز المزعج الذي يأتي من تحت الأرض . قررت أن أغادر هذا الفندق اللعين وأن أتوجه بنفسي إلى الحي الذي كنت قد قرأت عنه الكثير ، أقصد حي مونبارناس الذي يقع على الضفة اليسرى من نهر السين . وكنت قد ذاكرت الخريطة وعرفت أي خط للمترو سأركب ثم أين سأغير الخط وهكذا . كان حي مونبارناس ، حسب توفيق الحكيم طبعا ، هو حي الليل والسهر في باريس ، وكان يغشاه الشعراء والفنانين والمثقفون عموما منذ القرن التاسع عشر حتى ثلاثينيات القرن العشرين ، ليس بالطبع على غرار حي مونمارتر الشهير بل على نطاق مختلف ، ربما انتقل اهتمام الشعراء والرسامين والبوهيميين عموما من مونبارناس إلى مونمارتر . ومونبارناس كلمة فرنسية مركبة من «مونت» و«بارناس» أي «جبل بارناس» .

عندما خرجت من محطة المترو وهي من أكبر المحطات الباريسية ، وجدت أول معلم كبير أمامي عيني ، ناطحة سحاب عالية كئيبة المنظر يسمونها برج مونبارناس ويفخر بها الفرنسيون كثيرا في حين رأيت أنها مزعجة وتتناقض مع الطابع المعماري الخاص المميز للعاصمة الفرنسية ، فهي مصممة على غرار المباني الأمريكية النيويوركية . وكان البرج أيضا

يضم في أسفله محطة قطارات مونبانارس ، وفي الطوابق العليا شركات مالية وتجارية . وكانت دور السينما المنتشرة قرب الساحة من النوع الحديث ، أي عبارة عن مجمعات حديثة مشيدة على الطراز الأمريكي ، يضم كل منها عددا من القاعات الصغيرة نسبيا . ولم تكن هناك سوى دار واحدة للعرض من الدور القديمة الكلاسيكية التي أحبها فهي كالمسارح ، فيها رونق وبهجة ، ولاشك أن مشاهدة الأفلام في مثل هذه الدور تختلف في تقاليدها عن المشاهدة في القاعات المتشابهة التي انتشرت كالوباء في أرجاء العالم بما في ذلك مصر ، حسب النمط الأمريكي .

هذه القاعات توجد عادة ، ضمن «مجمع تجاري» أو ما يسمى بـ«المول» بجوار محلات الوجبات السريعة وأشهرها «بيتزا هت» «ماكدونالدز» . ومن المستحيل أن تجد داخل أي «مول تجاري» من هذه «المولات» قاعات لعرض أعمال الفن التشكيلي أو مسارح ، فالمسرح والرسم ينتميان إلى الثقافة الرفيعة ، أما السينما فتغلب عليها الأفلام الاستهلاكية . ولذلك تتخصص قاعات السينما الموجودة داخل هذه المجمعات التجارية عادة في عرض الأفلام الأمريكية الشعبية الاستهلاكية التي تدور عن العفاريت والشياطين والأشباح وكائنات الفضاء ومغامرات الإنسان الآلي القبيح ، لكنها لا تعرض أبدا الأفلام الفنية الرفيعة ، من السينما الأوروبية مثلا أو من السينما الأخرى عموما ، حتى من أمريكا نفسها . وفي ردهات مجمعات السينما التي يضم كل منها عددا من القاعات (يسمونها شاشات) وهي عبارة عن «عُلب» صغيرة تعرض أفلاما متعددة مختلفة ، تجد عادة مكانا مخصصا لبيع «الفشار» و«البيبسي كولا» والحلوى وغير ذلك من

المشروبات . ويكون من المألوف أن ترى صفوفا من الشباب الذين يحملون أكياسا ضخمة منتفخة بالفشار ، يمكن أن يصطفوا في الصف الذي يقع وراءك مباشرة داخل هذه «العلبة» من علب العرض السينمائي ، فيقضون تماما على تركيزك ، ويدمرون رغبتك في الاستمتاع بالفيلم . وبمناسبة «ماكدونالدز» كان لي تعبير أطلقته في معرض السخرية من أشكال الثقافة التجارية السائدة هو «ماكدلة الثقافة» . . أي تحويلها إلى سلعة سريعة التعاطي ، بطيئة الهضم بالطبع . ذكرت هذا التعبير لمخرج سينمائي أمريكي ذات مرة فأعجبه كثيرا وقال بعد ان تأمل في مغزاه قليلا : حقا إنها ماكدلة!

لم يستغرق الوقت طويلا إلى أن عثرت على غرفة في فندق متواضع في هذا الحي الشهير ، وأتيحت لي الفرصة فيما بعد لأن أتجول وألتقي ببعض الأصدقاء عند مدخل المجمع السينمائي الرئيسي المقابل لمحطة مترو الأنفاق . جاء الصديق المهندس همام المستكاوي (رحمه الله) وكان متزوجا من فرنسية ومقيما في باريس في تلك الفترة من نهاية الثمانينيات ، لكي يصحبني إلى مسرح «مونبارناس» الذي كان يعرض مسرحية «كامي كلوديل» وهي التي كانت تعرض في نفس الوقت مع عرض الفيلم الذي قامت ببطولته الممثلة نصف الجزائرية نصف الألمانية ، فرنسية الجنسية ، إيزابيل أدجاني ، قطة الشاشة الفرنسية (وهي في الحقيقة إبنة محمد عجاني وهو جزائري من سكان القبائل ومهاجر قديم إلى فرنسا ، ووالدتها هي إيما أوجوستا الألمانية من إقليم بافاريا) . كانت المسرحية والفيلم يصوران جانبا من حياة المثالة الفرنسية التي عملت مساعدة وعشيقة للمثال الفرنسي الشهير رودان في أوائل القرن العشرين ، وكانت موهبتها متفجرة ضارعت موهبة

أستاذها وأرادت الاستقلال عنه ، ولكنها اضطربت عقليا وشخصت حالتها على أنها مصابة بأعراض البارانويا (جنون الاضطهاد) والشيزوفرينيا (الفصام) وقد اتهمت هي رودان بسرقة أفكارها ، والتآمر لقتلها ، ثم أودعها شقيقها مصحة عقلية عام ١٩١٣ لكنها واصلت العمل في نحت التماثيل وكانت واعية تماما بكينونتها وموهبتها ، ورغم نصح الأطباء لأهلها بضرورة اخراجها من المصحة ، ورغم الحملة الصحفية التي اتهمت عائلتها باغتيال موهبتها عمدا ، إلا أن الأسرة ، خاصة أمها ، ظلت ترفض باستمرار إخراجها من المصحة ، فظلت بها لمدة ثلاثين عاما إلى أن توفيت عام ١٩٤٣ .

كانت مشاهدة العرض المسرحي الدرامي المثير متعة لا تعادلها متعة . وكان من المثير ذهنيا أن أشاهد الفيلم وأرى معالجة أخرى للقصة نفسها التي عادت في ٢٠١٣ إلى السينما في فيلم ، قامت ببطولته هذه المرة النجمة الفرنسية جوليت بينوش .

أعود إلى حي مونبارناس الذي مازال يوجد فيه بعض الملاهي الليلية ومحلات المعروضات والألعاب الجنسية ، وعدد كبير من المطاعم التي تعرض المأكولات البحرية الطازجة بصورة مغرية . ومن أشهر المطاعم الموجودة في هذا الحي تحديدا هو مطعم «لاكوبول» أو «القبة» الذي اصطحبني إليه صديقي همام المستكاوي ودعا على شرفي أيضا مجموعة من المثقفين العرب المقيمين في باريس حيث تناولنا طعام العشاء .

هذا المطعم الشهير يعود تاريخ إنشاؤه إلى عام ١٩٢٧ عندما افتتح في حفل بهيج حضرته نخبة من المثقفين والفنانين والشعراء الفرنسيين في صحبة أجمل نساء باريس بالطبع . وسرعان ما اكتسب شهرة

كاسحة جعلته من أهم مطاعم باريس بل ومزارا سياحيا بسبب تصميمه المعماري المميز الذي ينتمي إلى الفن الذي يعرف بـ «أرت ديكو» ، وهو فن الديكور والعمارة الحديث الذي نشأ أيضا في عشرينات القرن العشرين مع تأثر واضح بالمدرسة التكعيبية . أخذت أتأمل في الأعمدة الرخامية البديعة الموزعة بتناسق وهارمونية ملفتة في قاعته السفلى ، والتي تحمل سقف القاعة الكبيرة التي هي بالطبع أرضية الطابق الأول ، وفي منتصف السقف شاهدت باعجاب القبة الكبيرة المميزة التي يستمد المطعم اسمه منها ، عرفت فيما بعد أنه في عام ٢٠٠٨ اشترك أربعة من الفنانين الفرنسيين في إعادة تزيين القبة من الداخل بحيث تعكس الطابع الأصلي للمطعم : الطبيعة والنساء والاحتفال . وكان من الملاحظ أن المطعم يمتد على مساحة كبيرة ، وكانت القاعة العلوية تخصص في الماضي ، في الثلاثينات والأربعينات للرقص . وكنت أعرف أن المخرج الإيطالي إيتوري سكولا صور فيها فيلمه البديع «الحفل الراقص» Le Balعام ١٩٨٣ . وعلى جدران المطعم لاحظت كيف تتوزع لوحات لأشهر الفنانين التشكيليين مثل بيكاسو وليجير وديران ، ويقال إنه في هذا المطعم التقى الشاعر أراجون بملهمته وحبيبته إلزا ، كما تناول العشاء مع المغنية الفرنسية الشهيرة جوزفين بيكر ، كما كان هنري ميللر يتناول هناك طعام الإفطار في بدايات حياته الأدبية قبل أن يحقق شهرته ، وكان الفنان ماتيس يتناول البيرة ، بينما كان جيمس جويس يحتسي مشروبه المفضل ، الويسكي .

حملت كأس الشراب الرقيق الذي أفضله واتجهت لأتوقف أمام الجدارية الضخمة التي أهداها رسامو مدرسة باريس لهذا المطعم المحبب

لديهم ، بعد أن تحررت باريس من الاحتلال الألماني في الأربعينات . وقرأت مما هو منشور عن المطعم ، أن ألبير كامي احتفل هناك بحصوله على جائزة نوبل مع أصدقائه ، كما كان جون بول سارتر يتردد عليه مع سيمون دي بوفوار وكان يترك بقشيشا جيدا كما يمكن أن يخبرك الساقي العجوز الذي كان مازال قادرا على الحركة والعمل . وفي عام ١٩٨٤ احتفل الرسام البولندي الشهير شاغان بعيد ميلاده على المائدة رقم ٧٣ ، ثم بعد ذلك بسنوات احتفل الرئيس فرانسوا ميتران بتناول وجبته الأخيرة على المائدة رقم ٨٢ .

كنت أتلهف للاختيار من قائمة الأطعمة البحرية الشهية التي يشتهر المطعم بتقديمها لزبائنه ، إلى جانب الطعام المكون من اللحوم المقلية على الطريقة الفرنسية ، مع أجود أنواع النبيذ والشمبانيا . ومعروف أن الأكل عند الفرنسيين فن وثقافة ، ولاشك أن زيارة باريس لا تكتمل سوى بزيارة عدد من المطاعم الشهيرة التي يجب التعامل معها كما يتعامل الزائر مع متاحفها الشهيرة ومن أشهرها بالطبع متحف اللوفر ، مفخرة الثقافة الفرنسية ، مثله في ذلك مثل مسرح الكوميدي فرانسيس الذي يرجع تاريخه إلى عام ١٧٨٠ ، فقد صدر قرار إنشائه من الملك لويس الرابع عشر الذي يعتبر أعظم ملوك فرنسا قاطبة وأكثرهم إسهاما في صنع مجدها المعماري والفني والثقافي . وكنت قد تعرفت على لويس الرابع عشر من إدماني على قراءة روايات الكسندر ديماس عندما كنت صبيا ، فهو الملك الذي كان يتمتع بحماية الفرسان الثلاثة ثم رابعهم دارتنيان بطل تلك الروايات الشهيرة ، وقد أخلصوا جميعا للملك ، وتولوا الذود عنه حتى النهاية ، وتصدوا لدسائس القصر التي كانت تحاك ضده في الظلام .

من ميدان الكونكورد دلفت عبر شارع ضيق إلى حيث يوجد مسرح الكوميدي فرانسيس وهو تحفة معمارية من الطراز الأول ، ويقع في نطاق القصر الملكي القديم (باليه رويال) في شارع ريشيليو ، والكوميدي فرانسيس هو ببساطة المسرح القومي الفرنسي ، أي المسرح الرسمي ، وهو يحصل على دعم مباشر من الحكومة الفرنسية . فهو مثل باليه البولشوي في موسكو ، الذي يعتبر من الموروثات الثقافية الروسية وفخر الفن الروسي عبر العصور .

ثقافة القطارات

عدت إلى باريس مرات عدة ، ربما أكثر من عشرين مرة ، خاصة بعد أن أصبح من السهل الانتقال بين لندن وباريس بواسطة القطار الذي يعبر أسفل بحر المانش الذي افتتحته الملكة اليزابيث الثانية ملكة بريطانيا مع الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران عام ١٩٩٤ ، وهو معجزة معمارية وانشائية حقيقية ، والأهم أيضا أنه يعتبر «معجزة سياسية» فقد ظلت بريطانيا ترفض بشدة مثل هذا النفق الذي يربطها بالقارة الأوروبية بحكم تاريخ علاقتها المضطربة بالقارة وخصوصا فرنسا التي خاضت معها حروبا امتدت لسنوات طويلة في القرن التاسع عشر ، ثم ألمانيا بالطبع في القرن العشرين وكان آخرها «حرب هتلر» العالمية . وكان الاعتقاد الانجليزي المستقر في الوعي الشعبي العام ، أن ما جعل بلادهم محمية ومصانة كونها جزيرة تحيطها المياه من كل جانب ، تحرسها بحرية عسكرية قوية متفوقة ، نجحت في قهر الغزاة الذين حاولوا اختراق المانش إلى الشاطئ الانجليزي . والغريب أن تاشتر ، التي عرفت بمناهضتها لأوروبا وبحذرها الفطري من العلاقة مع «الآخر»

الأوروبي وخاصة خصوم بلادها ومنافسيها التقليديين أي فرنسا وألمانيا ، كانت هي التي تبنت المشروع ورحبت باقامته على أن تتولى تنفيذه شركات خاصة على الجانبين وليست الحكومة . وقد بدأ العمل في النفق في عهدها عام ١٩٨٨ إلى أن اكتمل وافتتح عام ١٩٩٤ ، وكنت شاهدا على التصريح الذي أدلت به تاتشر في ١٩٨٩ أثناء احتفالات فرنسا بمرور مائة عام على الثورة الفرنسية وهو تصريح إعاميا أثار وقتها أزمة دبلوماسية بين البلدين ، فقد قالت إن الثورة الفرنسية لم تجلب سوى الخراب والدمار وإراقة الدماء في القارة الأوروبية ، أما بريطانيا فقد ظلت بمأمن عما حل بأوروبا من خراب استمر سنوات لأنها ظلت بعيدة عن مثل هذه الثورة الدموية . وكان موجز تصريحها أن لا مجال للاحتفال بحدث أدى إلى كل هذا الخراب والحروب والدمار ، لكنها اضطرت للاعتذار فيما بعد تفاديا لوقوع أزمة كبرى بين بلدها وفرنسا . ولم يكن الرئيس الفرنسي ميتران (الاشتراكي) يرتاح للتعامل مع تاتشر (اليمينة المحافظة) ، لكن مصالح الشعوب والأمم تغلب كل اعتبارات أخرى!

كما عرفنا ، كان طول النفق يبلغ حوالي خمسين كيلومترا ، يقطعها القطار في ٢٥ دقيقة ، وكان من حسن حظي أن أستقل قطارا من محطة ووترلو إلى باريس ثم أعود من باريس بالقطار للمرة الأولى ليس إلى ووترلو ، وإنما إلى محطة سانت بنكراس بعد افتتاحها في سبتمبر ٢٠٠٧ ، وبعد أن أصبحت المسافة بين لندن وباريس حوالي ساعتين وعشرين دقيقة . ورغم أن السفر بالقطار العابر للنفق ليس رخيصا كما يتصور البعض ، بل عادة أكثر تكلفة من الطائرة ، كما أنه يستغرق زمنا أطول مما تستغرقه الطائرة ، إلا أنه أفضل وأسهل ، فأنت لا

تنفق وقتا في الذهاب من بيتك إلى المطار ، ولا تضطر للانتظار في المطار لفترة طويلة ، ثم تنفق وقتا طويلا في الذهاب من مطار شارل ديجول الباريسي مثلا إلى وسط باريس ، فالقطار ينطلق حاليا من محطة «سانت بانكراس» في وسط لندن ، إلى محطة الشمال في باريس . ولا تنسى أنه أكثر أمانا بالنسبة لمن لا يحبون الطائرات من أمثالي . أو ربما أن هذا ما أميل إلى إقناع نفسي به!

كان السفر بهذا القطار عبر المانش يتم من دون إجراءات كتلك المتبعة في المطارات ، أي تمرير الحقائب عبر أجهزة الكشف ، أو المرور عبر بوابات لمراقبة الجوازات ، بل كان التعامل يتم مثلما يتم التعامل مع أي قطار يسير داخل الدولة الواحدة بعد إزالة الحواجز الحدودية بين بلدان الاتحاد الأوروبي في أوائل الألفية الثالثة . فإذا كنت مسافرا من لندن إلى باريس مثلا ، كان ضابط الجوازات الفرنسي يصعد إلى القطار بعد دخوله الأراضي الفرنسية ويفحص جوازات المسافرين ليتأكد من شخصياتهم ومن وجود الباشيرات لى جوازات من يتعين حصولهم على تأشيرات الدخول ، وكان هو الذي يختم الجواز في هذه الحالة . أما بعد ما وقع من تفجيرات في إحدى محطات قطارات الأنفاق وحافلة نقل ركاب في لندن عام ٢٠٠٧ ، سرعان ما فرضت إجراءات أمنية مشددة ، وتم فرض معاملة دقيقة مشابهة لما يحدث في المطارات تماما ، فأقيمت بوابات لفحص الجوازات على الجهتين ، أي في محطتي القطارات في كل من لندن وباريس ، كما فرض مرور الحقائب على أجهزة الفحص . وكان هذا كله بسبب «الخوة» أو «أبناء العم» أو الخالة أو سمهم أنت كما تشاء ، فقد تبرأت شخصيا منهم منذ زمن طويل ، بعد أن حولوا تجربة السفر في أوروبا إلى جحيم!

أنا من عشاق القطارات منذ أن كنت طفلا صغيرا في زمن القطارات ذات المقطورة البخارية السوداء ذات المدخنة والبوق التقليدي الذي كان سائق القطار يشغله بجذب خيط مرتبط بالصافرة المميزة . وكانت القاطرات في ذلك الزمان تعمل بالفحم ، وتسير بعجلاتها العملاقة التي تدور في إيقاع سريع رهيب كان بالنسبة لنا ونحن أطفال مثارا للخيال . ولا أنسى أن من بين الأفلام الأولى في تاريخ السينما شريط «دخول القطار إلى المحطة» (أو وصول القطار إلى محطة سيوتات- حسب العنوان الفرنسي) الذي صوره الأخوان لوميير صاحبا اختراع آلة «السينماتوغراف» التي كانت عبارة عن جهاز للتصوير والتحميض والعرض معا . هذا الشريط الذي لا يتجاوز زمنه ٥٠ ثانية ، ظل راسخا في ذاكرة الجمهور عبر السنين . وقد صور بآلة السينماتوغراف . ولعل كاميرا الفيديو الرقمية التي نعرفها الآن استمدت منها الفكرة ، فكاميرا الديجيتال يمكن استخدامها أيضا كوسيلة للعرض ، أما التحميض فقد أصبح من آثار الماضي في العصر الرقمي الجديد .

أتذكر دائما أنه من اللقطات الشهيرة للقطارات في الأفلام الأمريكية اللقطة المصورة من تحت القطار حيث يقترب القطار بسرعة من الكاميرا إلى أن يعبر فوقها ويبدو بالتالي وكأنه يتجه صوب المشاهدين داخل قاعة العرض السينمائي . هذه اللقطة كانت تسبب الفزع للجمهور في بداية عصر السينما واستمرت تفرعنا ونحن أطفال بعد ظهور السينما بعشرات السنين ، بل وكانت تدفع البعض للهرب إلى الصفوف الخلفية من القاعة . أما شريط «وصول القطار إلى المحطة» فكان يصور قطارا يصل للمحطة ويتوقف بجوار الرصيف حيث يهبط

المسافرون ويركب الآخرون الذين ينتظرون على الرصيف . وكان أهم ما في الشريط ، الحركة التي كانت مطابقة للواقع بدرجة أذهلت الجمهور في ذلك الوقت قبل أن يعتاد على مشاهدة شرائط السينما .

أنا من الذين يعتبرون القطار عالما بأسره ، على العكس من الطائرة التي قد تسبب الشعور بنوع من «الكلوستروفوبيا» أو فزع الأماكن المغلقة ، بسبب الضيق أولا ، والحزام المربوط حول وسطك معظم الوقت ثانيا ، كأنك محكوم عليك بعقوبة ما وتنتظر فقط تنفيذ الحكم ، وأيضا بسبب صعوبة الحركة داخل الطائرة . أما القطار فيمكنك أن تتحرك داخل عرباته بسهولة ، والأهم بالطبع أنك تشاهد الكثير من المشاهد الطبيعية في الخارج مما يتيح الفرصة للتأمل فيما يمر عليه المرء من الأماكن والفصائل البشرية المختلفة .

ليس هناك مجال للمقارنة بين محطة قطارات «سانت بنكراس» التاريخية التي أنفقت بريطانيا عليها بضعة مليارات لاستعادة بهائها وسحرها القديم وتحديثها من الداخل مع الإبقاء على واجهاتها التي تعكس جمال العمارة الفيكتورية المستمدة من القوطية (افتتحت أصلا في ١٨٦٨) ، وبين محطة الشمال الباريسية التي ينتمي إليها (أو يبدأ منها) قطار النفق . فالثانية أي الفرنسية تبدو أمام الأولى كأنها محطة قطارات الأرياف أو «الصعيد الجواني» . . فوضى وعشوائية وتداخل وزحام وضجيج وباعة منتشرون بشكل غير منظم في كل مكان ، وحتى خدمة بيع التذاكر سيئة وغير فعالة والصفوف عادة تمتد في مواسم السياحة في الصيف لكيلومترات ، وعادة ما تقابلك موظفة فرنسية متعجرفة تعتقد أن «باريسها» هدية السماء لك ، تعاملك بخشونة ، تتظاهر بأنها لا تجيد الانجليزية بل تكرهها بالسليقة ، أو لعلها مثل

كثيرين غيرها من الفرنسيين ، تشعر بالغيرة من كون الانجليزية هي اللغة الأولى في العالم التي يتكلمها معظم الأجانب الزائرين ، وقد عانيت مرارا من موظفي بيع بطاقات الانتقال بالمواصلات العامة (المترو والباص) في محطة الشمال الذين يجبرونك على شراء البطاقة الغالية التي تشمل تخفيضات كثيرة وهمية غالبا لن تحتاجها بل هي مجرد وسيلة لاستدراجك للتردد على بعض المعالم والمتاحف التي قد لا يتسع وقتك لأن تغشاها هذه المرة مثلا . ويحرص هؤلاء الموظفون على إخفاء البطاقة الأخرى الأكثر فعالية والأرخص سعرا ، التي يبيعونها عادة للفرنسيين أو لأصحاب البلد الذين يعرفونها مسبقا .

بين السينما والبنك

كان انطباعي العام دائما أن الفرنسيين يشعرون بالفخر بأنهم الذين اخترعوا فن السينما الذي أصبح كاسحا في شعبيته عبر العالم ، ثم ظهر التليفزيون من رحم السينما ، ثم الفيديو والوسائل المختلفة المتقدمة في العرض عن طريق الاسطوانات المدمجة وأقراص البلو راي وغيرها ، وعندما كنا شبابا صغيرا يافعا في مقتبل العمر ، نحلم بأن تكون لدينا مكتبة من الأفلام ولو حتى من نوع الـ ٨ م ، وكان بعضنا بالفعل يمتلك آلة العرض من مقاس ٨ م ، ثم كاميرا السوبر ٨ التي صورت بها الأفلام ثم أمكن تكبيرها بعد ذلك . أما أن يصبح بإمكان المرء الآن امتلاك مئات الأفلام من الكلاسيكيات النادرة إلى أحدث الأفلام ، على شكل أسطوانات أو أقراص أو حتى مجرد ملفات ضوئية الكترونية مخزنة على ذاكرة الكومبيوتر ، فهو ما يتجاوز الخيال بكل تأكيد .

في باريس يمكنك كنت أن تشاهد مئات ومئات من دور السينما وقاعات العرض ، ليس فقط في شارع «الشانزليزيه» الشهير بل في معظم المناطق والأحياء ، فالسينما ذات حضور خاص هناك ، ليس مثل لندن التي تحتل فيها البنوك محل السينما من ناحية انتشارها وكثافتها ، كما تنتشر المسارح بالطبع . في بريطانيا مثلا هناك ٥٤١ مسرحا تقدم كل أنواع المسرحيات . أما السينما فهي الفن التالي في أهميته للمسرح ، لكن البنوك تحتل المكانة الأولى في اهتمام المواطن البريطاني ، فحياته الشخصية مرتبطة بها ارتباطا أساسيا ، فهو يدفع فواتيره عن طريقها ، ويقبض راتبه ويحصل على القروض وبطاقات الائتمان والتأمين من خلال البنوك . ومع انتشار الانترنت أصبح من الممكن الآن ألا يذهب المرء إلى البنك إلا كلما دعت الضرورة القصوى ، فقد أصبح دفع الفواتير والكشف عن الرصيد وغير ذلك ، يتم من خلال الانترنت . وأصبحت آلات السحب الفوري منتشرة على كل ناصية شارع . والعطلات السنوية في بريطانيا بما فيها عطلة عيد العمال الشهيرة في الأول من مايو ، يطلق عليها البريطانيون «عطلة البنوك» . فالبنوك هي «أصل الحياة» على ما يبدو ، أو أن الاعتراف بعيد العمال تقليد اشتراكي يساري لا يصح الاقتداء به في معقل الرأسمالية ، لذلك فهم يفضلون نسبة العطلة إلى البنوك أو رجال المال أي خصوم العمال تاريخيا!

كنت خلال الثمانينات ، أي قبل ظهور وانتشار الأسطوانات المدمجة ، كلما زرت باريس أبحث بشغف عن الأفلام الفنية النادرة التي قرأت عنها كثيرا لكي أشاهدها . وكنت أشتري- بناء على نصيحة أصدقائي المقيمين هناك - مجلة أسبوعية بسيطة كانت على

ما أتذكر تصدر كل ثلاثاء وتتضمن دليلا لكل ما يعرض بدور السينما والمسارح وغيرها ، وأدق في مكان دور العرض التي تعرض ما أريد مشاهدته من أفلام ، ونوع النسخة أيضا ، أي ما إذا كانت نسخة أصلية أي ناطقة باللغة الأصلية أو نسخة فرنسية ، ومعروف أن الغالبية العظمى مما يعرض في فرنسا هي أفلام ناطقة بالفرنسية حتى لو كانت من الأفلام الأجنبية وعلى رأسها الأمريكية ، وذلك باستخدام ما يسمى بـ«الدبلاج» . هذه التقنية رأيت ولمست أنها شائعة ومنتشرة في عموم بلدان أوروبا الغربية مثل ايطاليا واسبانيا وألمانيا ، على العكس مما هو سائد في بريطانيا حيث لا يطبق الدوبلاج ، بل يفرض القانون ترجمة جميع شرائط الأفلام الأجنبية إلى اللغة الإنجليزية . ومن الطبيعي تماما أن ترى ميريل ستريب في فيلم من الأفلام وهي تتحدث الفرنسية بلكنة باريسية رفيعة ، أو أنطوني كوين بتركيبته الخشنة في «زوربا اليوناني» مثلا ، ينطق بالفرنسية . ولكن هناك دور عرض في باريس تعرض- كما أشرت- الأفلام في نسخها الأصلية ، كما أن هناك دور عرض أخرى تعرض الأفلام الفرنسية بترجمة انجليزية مطبوعة على نفس الشريط .

في الباستيل

حي الباستيل الذي يطلق عليه الفرنسيون (لوماريه) أي حرفيا «المستنقع» ، كان في الماضي منطقة مستنقعات لكنها عبر القرون أصبحت حيا أرستقراطيا ثم هجرها الارستقراطيون بعد الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، وغزتها أعداد كبيرة من يهود شرق أوروبا وغيرهم ، من الحرفيين وصغار التجار ،

ونضجت المنطقة ونمت وتوسعت في عهد نابليون الثالث مع اعادة تخطيط باريس على يدي المهندس العظيم هاوسمان ، إلى أن أصبحت من أشهر معالم باريس الحديثة بعد التوسع في العمران والتشييد الذي لم يكن ممكنا في الماضي بسبب الطبيعة المائية للتربة . ومن أشهر ساحات باريس وأكثرها جمالا «ساحة فوج» التي تتميز بـ «السيمترية» أو التماثل بين مجموعة المباني الرائعة الواقعة على جوانبها . وقد زرتها أكثر من مرة بالطبع ، وانتهزت الفرصة لزيارة المنزل الذي عاش فيه الكاتب الفرنسي فيكتور هوجو حيث كتب روايته الشهيرة «البؤساء» التي صدرت عام ١٨٦٢ . وكنت دائما أستمتع بالتجول ومشاهدة واجهات المنازل القديمة المنتشرة في هذه المنطقة والتي يعود تاريخها إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وأتسكع أمام المحلات والدكاكين الصغيرة الرائعة التي تبيع أرقى أنواع الحلي والمشغولات الفضية والذهبية والتحف الثمينة والعاديات .

في باريس دور عرض سينمائي متخصصة في عرض الأفلام الأجنبية الفنية ، أي غير الفرنسية (وغير أفلام هوليوود الأمريكية) . وذات مرة في بداية الثمانينات ذهبت إلى دار سينما صغيرة للأفلام الفنية الأجنبية ، تقع قرب ميدان الباستيل ، لمشاهدة الفيلم الشهير «الوليمة الكبرى» Le Grande Bouffe للمخرج الإيطالي ماركو فيراري . وكان هذا الفيلم قد اثار ضجة كبرى في زمانه عندما عرض بمهرجان كان عام ١٩٧٣ ، بسبب موضوعه الجرئ ومناظره الفاحشة . وكان الفيلم يصور كيف يختلي أربعة رجال يمثلون الطبقة الوسطى الفرنسية في «فيلا» بضواحي باريس مع مضيفة طيران ، يغلقون على أنفسهم ، يعتزلون الحياة ، ويغرقون في الأكل والجنس فقط ، إلى أن

يموتوا واحدا بعد الآخر . كان فيلما عبثيا مجنونا يريد أن يوجه إدانة مباشرة للطبقة «البورجوازية» التي كان فيريري يرى أنها أفلست ووصلت إلى حالة من العجز والترهل وأوشكت على الموت . وكان كثير من الفنانين البوهيميين والفوضويين واليساريين يتمنون بالطبع موت البورجوازية ، ولكن المشكلة أنها عاشت ومات غيرها!

المهم أنني وجدت قاعة السينما الصغيرة مكتظة عن آخرها بالمتفرجين ، رغم أن الفيلم كان يعرض بعد الظهر مباشرة . وكان التدخين في ذلك الوقت مسموحا في دور العرض السينمائي وغيرها من الأماكن العامة ، فلم يكن «الجنس البشري» قد نضج بعد أو بلغ «سن الرشد» الحضاري . وقد بدأ البعض يشعل السجائر وأصبحت القاعة تمتلئ بسحب الدخان ، وكان يجلس أمامي مباشرة شاب وفتاة فرنسيين . وبعد أن بدأ عرض الفيلم وأصبحت تدريجيا مندمجا في أحداثه ومشاهده ، بدأ الشاب يميل على الفتاة يقبلها قبلات ساخنة ملتهبة ، ثم احتضنها ، وجذبها نحوه إلى أسفل . ولكن الفتاة كانت تقاومه بلطف وتهمس إليه بصوت مسموع بما معناه أنه مجنون ، وأن هناك رجلا يجلس وراءه مباشرة ، وأن هذا لا يصح هنا الآن . تكررت اعتراضات الفتاة الخافتة ، ولكن الشاب لم يأبه لها ، بل كان تمنعها على ما يبدو ، يثير غرائزه أكثر فأكثر . ولكنه أدرك أنه قد يكون مراقباً مني رغم أنني حاولت جهدي ألا أوجه أي نظرات تجاههما بل كنت أحافظ على ارتفاع نظرات عيني نحو الشاشة ، ولكنه بدأ يلتفت برأسه إلى الخلف ويتطلع إلي شذرا ، ويصدر صوتا منبها حادا من ساعة في معصمه تقريبا فلم أكن متأكداً من مصدر هذا الصوت المزعج ، وقد تكررت هذه الحركة مرات عدة ، وكان المقصود بوضوح أن يضايقني وأن

يدفعني إلى مغادرة مقعدي إلى مقعد آخر بعيد عنه . وقد كنت في الحقيقة أشعر بالضيق الشديد فقد كان يقطع علي استغراقي في مشاهدة الفيلم بهذا السلوك المراهق الذي لم أكن أجد له سببا ، فالفرنسيون والأوروبيون عموما ، يتمتعون بقدر كبير من الحرية والتحرر الذي يصل لحد التحلل فيما يتعلق بهذا النوع من الممارسات ، فلماذا اختار صاحبنا قاعة السينما لكي يفعل فيها ما يفعل؟ هذا ما لم أفهمه وقتها ، ولكن ما أتذكره جيدا أنني لم أغادر مقعدي ، فقد كان منظري سيبدو غريبا وأنا أترك مقعدي وانتقل لمقعد آخر أمام الحاضرين ، وبالتالي بقيت متبرما شديد الحنق على صاحبنا دون أن أجرؤ على أن أوجه إليه أي كلمة ودون أن تصدر عني همهمة اعتراض أو استهجان لسلوكه ، فقد كانت نظراته الشريرة تنذر بسوء العواقب ، وتوحي بأنني أمام شخص صعلوك ضائع ربما يكون من مدمني المخدرات وأرباب العالم السفلي من العاطلين الذين يتسكعون في الشوارع في أوقات العمل ، وربما كانت الفتاة التي معه من بائعات الهوى المنحرفات مثلا ، وأنه يفضل السينما على غيرها لما توحي له به من جو خاص يثير ولعه بالجنس خاصة وأنه يشاهد فيلما مليئا بالمشاهد الجريئة رغم أن الفيلم لم يكن ينتمي لهذا النوع من الأفلام الإباحية التي ترف بـ «أفلام البورنو» ، بل كان من الأفلام المحسوبة على الأفلام الفنية الرفيعة .

ذكرني هذا الموقف السخيف بما تعرضت له ذات مرة وكنت أقوم وقتها بزيارة لندن قبل أن أذهب للإقامة بشكل ممتد ، وكان هذا أيضا في أوائل الثمانينات ، وكانت لندن تشهد وقتها العرض الأول لفيلم جديد من سلسلة أفلام جيمس بوند . وما أجمل أن يشاهد المرء للمرة الأولى فيلما من أفلام بوند ، في عرضه الأول في أهم أكبر وأجمل دار

للسينما في العاصمة البريطانية (أي قرب مقر عمل العميل البريطاني نفسه) ، أي مخابرات صاحبة الجلالة .

دفعت مبلغا محترما بمقاييس تلك الأيام ، وجلست أشاهد الفيلم . وبعد بداية العرض بدقيقة أو دقيقتين ، دخل في الظلام رجل في منتصف العمر ومعه سيدة كانت غالبا زوجته ، وجاءت جلستهما على المقعدين المواجهين لي مباشرة . كان يبدو عليهما الثراء بسبب معطف الفراء الثمين الذي كانت ترتديه المرأة ، ورائحة العطر الباريسي الغالي التي كانت تصل إلى أنفي بسهولة . كانت المرأة تضع قرطا ثمينا وترتدي في صدرها قلادة . وكان بوسعي أن أرصد هذه التفاصيل أثناء عبورهما صف المقاعد في طريقهما للجلوس أمامي . بعد فترة أخذت المرأة تعبث بفردة قرط في أذنها اليمنى ويبدو أنها سقطت منها على أرضية القاعة في الظلام ، وأخذت بالطبع تبحث عنه ويبحث زوجها معها ، لكنهما لم يجداها فبدأت المرأة تتطلع إلى الوراء أي إلى حيث أجلس ، لكني هززت رأسي بهدوء بما يعني أن لاشئ سقط ناحيتي . لم يصدق الرجل على ما يبدو . فأخذ يستدير برأسه كل بضعة دقائق ، ويحدق في وجهي بغيظ وغضب وتلمع في عينيه نظرات التهديد والوعيد ، وكأنه يحاول أن يتأكد أنني لم ألتقط القرط خلسة ، وأنني لا أعتزم التسلل خلسة من قاعة السينما . كانت تجربة سيئة أفسدت علي متعة مشاهدة جيمس بوند أو روجر مور في دور بوند وهو يقوم بحركاته في خضم مغامراته المثيرة ، ينتقل بين بلدان عدة كثيرة في العالم . لم أشعر بالارتياح وأتنفس الصعداء إلا بعد أن انتهى العرض وأضيئت أضواء القاعة ، وحرصت بالطبع على البقاء في مقعدي إلى أن عثر الرجل ببساطة على القرط الملعون فارتسمت على وجهه ابتسامة

عريضة وسلمه فرحا لزوجته دون أن يتطلع إلي بنظرة واحدة أو ينبس بكلمة اعتذار واحدة!

على أحد جوانب ساحة الباستيل وهي ساحة كبيرة تتفرع منها شوارع عديدة ، توجد دار أوبرا باريس الحديثة ، وهي غير دار أوبرا غارنييه التاريخية البديعة الموجودة في ميدان الأوبرا ، والتي صممها المهندس المعماري الفرنسي تشارل غارتييه بتكليف من الامبراطور نابليون الثالث ، واستغرق بناؤها سنوات من ١٨٦١ إلى ١٨٧٥ ، وهي تتسع لنحو ألفي مقعد وتعتبر من التحف المعمارية الفرنسية الخالدة .

أما أوبرا الباستيل التي توقفت أمامها مرارا ولم تعجبني أبدا ، فقد عرفت أنها أقيمت بأمر من الرئيس الأسبق ميتران ، وأنشئت بتصميم يستوحي عمارة ما بعد الحداثة ، أي على غرار مركز بومبيدو الثقافي ، والغريب أن يرتبط إسم الرئيس ميتران بالإنشاءات التي أعتبرها «قبيحة» في باريس ومنها أيضا إهرامات اللوفر الهزيلة التي قوبلت بهجوم شديد من جانب الطبقة الفرنسية المثقفة ، لكنها بقيت قائمة حتى الآن مع ذلك . أما دار أوبرا الباستيل فقد صممها مهندس من أوروغواي يدعى كارلوس أوت ، وتتسع لأكثر من ٣٣٠٠ مقعد ، أي أنها أكبر كثيرا من أوبرا غارنييه ، لكن منظرها الخارجي كارثي بكل المقاييس . وقد افتتحت عام ١٩٨٩ بمناسبة الاحتفال الفرنسية بمرور مائة عام على الثورة الفرنسية ، وكنت أزور باريس في ذلك الوقت ، وكان الاحتفال الكبير الذي أقيم لهذه الدار القبيحة يثير الحنق والغضب ، وقرأت كثيرا فيما بعد أنها أثارت الكثير من الجدل ووقعت بعد افتتاحها بعض الكوارث والفضائح منها على سبيل المثال ، سقوط بعض الكتل الحجرية التي كانت تغطي واجهتها ، ووصفها أحد نقاد

العمارة ساخرا- بأنها تشبه «غرفة الدوش الزجاجية» ، وأراها شخصيا أقرب ما تكون إلى مضارب الأرز أو محالج القطن التي نعرفها في بلادنا .

مجازفة المترو

كنت دائما أجد أن باريس مثل غانية ، تتزين وتضع العطور الجذابة ، وتخرج لكي تفتن زائريها في الليل . لكنها ليست مدينة آمنة تماما رغم الانتشار البوليسي الكبير الواضح في شوارعها ، ورغم أن رجال الشرطة مسموح لهم بحمل الأسلحة النارية واستخدامها عند الضرورة على العكس من الشرطة البريطانية التي مازالت تكتفي بالعصي!

محطات مترو الأنفاق في باريس من أكثر الأماكن التي تخيفني شخصيا ، ففيها يتنشر كل أنواع المجرمين ومدمني المخدرات والسكارى والعاطلين والنشالين الذين يتحينون الفرصة لتجريدك مما تحمل . وقد شاهدت بعيني كيف قام شاب بجذب حقيبة كان يحملها صديق لي وسط زحام المترو بينما كان زميله يضايق صديقي ويلفت نظره بعيدا حتى يتمكن الآخر من جذب الحقيبة والهرب بها عندما يفتح القطار أبوابه في المحطة القادمة . ولولا يقظة صديقي وانتباهه إلى ما يحدث لسرقوا حقيبته التي كانت تحتوي على الكاميرا الثمينة التي جاء بها ، وحافظة نقوده التي تحتوي أيضا على بطاقات الدفع المصرفية ، وغير ذلك . والمؤسف أن اللصين كانا من «عرب باريس» . . والملاحظ أن اللصوص العرب أو ذوي الأصول العربية أو أبناء المهاجرين العرب في باريس (حتى نبتعد عن التخصيص) يفضلون كثيرا سرقة زوار باريس

من أبناء جلدتهم ، أي من القادمين من العالم العربي أو الذين يتحدثون اللغة العربية ، فهم يعتقدون أن هؤلاء فريسة سهلة ، فمعظمهم لا يجيد اللغة الفرنسية ، ولن يقاوم أيضا كثيرا ، وربما يحملون أيضا الكثير من المال معهم لزوم التسوق وما إلى ذلك .

يقضي المواطن الفرنسي من سكان باريس (وغيره من المقيمين غير الفرنسيين) نصف حياته في مترو الأنفاق ، فرغم أن مترو باريس من اكثر الشبكات كفاءة وسرعة ، إلا أنه من أكثرها تخلفا في تصميم محطاته وأنفاقه وردهاته بل وأكثرها قذارة أيضا . فمن الممكن جدا أن تجد مياه الصرف الصحي منتشرة في بعض الممرات ، كما أن الجدران متآكلة والقمامة ملقاة هنا وهناك بكثافة . ولكن الأكثر لفتا للنظر هو تصميم المحطة من أسفل ، فأنت تهبط سلالم عديدة (لا تتمتع معظم المحطات بالسلالم الكهربائية) ثم تسير في ممر طويل قد يصل إلى عشرات الأمتار ، قبل أن تجد أمامك سلما آخر صاعدا تضطر لأن تصعده ، ثم تصعد سلما آخر لتسير في ممر طويل قبل أن تهبط سلما إلى حيث يوجد رصيف القطار . ولا توجد أي تسهيلات في غالبية هذه المحطات التي لم يدخل عليها أي تطوير حقيقي منذ إنشائها في بداية القرن العشرين ، بحيث يجعل الأمر أكثر سهولة على المتعاملين مع شبكة المترو الذين يتجاوز عددهم أربعة ملايين شخص يوميا ، خاصة كبار السن منهم الذين كنت أشفق عليهم وأنا أراهم يكافحون لهبوط الدرجات المرهقة ثم صعود درجات أخرى والسير أميال وأميال يوميا تحت الأرض ، لتغيير القطارات ، والانتقال من خط إلى آخر . ولا بد أن الموظفين والعمال الذين يستخدمون المترو يوميا ، يصلون إلى بيوتهم في نهاية اليوم وهم يعانون من الإرهاق الشديد ، لكن الغريب

في الأمر أن الباريسيين يشعرون بنوع من الزهو ، أراه زائفا ، بمترو بلدهم الذي يعتبرونه أيضا علامة مميزة خاصة للعاصمة الفرنسية ، رغم أنه لم يتقدم كثيرا ، وأصبح متخلفا عن العصر بسبب هذه المنعرجات القبيحة التحت أرضية وكثرة الدرجات والمنحنيات والصعود والهبوط المتكرر والسير في ممرات قبيحة حجرية كثيرا ما تشم في ارجائها روائح كريهة . المهم أن لا أحد يشكو أو يتذمر - كما يبدو لي- رغم ما هو معروف عن الفرنسيين من أنهم «أهل ثورة» كما يقولون ، أو أول من ابتدع فكرة «الثورة الحديثة الكبرى» التي غيرت التاريخ!

الكونكورد: تاريخ وفن

عدت إلى باريس مرات ومرات ، وكنت دائما أقف في ساحة الكونكورد وأتطلع من أمام بوابات حدائق التويليري المؤدية إلى قصر اللوفر الذي يضم المتحف الشهير ، في اتجاه طريق الشانزليزيه الذي يمكن مشاهدته على مرمى البصر مستقيما ممتدا ، صاعدا بشموخ وتصميم نحو قوس النصر . وكانت الكونكورد بتصميمها الرائع تثير خيالي أولا بحكم وجود المسلة المصرية القديمة (تعرف باسم مسلة الأقصر) التي يبلغ ارتفاعها نحو ٢٣ مترا ، ويبلغ وزنها ٢٥٠ طنا ، والتي أهداها محمد علي والي مصر إلى ملك فرنسا شارل العاشر ، ولكنه سرعان ما تنازل عن العرش ، وتولى الملك من بعده الملك لويس فيليب . وكان محمد علي يخطب ود فرنسا في ذلك الوقت ، ويسعى للاستعانة بالجمهورية الفرنسية في مجال بناء الجيش المصري وتحديث الحياة الاقتصادية والثقافية المختلفة . . ولا يجب أن ننسى أن هذا كان زمن البعثات العلمية والتعليمية إلى فرنسا وكان في مقدمتها البعثة

التي ذهبت إلى فرنسا عام ١٩٢٦ وكانت تتكون من أربعين طالبا بينهم رفاعة رافع الطهطاوي الذي كان في السادسة والعشرين من عمره .

نقلت المسلة إلى فرنسا عام ١٨٣٣ ، ووضعت في ساحة الكونكورد عام ١٩٣٦ في احتفال ملكي كبير . ولكن ما يثير الفكر والخيال ، ليس فقط وجود المسلة بل ما حدث قبلها وقبل أن تسمى الساحة أو الميدان باسم ساحة الكونكورد ، فقد أنشئت في البداية عام ١٧٥٣ بقرار من الملك لويس الخامس عشر الذي أطلق إسمه على الميدان بل ونصب له تمثال كبير في الوسط ، ولكن بعد قيام الثورة الفرنسية ، تغير الإسم إلى ساحة الثورة ، وبدأت عمليات قطع الرؤوس في الميدان باستخدام تلك الآلة الجهنمية التي اخترعها الفرنسيون واطلقوا عليها «الجيلوتين» أي المقصلة كما تعرف في اللغة العربية ، وفي هذا الميدان قطع رأس الملك لويس السادس عشر ثم ماري أنطوانيت ومدام دي بومبادور ودانتون وروبسبير ، ويقال إن عدد الذين قطعت رؤوسهم في هذا المكان التاريخي بلغ أكثر من ألف رأس . وقد أزيل تمثال الملك لويس الخامس عشر فيما بعد وتم التخلص تماما من تلك الآثار الدموية وأصبحت المسلة المصرية علما من أعلام باريس كلها ، وأطلق على الميدان إسم «الكونكورد» ومعناها الوفاق بين البشر .

الطريف أن هذا هو نفسه الإسم الذي أطلقه الفرنسيون على اختراعهم الجبار (بالاشتراك مع العلماء البريطانيين) أي طائرة الكونورد العملاقة التي تجاوزت سرعتها سرعة الصوت ، وكانت تقطع المسافة بين لندن ونيويورك في أقل من ثلاث ساعات (تستغرق الرحلة العادية حوالي سبع ساعات) . وقد ظلت طائرة الكونورد في الخدمة لمدة ٢٧ عاما ، من عام ١٩٧٦ حتى ٢٠٠٣ حينما توقف تشغيلها بعد الحادث

المروع الذي تعرضت له إحدى طائرات الكونكورد عام ٢٠٠١ وأسفر عن مقتل ١١٣ شخصا .

الغريب أنني قرأت أن السبب الأساسي في وقف استخدام طائرات الكونكورد لم يكن الحادث كما هو شائع وكما كنا نعتقد بدليل أنها لم تتوقف على الفور بل استمرت في العمل لنحو عامين بعد وقوع الحادث ، بل يرجع إلى ارتفاع تكاليف تشغيلها قياسا إلى ما تحققه من أرباح!

لكني قرأت أخيرا تقارير كثيرة عن اعتزام شركة إيرباص الأوروبية تصنيع طائرة جديدة أطلق عليها اسم «إبن الكونكورد» تعمل بثلاثة أنواع من المحركات ، ستتجاوز كثيرا سرعة الصوت ، ويمكنها أن تقطع المسافة بين لندن ونيويورك في ساعة واحدة فقط . ويقال إنها ستنطلق أولا بالمحرك العادي وبعد فترة تنطلق أكثر بفعل قوة قاذف صواريخ لتصبح خارج الغلاف الجوي ، ثم تتلقى دفعة أخرى إضافية لزيادة سرعتها بمحرك شبيه بالمحركات التي تقود الصواريخ . وسيصل مدى ارتفاع الطائرة ٣٠ كيلومترا فوق سطح الأرض بينما المسافة الأعلى حاليا لا تتجاوز عشرة كيلومترات . ولكن السؤال الجوهري هنا هو : وكم ستتكلف الرحلات ، أي كم سيدفع المسافرون ، وهل للمشروع جدوى اقتصادية أصلا؟ علما بأن سعر تذكرة السفر على متن طائرة الكونكورد من لندن الى نيويورك كانت تتكلف ٩ آلاف جنيه استرليني . فكم ستتكلف طائرة السرعة الجديدة الخارقة!

لماذا يتوق الإنسان إلى مثل هذه السرعة ، وإلى أين نتجه ويتجه العالم خاصة خلال المائة سنة الأخيرة بعد أن ظل الانسان لآلاف السنين راضيا قانعا بالسفر باستخدام الدواب والعربات البسيطة التي

تجرها الحمير ثم السفن التي تناضل ضد مياه البحار والمحيطات وتقلبات الطقس والعواصف العاتية ، قبل ظهور القطارات التي اعتبرت معجزة تكنولوجية هائلة في عصرها . وما الذي يجنيه الإنسان من هذه السرعة الرهيبة المفترضة ، وكيف يمكن أن يأمن المرء على نفسه وهو يجلس داخل علبة من الحديد والبلاستيك تتعلق في الفضاء على بعد ثلاثة آلاف متر من الكوكب الصغير الذي ولد ونشأ على سطحه ، وبسرعة تصل إلى أكثر من ٥٥٠٠ كيلومتر في الساعة الواحدة وهي المسافة زمانيا بين لندن ونيويورك . فإذا وقع لا قدر الله ، عطل في آلات الطائرة فماذا يستطيع الطيار أن يفعل في جزء من الثانية وهو يطير بهذه السرعة؟ أغلب الظن أن الطائرة ستتحول في ثانية واحدة إلى اثر من بعد عين .

بعيدا عن طائرة الكونكورد و«وليدها» المنتظر ، أعود إلى باريس ، وإلى ساحة الكونكورد مجددا ، لأتطلع إلى الجهة الأخرى اليسرى من الساحة ، نحو نهر السين الذي أوحى للكثير من الشعراء بكتابة الشعر ، وألهم العشاق والمحبين ، بجسوره الأسطورية . عندما أسير فوق جسر الكونكورد المتقاطع مباشرة مع الساحة التاريخية ، أرى عند نهايته من الضفة اليسرى للنهر ، مبنى الجمعية الوطنية الشامخ الذي يشبه المعابد الرومانية ، والذي يعرف باسم «قصر البوربون» وهو مقر البرلمان أو مجلس نواب الشعب على غرار «مجلس العموم» البريطاني ، هذا المبنى يعود تاريخه إلى عام ١٧٢٢ حينما بني كمنزل ريفي للدوقة لويز فرانسوا دي بوربون التي تنتمي إلى عائلة لويس الرابع عشر ، ثم أضاف إليه نابليون بونابرت تلك الأعمدة التي صممت على غرار كنيسة مادلين الشهيرة ، وإن كنت دائما أرى أن الأصل الذي استمدت منه

تلك الأعمدة سواء في مثل هذا المبنى الباريسي الشهير أو حتى الكابيتول هيل في واشنطن ، أي مقر الكونجرس الأمريكي ، يعود أصلا إلى تصميم المعابد الرومانية ، بل إن «كابيتول هيل» هو اسم مستمد من إسم التل الشهير في روما (أحد تلال روما السبعة) وهو «كابيتولاين» حيث كان يوجد معبد جوبيتر ذي الأعمدة ، في تلك المنطقة التي تعتبر العاصمة الساسية والدينية للإمبراطورية الرومانية .

تشويه وتدمير معماري

من الأشياء التي لا تعجبني بل أراها مشوهة للتراث المعماري البديع ، تلك العجلة الضخمة التي أصبحت شبه مقيمة في ساحة الكونكورد ، والتي تحمل الأطفال والكبار وتدور بهم من أسفل إلى أعلى ، ويعتبرونها وسيلة للاستمتاع ولا أجدها كذلك ، أو على الأقل لا أحب وجودها في الأماكن التاريخية ، فهي بتصميمها الحديث من الحديد والصلب ، تشوه المنظر العام لساحة الكونكورد وتجعلها تبدو مثل مدينة ملاهي . والكارثة أنها أصبحت الآن رمزا لمدينة لندن أيضا بعد ان استقرت عجلة مشابهة ضخمة يطلقون عليها «عين لندن» على الضفة الجنوبية لنهر التايمز ، بالقرب من جسر ووترلو أي في منطقة تتميز بمبانيها الفيكتورية وخاصة مبنى البرلمان البريطاني الشهير وساعة بيج بن . ولا أعرف ماذا يسمى الفرنسيون عجلتهم البشعة ، ولا كيف سمحوا بأن تطغى على معالم الساحة التاريخية ، بل وفي أوقات كثيرة كنت أتردد على باريس وأزور الساحة لكي أجد أنهم بكل غباء وحماقة ، قد أقاموا مدرجات خشبية على إحدى جوانب الساحة ، مرفوعة فوق أعمدة حديدية ، مما يشوه تماما منظر الميدان ، ويخلط بشكل

فج بين توافه المنشآت الحديثة والمعمار البديع القديم .

نفس هذا الانطباع ينتابني أيضا كلما اقتربت من قصر اللوفر ، فقد كلف الرئيس فرانسوا ميتران مهندسا أمريكيا من أصل صيني ، باقامة ثلاثة إهرامات زجاجية ، الهرم الأساسي منها كبير الحجم وهرمان صغيرات لا يلحظهما أحد ، ويعد الهرم الأكبر المدخل إلى متحف اللوفر الشهير ، وقد أصبح هذا الهرم منذ اقامته في الثمانينات ، معلما يجد بعض المعجبين ، أنه يعكس ذلك الهوس الفرنسي بمصر القديمة وحضارتها ، لكن شتان بين الهرم القزمي المصنوع من الزجاج الشفاف الذي يكشف جزءا من ردهة مدخل المتحف إلى أسفل ، وبين إهرامات الجيزة في مصر . ورغم غضب الكثير من المثقفين- بل والسياسيين- الفرنسيين إزاء هذه «البدعة» ورفض الكثيرين لها ، إلا أنه أصبح مفروضا ، ربما لفائدة السياح اليابانيين من الفتيات والفتيان الذين يتطلعون إليه في انبهار شديد ويلتقطون الصور ، تماما كما يفعلون أمام أي بقعة تافهة الشأن يجدونها «غريبة» عليهم وعلى ما يعرفونه في بلادهم ، ويلتقطون لها عشرات الصور . وأتذكر أن المخرج السينمائي الإيطالي العبقري فيلليني- سخر بقسوة في فيلمه «المقابلة»- من ذلك الهوس الياباني بتصوير الغرائب والعجائب أيا كانت تافهة القيمة ، رغم أن فيلمه كان من التمويل الياباني . وربما يكون اليابانيون قد وجدوا في سخريته هذه أيضا بعض الطرافة التي أعجبتهم كما تعجبهم كل غرائبيات «الآخر» .

من بين المعالم الحديثة التي يجدها البعض جذابة أو على الأقل ، «مثيرة للاهتمام» وأجدها قبيحة وأتعجب من تدهور الذوق الفرني الفرنسي في المعمار في العصر الحديث الذي نعيشه رغم أن أجدادهم

وآباءهم صنعوا كل هذه العظمة المعمارية حتى في تصميم المنازل والبنايات ، مبنى «مركز بومبيدو الثقافي» ، فهو مبنى ينتمي لتصميمات ما بعد الحداثة التي أجدها مزعجة ومنفرة . وعندما أقترب منه أشعر بأنني أمام مبنى مصنع أو مجمع صناعي مشيد من الزجاج والصلب ، ولكي أدخله يجب أن أصعد وأمر عبر أنبوب ملتوي كالثعبان ، من الصلب المغطى بالزجاج . أما زجاج النوفذ الضخمة فهي شفافة يمكن من خلالها رؤية الموجودين في الداخل . يعلو المبنى قطعة مربعة من الحديد المطلي اللون الأحمر . والبناء بشكل عام غير مريح للنظر ، بل مزعج كثيرا ومشتت للفكر ومدمر للخيال ، والغريب أنه من تصميم مهندس بريطاني مع اثنين من المهندسين الإيطاليين ، وكأن البريطاني كان ينتقم من الفرنسيين بهذا التصميم القبيح .

يقع مركز بومبيدو في منطقة الهال Les Halles في وسط باريس . وتاريخيا كانت هذه المنطقة هي سوق الخضار القديم في باريس . وقد أزيل السوق رغم المعارضة القوية من جانب اليسار الفرنسي في أوائل السبعينات . وأقيمت في مكانه مجموعة من «البوتيكات» أو المحلات الصغيرة التي يضمها مركز تسوق تجاري متدرج قبيح الشكل مصمم أيضا على الطريقة المودرن أو البوست مودرن (الاثنان غالبا يمتزجان ببعضهما) ويطلقون عليه اسم «منتدى الهال» . وأظن أنه شهد تعديلات أساسية كبيرة في تصميمه وبنائه خلال السنوات الأخيرة . وأتذكر اننا شاهدنا في نادي سينما القاهرة في السبعينات فيلما كوميديا ساخرا بديعا بعنوان «لا تلمس المرأة البيضاء» Touche pas à la femme blanche للمخرج الإيطالي الراحل ماركو فيراري ، من الإنتاج الفرنسي- الإيطالي المشترك (من عام ١٩٧٤) ، تدور أحداثه

في منطقة منطقة السوق التاريخي القديم نفسه ، حيث كان العمال والطلاب أقاموا المتاريس خلال انتفاضة باريس الشهيرة في مايو ١٩٦٨ ، وأخذوا يشنون الهجمات على قوات الأمن الفرنسية . ويصور الفيلم هذا السوق باعتباره حصنا كان يحتمي فيه الثائرون ضد هجوم قوات الأمن ، ويربط بينه وبين المعارك الضارية وعمليات الإبادة الجماعية التي شنتها قوات الجيش الأمريكي في القرن التاسع عشر بقيادة الجنرال جورج كاستر المعروف بجزار الهنود الحمر ، ولكننا نرى «كاستر» الذي يقوم بدوره الممثل ميشيل بيكولي ، وهو يقود قواته من راكبي الخيول بملابس فرسان القرن التاسع عشر ، وهي تهاجم النشطاء والتجار بملابسهم في الزمن المضارع الحديث ، وهم يحتمون بالمتاريس التي أقامها في السوق ، للدفاع عن موقع تجارتهم التاريخي ضد جحافل الأمن التي تريد القضاء على انتفاضتهم وفتح الطريق أمام الجرافات الضخمة لإزالة السوق وتحويله إلى منطقة سياحية كما حدث بالفعل في عام ١٩٧١ ، أي بعد ثلاث سنوات فقط من انتفاضة باريس الكبرى .

خارج باريس إلى ضاحية تقع في الشرق منها ، أخذني صديقي همام المستكاوي ذات مرة ، لمشاهدة تلك المدينة الطوباوية التي أقامها بعض المهندسين الذين يمتلكون «رؤية» خاصة في الحياة الجماعية ، وكانوا يتطلعون إلى تحقيق عالم أفضل من خلال عمارة ما بعد الحداثة التي كانوا يرغبون لتطويعها بحيث تسمح بشكل أكثر سهولة في التواصل بين البشر .

المنطقة تعرف بـ «سين- سان دينس» . وفيها توجد «مستعمرة» من المباني الممتدة المتشابكة المكونة من عشرات أو حتى مئات الشقق

السكنية التي تشبه ما يعرف بـ«البروجكت» في نيويورك أو أمريكا بشكل عام . بعضها منفصل عن الآخر ، والبعض يرتبط معا بمجموعة من الممرات الغريبة والجسور المغلقة التي تربط بينها ، والحقيقة أنها أقرب ما تكون إلى «مستعمرة» صممت أساسا لغرض ايديولوجي يخدم فكرة الحياة المشتركة الجماعية لأبناء الطبقة العاملة . أما الذي صمم هذه المستعمرة ذات الأعمدة المرتفعة والنوافذ المتعددة ، فهو المهندس المعماري الإسباني ريكاردو بوفيل والمهندس مانويل نونيز يانوفسكي ، وهو اسباني أيضا وعرف بميوله اليسارية الفوضوية . والاثنان مازالا على قيد الحياة لحظة كتابة هذه السطور . وقد قرأت أن هذ المنطقة شهدت تصوير أفلام (خيالية) مثل فيلم «برازيل» .

لم أحب أبدا عمارة ما بعد الحداثة ، فهي رغم الابتكارات الكثيرة التي تميزها في التصميم والشكل إلا أنها تفتقر لأهم ما يميز عمارة عصر النهضة ، أي جمال التصميم والشكل واتساع المساحات وكذلك الطابع الإنساني المميز لعمارة النهضة . فالمرء يشعر بشعور مثير غير مريح وهو يدخل مثل هذه البنايات أو يتجول أسفل المعابر التي تفصل فيما بينها ، وعندما ذهبنا إلى المطعم الموجود في المنطقة نفسها ، وجدنا المناضد أصغر من أن تتسع للصحون ، التي تكفي شخصين يجلسان ، ولم تكن المقاعد مريحة بل مصممة بحيث تجعل ظهرك يتصلب من أعواد الحديد المصنوعة منها ، وكان هناك عمود حديدي طويل هابط من السقف بزاوية مائلة يخترق المنضدة عند نقطة معينة ، بحيث يجعلك تشعر طوال الوقت ، بعدم الارتياح .

لكن لكل عصر مزاجه وذوقه واحتياجاته وأيضا إمكانياته . وكلما مررت بشوارع مدينة لندن ، ولاحظت الفرق الهائل بين المنازل

والبنايات القديمة الكلاسيكية التي تنتمي للعصر الفيكتوري الأول والثاني ، وأقارن بينها وبين ما يشيده الانجليز حاليا من أحفاد مهندسي العصر الفيكتوري من بنايات «وظيفية» أي تحقق وظيفة السكن فقط ، دون أن تتمتع بأي درجة من درجات الجمال أو المساحة المريحة ، كلما تعجيبت وضربت كفا بكف . وأتذكر أن الأمير تشارلز ، ولي العهد البريطاني «الأزلي»- فهو لن يتولى الحكم قط على ما يبدو- كان قد وجه قبل سنوات ، انتقادات شديدة للتصميمات المعمارية الحديثة التي تكاد تطغى وتقضي على الطابع المعماري المميز الموروث لمدينة لندن ، ولكنه قوبل بحملة صحفية ضخمة وكتابات كثيرة تهاجمه وتهاجم ذوقه وتتهمه بالتخلف عن العصر ، وتنصحه بالتركيز على شؤونه الخاصة وعدم التدخل فيما لا يعنيه . وكنت ومازلت أشك أن هذه الحملة كانت مدفوعة لخدمة أهداف المقاولين وشركات المقاولات ، فالبناء يتم في عصرنا الحالي ، ليس لصالح الإنسان الذي سيسكن ويستمتع بالسكن ، بل لصالح شركات المقاولات!

٥

المغامرة البلغارية وراء الستار الحديدي

في عام ١٩٨٦ كنت ضيفا على أحد المهرجانات السينمائية التي تقام في العالم العربي . وهناك تعرفت على فتاة بلغارية تدعى «أوفيليا»- وهو إسم بطلة مسرحية شكسبير الشهيرة «هاملت» . أما أوفيليا البلغارية فكانت نحيلة ترتدي أزياء بسيطة خاصة مميزة تنتمي للأزياء الشعبية الفلكولورية المعروفة في بلدها . وكانت بابتسامتها الجذابة تلفت انظار المدعوين من السينمائيين والضيوف ، كان هذا يغازلها ، وذاك يداعبها ، ولكنها كانت تبتسم للجميع ثم تمضي مع صديقتها البولندية . ولكني اقتربت منها ذات مرة بجرأة لم أكن أتمتع بها في ذلك الوقت ، وأبديت إعجابي بما ترتديه من أزياء فقالت إنها من تصميم والدتها ، شأنها شأن كل ملابسها .

تطور الحديث فيما بيننا ، ثم دعوتها للعشاء خارج الفندق وخارج المهرجان ، وقالت لي إنها تعمل كمسؤولة في قسم التوزيع الخارجي في مؤسسة السينما البلغارية الحكومية . وكانت السينما في بلغاريا ، كما في كل بلدان أوروبا الشرقية وقتذاك ، مؤممة خاضعة للدولة . كان المنصب كبير عليها بحكم حداثة سنها . وكانت موفدة إلى المهرجان لتمثيل المؤسسة البلغارية . في نفس العام وفي مهرجان عربي آخر ، تعرفت على رئيس تحرير المجلة السينمائية التي كانت تصدر عن

مؤسسة السينما وهي مجلة «الفيلم البلغاري» وأتذكر أن اسمه الأول كان كريستوف ولا أتذكر إسمه الأخير ، وتبادلنا بطاقات التعريف ، وحضرنا معا عرض أحد الأفلام ثم تصادف أن جلسنا معا لمشاهدة أحد عروض فرقة الفنون الشعبية على مسرح السيرك القومي بالقاهرة . ودار بيننا حوار عن السينما في مصر . وكان يجلس بالقرب منا المخرج الإيطالي الكبير سيرجيو ليوني مخرج أفلام «الويسترن سباجيتي» الشهيرة التي كانت السبب في ذيوع صيت الممثل كلينت إيستوود .

بعد نهاية المهرجان عدت إلى لندن ونسيت السيرك القومي وسرجيو ليوني والسيد كريستوف البلغاري وأوفيليا بالطبع . وفي ربيع عام ١٩٨٧ تلقيت دعوة رسمية من مهرجان فارنا السينمائي الدولي لأفلام الصليب الأحمر . وكان هذا المهرجان ، كما عرفت ، ينظم بالتعاون بين منظمة الصليب الأحمر البلغاري والصليب الأحمر الدولي برعاية مؤسسة السينما البلغارية . وكان كل هذا الالتفاف وقتها ، أو بالأحرى الاختباء وراء لافتات منظمات إنسانية كبرى مثل منظمة الصليب الأحمر ، يسمح على ما يبدو ، بإيجاد صلة تواصل ما ، مع العالم الخارجي ، أي خارج الستار الحديدي المفروض حول أوروبا الشرقية .

احترت في بادئ الأمر ، فلم أعرف من المسؤول عن هذه الدعوة . هل هي أوفيليا التي اتصلت بي مرة أو مرتين هاتفيا من صوفيا عاصمة بلغاريا بعد عودتها إلى بلادها وبعد أن عدت إلى مهجري في العاصمة البريطانية ، أو هو كريستوف رئيس تحرير مجلة «الفيلم البلغاري»؟ لكنني قبلت ما تصورته وقتها «تحديا» صعبا ، وقررت أن أخترق الستار الحديدي لكي أطلع بشكل مباشر على التجربة البلغارية في

الاشتراكية ، خاصة وأن بلغاريا كانت دولة صغيرة هامشية من بين دول حلف وارسو بقيادة موسكو .

لم أكن في أي وقت في حياتي أنتمي إلى أي تنظيم سياسي سواء إلى اليمين أو إلى اليسار . فقد كنت بطبعي أنفر من العمل السياسي التنظيمي . كانت لي مثل كل الشباب- ولاتزال- آرائي وأفكاري ومواقفي السياسية التي تتطور باستمرار- لكني كنت دائما أقف خارج الأحزاب والتنظيمات بسبب كراهيتي الطبيعية لفكرة الالتزام بتعليمات «القيادة» ، و«الانضباط الحزبي» ، والإخلاص الذي أراه سخيفا للعقيدة السياسية أيا كانت . وكنت دائما أعتقد أنه يتعين على من يختار أن يصبح جزءا من العمل الثقافي العام ، ألا يرتبط بأي تنظيم ، وأن يستطيع تطوير أفكاره باستمرار ، لا أن يتجمد ويقبل بما تعلمه في فترة ما وتوقف عقله عنده .

حصلت على تأشيرة لدخول بلغاريا بموجب الدعوة بعد التقدم إلى سفارة بلغاريا في لندن . وتأهبت للسفر بعد أن استلمت بطاقة الطائرة . ووجدت نفسي داخل طائرة الانطونوف السوفيتية الصنع في الرحلة التي استغرقت نحو ثلاث ساعات . كانت هناك أفكار كثيرة تعترضني وأنا أجلس على مقعدي داخل طائرة الخطوط الجوية البلغارية التي تطير من لندن إلى صوفيا . وكنت أترقب لحظة وصولي لأرى ما إذا كانوا سيرسلون مندوبا لاستقبالي كما تتصرف كل المهرجانات مع المدعوين .

في المطار

في مطار صوفيا تعرضت أولا لاستجواب مكثف من قبل ضابط

الجوازات : لماذا حضرت ، وأين هي الدعوة ، ومن أنا ، ومن أين جئت ولماذا لم آت من بلدي الأصلي ، وإلى أين أنا ذاهب بعد ذلك ، وكم معي من مال . .وغير ذلك من الأسئلة الشخصية التي وجدتها سخيفة ، لكني تحملتها على مضض . ثم كان يتعين علي أن أمر بمسؤولي الجمارك ، حيث تم تفتيش حقيبتي تفتيشيا دقيقا وأخرجوا من حقيبة يدي كل ما فيها ، بما في ذلك حافظة كانت تضم بعض بطاقات الدفع المصرفية واخذ الضابط يحدق فيها في ريبة وتشكك ، كما أخرج بعض العملات البريطانية الورقية التي كنت أحملها . وطلب مني أن أتوجه لتغيير مبلغ محدد عن كل يوم من الايام التي سأقضيها في بلادهم . كانت العملة المحلية وتسمى (الليفا) ، محددة رسميا بأكبر كثيرا من قيمتها على عادة النظام الاقتصادي في الدول الاشتراكية . ولذلك كانت السوق السوداء منتشرة ، لكن المغامرة ببيع العملة الأجنبية هناك كانت محفوفة بالمخاطر . لكن جميع الطلاب العرب المقيمين في هذه البلدان وكان كثير منهم من الليبيين والجزائريين بموجب اتفاقات رسمية بين بلديهما والسلطات البلغارية ، يقومون بتهريب العملة والمتاجرة بها في السوق السوداء . وقد علمت أن الأمر نفسه كان يجري في موسكو بين الدارسين الحاصلين على منح دراسية من الطلاب العرب .

كان في انتظاري في المطار مندوب للمهرجان ، وكانت هناك «أوفيليا» أيضا ، ومعها صديقة أو زميلة لها في العمل تدعى «ناديا» وكانت فتاة جذابة ، قالت لي أوفيليا فيما بعد إنها «مجنونة» أو بمعنى أصح ، مضطربة نفسيا يمكنها أن تتبدل في ثوان معدودة في مزاجها ، وأنني لا يجب أن أخدع بما كانت تبديه لي من ألفة وتودد وكانت

تضحك كثيرا رغم معرفتها البدائية بالانجليزية . وأغلب الظن أن أوفيليا كانت تحاول أن تبعدني عن الاهتمام بصديقتها التي كانت تفوقها من ناحية الشكل .

المهم أنني عرفت أن هناك بطاقة أخرى لطائرة أخرى داخلية للسفر من صوفيا إلى فارنا على ساحل البحر الأسود . وكان أوفيليا وصديقتها ستلحقان بالمهرجان في اليوم التالي . وركبت الطائرة السوفيتية الصنع الصغيرة الحجم التي لا يزيد عدد مقاعدها عن ثلاثين مقعدا ، وكنت دائما شديد التوجس من مثل هذه الطائرات الصغيرة ، خاصة أنني كنت أتشكك أيضا في سلامتها ودقة صناعتها . وبعد ارتجافات عديدة وتذبذبات كثيرة في الجو ، هبوطا وصعودا ، وصلنا بعد أقل من ساعة إلى مطار فارنا ، ومن هناك أخذوني في سيارة للذهاب إلى الفندق الذي سأقيم فيه . لم يكن السائق يتحدث الانجليزية . وكانت تلك مشكلة فقد كنت أريد أن أعرف كم من الوقت ستستغرق رحلتنا ، وما هو الفندق المخصص للضيوف وهل سيكون في وسط المدينة بالقرب من المهرجان كما كنت أود وأرغب ، أم سيكون بعيدا . وكانت تلك النقطة تشغلني كثيرا في تلك الأيام ، فقد كنت أنظر إلى المهرجانات أساسا كفرصة لمشاهدة أكبر عدد من الأفلام والكتابة عنها ولقاء الناس . لكني تعلمت بعد سنوات أن هناك جانبا من المتعة في التعرف على المكان ، والاستمتاع بما يصادفه المرء من أشياء أخرى كثيرة ، ومحاولة فهم ما يقع من مفارقات .

ظل الصمت يحيط بنا طوال رحلة السيارة التي استغرقت أكثر من ساعة ، وكان الوقت قد تأخر وأصبحت أشعر بالإرهاق الشديد . وبعد أن وصلنا إلى فارنا التي تعرفت عليها مع رؤية البحر ، واصل السائق

سيره إلى أن وصلنا إلى منطقة تبعد نحو أربعين كيلومترا عن وسط المدينة عبارة عن منتجع سياحي يسمى «الشاطئ الذهبي» . وتوقفت السيارة أمام أحد الفنادق حيث كان يفترض أن أقضي أسبوعا . وشعرت بنوع من الاكتئاب فرغم جمال المنظر ورغم أن الفندق كان يطل مباشرة على البحر إلا أنني فكرت في هم الذهاب يوميا الى وسط المدينة ، خاصة وانهم لم يوفروا لنا أي وسيلة للانتقال كما علمت صباح اليوم التالي ، وكان يتعين علي أن استقل إحدى الحافلات العامة التي تنقل المواطنين ، وكانت مكتظة بالراكبين ، وأخذت تتهادى وتتوقف عند محطات كثيرة إلى أن بلغت وسط المدينة قرب قصر المهرجان ، وبعد أن استغرقت هذه الرحلة نحو خمسة وأربعين دقيقة .

وصلت أوفيليا بعد الظهر وتحدثت معها عن ضرورة الانتقال إلى فندق أوديسا المواجه للبحر في قلب المدينة بالقرب من قصر المهرجان ، إلا أنها اعتذرت بالقول إنها لن تستطيع أن تتحدث مع مسؤولة الإقامة في المهرجان ، وإنني يجب أن أتحدث معها بنفسي مباشرة . وعندما ذكرت للموظفة رغبتي في الانتقال الى فندق أوديسا ، تعرضت لعشرات الأسئلة عن أسباب هذه الرغبة ، ولماذا لا يعجبني الفندق الآخر ، وما الهدف من الانتقال . . الخ كما لو كنت جاسوسا محتملا . وقد علمت فيما بعد أن الفندق الآخر كان مخصصا أساسا للصحفيين والسينمائيين البلغاريين . وربما يكون هذا هو سبب التشكك والاعتراض الذي انتهى بتدخل أوفيليا أخيرا فوافقوا على أن أنتقل بعد اجراء اتصالات عديدة ، وليتهم ما وافقوا ، فقد كان الفندق الآخر جنة قياسيا إلى هذا الذي انتقلت إليه!

في المهرجان

كانت الأفلام تعرض في مسرح كبير داخل المجمع الثقافي القريب من الفندق ، ولم يكن المسرح مجهزا أصلا للعرض السينمائي ، ولذلك كانوا يقومون بتجهيزه بشاشة عريضة ضخمة وأجهزة عرض في كابينة علوية فوق مقاعد الطابق العلوي من المسرح . وكانت الترجمة تتم - لصدمتي الشديدة- من خلال مترجمين فوريين يترجمون عبر مكبر للصوت ، بشكل مباشر أي دون سماعات ترجمة توضع في الأذن ، وهي أغرب طريقة وجدتها طوال جولتي على مهرجانات العالم . وفيما بعد عندما شاهدت ما يعرضه التليفزيون البلغاري من أفلام أجنبية ، بعضها أمريكي من تلك التي رضيت عنها الرقابة ، كانت الترجمة تتم أيضا فوق شريط الصوت الأصلي ، لذلك كان هناك مستويان للحوار : صوت الممثلين ، وصوت المترجم أو المترجمين الذين كانوا يقومون بمحاكاة الأداء!

أما أفلام المهرجان ، فكان منها ما هو جيد ، والباقي عبارة عن أفلام بسيطة تروي معظمها قصصا إنسانية عن المآسي والأحداث البيئية والكوارث الطبيعية وغير ذلك ، وتصور كيف يتعامل معها الإنسان . ويتعين القول إنها لم تكن أفلاما دعائية لنشاط منظمة الصليب الأحمر فقد كان منها على سبيل المثال ، فيلم أمريكي حقق نجاحا كبيرا وحصلت بطلته الممثلة مارلي ماتلين على جائزة الأوسكار كأحسن ممثلة (١٩٨٧) وهو فيلم «أطفال الإله الصغير» وقد قامت فيه مارلي بدور فتاة صماء تقع في حب أستاذها المشرف على تعليم الصم لغة الحديث بالإشارة . والغريب أنه كان الدور الأول لهذه الممثلة التي لم تكن تجاوزت ٢١ عاما عند قيامها بالدور . وقام محمد صبحي فيما

بعد باقتباس هذا الفيلم في عمل مسرحي بعنوان «انتهى الدرس ياغبي» قدمه في مصر ولقي نجاحا كبيرا .

التقيت في المهرجان بالكاتب المسرحي وكاتب السيناريو البريطاني جيم ألن وكان يساريا معروفا ، وقد بدأ حياته أصلا كعامل مناجم ، ثم اتجه للكتابة ، وقد تعاون مع المخرج كن لوتش بعد أن كتب في تلك الفترة مسرحية «الهلاك» التي تكشف أكاذيب الدعاية الصهيونية وكيف تعاون زعماء الصهيونية مع النازيين وارتضوا بإرسال أعداد من اقرانهم إلى معسكرات الاعتقال الجماعي النازية مقابل اطلاق سراح مئات الشباب الاقوياء وكبار الأثرياء وتركهم يذهبون إلى فلسطين خلال الحرب العالمية الثانية . وقد اثارت هذه المسرحية ضجة كبرى ومنعت من العرض في بريطانيا .

التقيت أيضا برجل إيراني كان يعيش في باريس ، وعرفت أنه من المنتمين لصفوف المعارضين لنظام الخميني وقد فر في أعقاب الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩ مع كثير من الإيرانيين الذين فضلوا العيش في «المنفى» هربا من تجاوزات نظام الخميني وتصفياته الوحشية لمعارضيه ، ولكن الرجل كان يتصرف كما لو كان ينتمي لأسرة شاه إيران ، وكانت تبدو عليه علامات الثراء ، وكان يستعرض أمام الجميع قدرته على مغازلة النساء ، وقد ذكر لي إنه دائم التردد على فارنا لقضاء العطلة الصيفية ، والاستجمام في منتجاتها . ولكن ماذا كان يعمل بالضبط؟ وما علاقته بالسينما؟ كان كل ما أخبرني به أنه صاحب شركة للإنتاج السينمائي في باريس .

رأيتها تأتي من بعيد تتهادى ، طويلة ممشوقة ، ترتسم على وجهها ابتسامة جميلة ، وكانت تلتفت يمينا ويسارا ، تلقي التحية على الجميع ، والجميع يعرفونها . جاذبيتها كانت واضحة من طريقة مشيتها والتفاتاتها وابتسامتها وأيضا من طريقتها في اختيار الملابس التي ترتديها . لم تكن تشبه البلغاريات فهي شقراء ذات عينين زرقاويتين ، وساقين طويلتين . لفتت نظري لبرهة ثم اختفت كما ظهرت فجأة دون أن أعرف من هي ، وماذا تعمل في المهرجان ، وهل هي ممثلة أم صحفية . وعندما ذهبت إلى الفندق بعد الظهر رأيتها فجأة أمامي . كانت تبحث عن تليفون تجري منه اتصالا . خاطبتها بالإنجليزية : هالو . . . من أنت؟ ضحكت وارتبكت ، ثم سألتني ما إذا كنت أتكلم الألمانية . كانت تجيد خمس لغات ليس من بينهم الإنجليزية ، لكننا استطعنا أن نتفاهم ، فعرفت أنها مترجمة تقوم بأعمال الترجمة الفورية في المهرجان من الألمانية والروسية إلى البلغارية ، وبالعكس . امتدحت جمالها واتفقنا على أن نلتقي في أحد الأفلام في المساء . وعندما تقابلنا وجلسنا نشاهد الفيلم لم نكن على ما يبدو نتابع الفيلم باهتمام فقد كان من تلك الأفلام المملة ، وهمست في أذنها : دعينا نخرج من هنا لنذهب نتناول مشروبا ونتبادل الحديث . استجابت على الفور مما أدهشني . لم تحاول أن تلعب معي دور المرأة التي تشعر بأنها مرغوبة وبالتالي تمارس نوعا من الدلال والتمنع كما تفعل النساء في الشرق مثلا ، بل كانت بسيطة وعملية ، لكني سأكتشف فيما بعد كيف أنها كانت أيضا قمة في الرومانسية والرقة والحساسية .

فوجئت عندما علمت أنها تقيم في فندق «الشاطئ الذهبي»

الذي ألححت ورجوت أن أتركه ، واستغربت هي أنني غادرته ، فالمكان مقصد للسياح والراغبين في المتعة والاستمتاع ، فكيف أغادره إلى فندق في وسط المدينة الكئيب خاصة مع تجمع آلاف من طيور النورس في الصباح الباكر فوق شرفاته مما يجعلني أعجز عن النوم ، ويرغمني على الاستيقاظ مبكرا وهو أمر كنت ومازلت أمقته .

نشأت علاقة عجيبة بيننا . التقينا مرات عدة بعد ذلك . كانت شجاعتها في الإقدام على الحديث بالإنجليزية التي قالت إنها لم تدرسها ، تدهشني ، لكنها أوضحت فقالت إن الانجليزية فرع من فروع اللغة الأم ، أي الألمانية ، وهي قد درست الألمانية دراسة شاملة . كانت بلغارية تقيم في صوفيا العاصمة ، وتعمل مترجمة محترفة تشارك بالترجمة في مؤتمرات دولية وتسافر خارج البلاد كثيرا مع الوفود الرسمية سواء من وزارة الخارجية أو غيرها ، وكانت بلغاريا تتمتع بعلاقة خاصة مع ألمانيا الغربية وقتها ، وكانت تستورد منها الكثير من الأجهزة والسلع التكنولوجية .

نصحتني «جالينا»- وكان هذا هو اسمها- بالذهاب إلى الحديقة العامة الكبيرة المحاذية للبحر لكي استبدل العملة . وكنت أخشى القيام بهذه العملية التي تدخل في نطاق التعامل في السوق السوداء . لكني ذهبت وتجرأت وعلى الفور قابلني شاب عرض علي استبدال عملة ، فوافقت وأخرجت ما معي وأعطيته له فمنحني ما يعادل ثلاثة أمثال السعر الرسمي للعملة البلغارية . أحسست أنني صرت من كبار الأثرياء ، وأن من الممكن الآن أن أدعو جالينا على عشاء فخم في المطعم الذي يقع عليه اختيارها . وقد كان ، واستمتعنا وتحدثنا في أمور كثيرة . رويت لي أنها تنتمي لأسرة مسيحية أرثوذوكسية تتمسك حتى

الآن بالذهاب إلى الكنيسة ، وتحدثت كثيرا ، وبأسى بالغ عن والدها ، الذي كان ضابطا كبيرا في الحرس الملكي ، أي أنها تنتمي لأسرة أرستقراطية كانت مرتبطة أو محسوبة على الملك السابق الذي أطاحت بعرشه «الثورة» الاشتراكية التي نظمتها موسكو بالتعاون مع الرفاق المحليين عام ١٩٤٩ ، وقد هاجم مجموعة من هؤلاء الثوار المعسكر الملكي الذي كان يوجد فيه والدها ، فتصدى لهم وكان هذا طبيعيا بحكم وظيفته ومسؤوليته ، وأطلق الرصاص في الهواء لتفرقتهم ، وربما يكون قد قتل أحدهم خطأ ، ونتيجة لذلك الموقف قبض عليه وحوكم وصدر الحكم عليه بالسجن المؤبد ، وظل في السجن يعاني من تكالب الأمراض عليه إلى أن وافته المنية .

كانت جالينا فخورة كثيرا بوالدها ، وبوالدتها التي تحملت الكثير من المشاق بعد سجن والدها ، وظلت وفية له وقامت بتربية جالينا وشقيقها الذي أصبح طبيبا يعمل جراحا للعظام . وكانت تكن كراهية شديدة للروس الذين تعتبرهم يحتلون بلدها بشكل ما ، كما كانت تمقت الديكتاتور البلغاري تيودور جيفكوف زعيم الحزب الشيوعي ورئيس الدولة الذي تولى الحكم في ١٩٧١ وظل فيه إلى أن أطيح به عام ١٩٨٩ في إطار حركة التغيير التي سعت لتجنب ما وقع في بولندا والمانيا الشرقية من انهيار للنظام ، لكنها لم تفلح . وكان جيفكوف يحكم البلاد بالقبضة الحديدية ، ويرفض أي محاولة للإصلاح .

كانت جالينا تسرد علي الكثير من الأشياء ولم تكن تخشى العيون والآذان ، ولكني شخصيا بدأت أتحسب لما يمكن أن يحدث ، فقد كنت في نهاية الأمر داخل الستار الحديدي ، قادم من معقل الإمبريالية القديمة . ومما زاد من شكوكي أنني منذ ما بعد عودتي إلى

الفندق وفي الأيام التالية ، أخذت أتلقى اتصالات هاتفية غامضة في غرفتي ، وكلما رفعت سماعة الهاتف لم يكن أحد يجيب على الطرف الآخر . كان من الواضح أنها مضايقات متعمدة من طرف جهة ما أو شخص ما لا يرتاح لوجودي . وعندما شعرت ببعض الاضطراب والقلق والضيق ذهبت إلى الفندق القريب الذي كان يقيم فيه المخرج والناقد السوري صلاح ذهني ، وكانت تربطنا صداقة ، ورويت له ما يحدث وطلبت رأيه باعتباره أحد الذين كانوا يداومون على حضور المهرجانات السينمائية التي كانت تقام في بلدان الكتلة الشرقية ، فأكد لي أن هذه الأمور تحدث بالطبع ، وأن الأجانب مراقبون بشكل روتيني ، لكنه استبعد أن يترتب على ذلك أي شيء . بل قلل من شأن تلك الاتصالات الغامضة .

كنت مخطئا كما كان صلاح ذهني مخطئا ، فلم تكن المخابرات البلغارية تعيرني أدنى اهتمام ، فأنا شخصية مكشوفة ، وكان معروفا منذ سنوات اهتمامي الكبير بالسينما لا بالعمل السياسي . وكنت قد حصلت على دعوة رسمية وتأشيرة دخول رسمية ولم يكن هناك بالطبع ما يدعو إلى الشك أو التشكك فيما أقوم به ، أو أنهم كانوا غاضبون من مجالستي ومخالطتي امرأة من «بنات البلاد» ، فلسنا هنا في الجزائر لكي يطفو شعور كهذا الذي كان يحدث في الجزائر ، فأثناء إقامتي هناك في بداية الثمانينات كنت أسمع الكثير من القصص عن «الأجانب» الذين تعرضوا للسجن والأذى بسبب إقامتهم علاقات عاطفية حميمية مع فتيات محليات .

كنا في غمرة اندماجنا- جالينا وأنا- في تبادل الأحاديث والذكريات ، قد نسينا أمر أوفيليا التي كانت على ما يبدو ، تراقب ما يحدث عن كثب . وسوف ينكشف الأمر برمته ذات ليلة عندما تدعوني أوفيليا مع صديقتها ناديا للسهر في مرقص من مراقص مدينة فارنا الجميلة ، التي لولا كآبة النظام البوليسي لكانت شيئا آخر . وقد رحبت بالدعوة ، وإن كنت قد توجست . وذهبت فوجدت نفسي داخل ما يشبه أحد الملاهي الليلية ، ولكن بدون الأجواء المفرطة في الفحش الموجودة في مدن وعواصم الغرب . كانت هناك فتيات ترقصن إما وحدهن أو مع بعض الشباب . وكانت اضاءة المكان ضئيلة ، وصوت الأغاني والموسيقى الصادرة عن أجهزة التسجيل والتي تصلنا عبر مكبرات الصوت ، مرتفعة لدرجة أننا لم نكن نسمع بعضنا البعض بسهولة ، وكنت أصرخ جاهدا لتوصيل ما أقوله إلى أوفيليا بالذات التي تولت المحادثة أو بالأحرى ، ترجمة المحادثة التي اتخذت شكل حوار بالشيفرة بيني وبين الفتاة اللئيمة ناديا .

كانت ناديا تخلط الجد بالمزاح بالتهكم ، وكانت تلمح من طرف خفي إلى «جالينا» دون أن تذكر اسمها بالطبع . كان هناك شعور مضحك بـ«الخيانة» لدى أوفيليا . ولكن مجمل القول أنني أدركت من خلال التساؤلات الخبيثة والتلميحات التي تتميز بها أحيانا أحاديث النساء ، أن كلا من أوفيليا وناديا كانتا وراء تلك الاتصالات الهاتفية المزعجة الغامضة ، وعند هذا الحد انتفضت واقفا وصحت في أوفيليا بغضب إنها فتاة سيئة خبيثة ، وأن صديقتها شريرة ، وأنني أعرف أنهما وراء تلك المضايقات ، وأنهيت كلامي بأن لا شئ يربطني بهما

أصلا ، وأن من الأفضل أن يتجنباني تماما وإلا أخبرت السلطات بما يفعلانه . تسمرت أوفيليا الضعيفة البنية في مقعدها ، وشحب وجهها بشدة ، وأخذت تردد في تلعثم واضطراب كلمات الاعتذار والأسف ، مبرئة نفسها مما حدث ، أما ناديا فبدا أنها لم تدرك تماما مغزى ما قلته .

لم أكن أتخيل أن كلماتي البسيطة المباشرة ستترك كل هذا التأثير على أوفيليا ، تلك الموظفة الرسمية الحزبية البيوريتانية المتزمتة . لكن هكذا كانت الأجواء في ذلك الوقت . المهم أن الأيام مرت سريعا ، كانت فارنا تعيش أجواء مهرجانية جعلتها تتحرر ولو قليلا من التزمت العام الذي كان يكسو مجتمع بلغاريا في ظل حكم رجل يجثم فوق صدر المجتمع من خلال آلة حزبية عقائدية متزمتة ، فلا الرجل كان يريد أن يرحل ويترك لغيره فرصة للتغيير ، ولا الحزب كان يستطيع أن يغير من أفكاره ويتطور مع تطور العصر ، دون أن يغضب موسكو التي أدت سياستها الجامدة في نهاية المطاف ، إلى تفكك الامبراطورية السوفيتية .

كان يتعين علي أن أركب الطائرة الصغيرة مجددا لأعود إلى صوفيا ، وكانت جالينا تعتزم العودة في نفس اليوم على نفس الرحلة . كانت مصادفة طبيعية . اتفقنا على اللقاء في المطار ، وقد أتوا الي بسيارة وسائق مجنون تأخر كثيرا حتى لم يتبق على موعد الإقلاع سوى نصف ساعة فأخذ يقود السيارة بسرعة جنونية ، إلى أن وصلنا . وعند مدخل المطار المحلي الصغير كانت أوفيليا تقف متجهمة ، تطلعت إلي دون أن تنبس بكلمة واحدة . وعندما دلفت إلى الطائرة وجدتها جالسة في الصف الأمامي ، وقد مررت مع جالينا لنجلس في الصف

الأخير لحسن الحظ . وعندما وصلت إلى مطار صوفيا وجدت في انتظاري مرافق اصطحبني وأخذ يسألني عن موعد طائرة العودة إلى لندن فأخبرته بأنها ليست اليوم ، بل بعد يومين من الآن ، وبدا أنه فوجئ بذلك . وكنت أعرف ذلك من البداية ، وأردت أن أنتهز الفرصة لأقضي يومين في العاصمة لأتفقد هذه المدينة التي لا أعرفها ولم تكن لدي أدنى فكرة عن طبيعة الحياة فيها . احتار الرجل في أمري . لم تكن هناك رحلات يومية بين لندن وصوفيا بل كانت الطائرة تطير مرة اسبوعيا . ولذلك كان يتعين علي أن أقضي يومين وليلتين في صوفيا قبل أن يحل موعد رحلة العودة على الخطوط البلغارية .

كنت مندهشا بدوري من تخبط البيروقراطية وغبائها ، فقد كان المهرجان (الرسمي) هو الذي حجز لي تذكرة السفر ، وكانوا بالتالي يعرفون جيدا موعد العودة أي بعد يومين من انتهاء المهرجان . فعلام الدهشة والاضطراب والارتباك إذن؟

الاختبار الغامض

تركتني جالينا في المطار بصحبة هذا الرجل بعد أن أكدت ضرورة أن أتصل بها تليفونيا لكي نلتقي فيما بعد ، لتصحبني في جولة بالمدينة . تخلت عني أوفيليا تماما ولم تودعني بكلمة . عرضت على المرافق المتوجس أن يأخذني إلى فندق مناسب على أن أتحمل النفقات . لكنه رفض باصرار غريب ، فقد كانت التعليمات بأنه لا يجب أن يتركني . وبعد أن أجرى بعض الاتصالات ، أخذني في سيارة دون أن تصدر عنه أي كلمة . ونزلت بنا السيارة الى العاصمة صوفيا التي كنت أتطلع إليها مرتابا- للمرة الأولى . ووصلنا إلى فندق

كبير في وسط المدينة أعتقد أن اسمه كان فندق صوفيا ، وكان مخصصا للزوار الرسميين ، وكان مبناه كئيبا يعكس طابع العمارة الستالينية ، وتشي ديكوراته الداخلية بالغموض والأسرار الكامنة وراء أبواب الغرف . لا أعرف ما إذا كان هذا الفندق لايزال قائما حتى اليوم ، أم أدخلت عليه تعديلات في البناء والتصميم ، لكن ما أتذكره جيدا أنه كان يقع في مكان ممتاز في وسط المدينة ، وكان له مطعم ومقهى مفتوح على الشارع ، وكان ملتصقا به مباشرة محل من تلك التي يسمح بالشراء منها بالعملات الصعبة أو ببطاقات الدفع الفوري المصرفية (محلات الأسواق الحرة) ، وكان معروضا بالمحل سلع لم تكن بالطبع متوفرة في الأسواق العادية لسكان المدينة . وكنت أشاهد الفتيات المراهقات بوجه خاص ، يتوقفن أمام واجهة المحل الزجاجية ويتطلعن في شهوة ، إلى سراويل الجينز وبعض القمصان المطرزة العصرية القادمة من الطرف الامبريالي!

ما حدث هو أنني أصبحت «نزيلا» في هذا الفندق ، وقيل لي إن مرافقة مترجمة ستتصل بي لكي تصحبني لتناول طعام الغذاء . ولم أشعر بالارتياح لهذا النوع من «الاعتقال» غير الرسمي . لكنني استجبت على أي حال ، وجلست أتناول الطعام مع هذه المرأة الشمطاء الرمادية البدينة . لم نتبادل الكثير من الحديث ، وعندما سألتني ماذا أريد أن أفعل بعد الغذاء ، قلت إنني سأتجول قليلا في محيط المنطقة ثم آوي إلى غرفتي لكي أكتب ، وقد تقبلت هي مبرراتي المكشوفة التي كانت تهدف للتخلص من صحبتها بكل سرور ، فقد أصبح بوسعها أن تفلت من تلك المهمة الثقيلة وتذهب إلى بيتها مبكرا . هنا لابد أن أقول أنه في كل الزيارات «الرسمية» التي قمت بها ، كانت

المراهنة على هشاشة البيروقراطية ، تنقذني دائما من الوقوع في الكثير من المواقف السخيفة .

اتصلت بجالينا وأخبرتها بمكاني وكان الفندق معروفا فطلبت مني أن أنتظرها بجوار محل السوق الحرة . والتقينا . وقمنا بجولة في المدينة . ولاحظت كيف أن المباني التاريخية القديمة التي صمدت للحرب العالمية الثانية ، مهملة تماما ، وقد اصطبغت باللون الأسود من تراكم الغبار والأتربة على واجهاتها . كانت الشوارع نظيفة بوجه عام ، والحدائق منسقة ، ولم أشهد ازدحاما ، فعدد سكان بلغاريا كان وأعتقد انه لايزال ، لا يتجاوز تسعة ملايين نسمة ، ونسبة الزيادة مثل نسبة الوفيات وبالتالي لا زيادة كارثية للسكان كما هو الحال في بلادنا العظيمة التي تريد أن تغزو العالم بهذا المعدل المخيف من التكاثر المذهل الذي يأتي بانتظام على الأخضر واليابس . وقد كنت في الماضي من أنصار أن القوة السكانية يمكن أن تكون ذات فائدة كبرى للأمم والشعوب إلى أن أصبحت على قناعة تامة أنها في حالة البلدان التي لا تملك أي خطط حقيقية لاستيعاب تلك الزيادة السنوية الهائلة ولا يمكنها توظيفها بسبب انتشار الفساد وغياب المحاسبة ، تعد وبالا حقيقيا بل كارثة أقوى من الكوارث الطبيعية التي تحيق بالكثير من الأماكن في العالم ، وتنتج بالطبع ، تأثيرات عكسية ، أي تؤدي إلى خفض عدد السكان!

كان يمكن لشخص مثلي ، قادم من لندن أن يدرك على الفور ، الفرق الكبير بين عواصم الغرب المفتوحة ، وبين عواصم أوروبا الشرقية التي كانت مغلقة تقبع وراء الستار الحديدي- حسب التعبير الذي أطلقه تشرشل . تعج مدن وعواصم الغرب بالكثير جدا من أبناء

الأجناس والجنسيات الأخرى ، ويمكنك أن تسمع وأنت تسير في شوارعها ، خاصة المناطق المزدحمة بالحركة والتسوق ، أناسا يتحدثون بعشرات اللغات المختلفة ، يرتدون أزياء مختلفة ، تختلف أشكالهم وسحنهم وطريقتهم في الحديث ، وفي التطلع أو عدم التطلع إلى الآخرين . أما في مدينة مثل صوفيا فكان يندر وقتها أن ترى شخصيا أجنبيا ، إلا أن يكون من المبعوثين العرب مثلا لدراسة أمور تتعلق بالزراعة الحديثة ، أو بعض الصناعات ، وكانت بلغاريا تقدم مساعدات علمية على شكل بعثات من هذا النوع لإخواننا العرب في ليبيا والجزائر والعراق واليمن الجنوبي . أما الغربيون ، وخاصة الأمريكيون منهم ، فلم يكن لهم أثر باستثناء أعضاء البعثات الدبلوماسية .

أتيحت لي الفرصة لتكوين فكرة جيدة عن إيقاع المدينة ، لكنني لم أتمكن من القبض بعد على ما أسميه «مفتاح المدينة» ، فلكل مدينة من مدن العالم مفتاحها الذي بدونه لن تتمكن من فهمها أو الاستمتاع بها . ولكن الشرط الأول للعثور على هذا المفتاح أن تقبل بحب على الناس ، تترك نفسك وسطهم كواحد منهم ولا تنعزل عنهم أو تنظر إليهم نظرات متشككة مستريبة مهما واجهت من تحديات أو استفزازات لا يخلو الأمر منها أحيانا . سلاحك الوحيد امام أي استفزاز هو الهدوء والثقة والابتسامة الراسخة . أما السخرية أو المداعبة المرحة التلقائية ، فقد تنقلب ضدك وتصبح وبالا عليك ، خاصة إذا لم تكن تجيد اللغة ، لغة الآخر الذي تداعبه بالكلمات ، فسوف يسئ قصدك وبالتالي سينزل اللعنات- وغيرها- عليك!

كانت جالينا تقطن في حي من تلك الأحياء الجديدة التي شيدت حديثا لبيع شققها ومساكنها إلى أبناء الطبقة الوسطى من العاملين الذين تمكنوا من ادخار مبلغ ما من المال يمكنهم دفعه كدفعة مقدمة ثم بعد ذلك ، دفع أقساط شهرية بدلا من دفع الإيجارات . وكان هذا النهج جديدا على دولة (اشتراكية) يفترض أن الدولة تلتزم فيها بتدبير مساكن ملائمة للناس تؤجرها لهم . وكان الواضح أن سياسة الكفالة الشاملة قد فشلت بعد أن أصبحت الدولة في حاجة إلى إحداث تراكم مالي لم تكن تستطيع تدبيره إلا بتبني سياسة البيع أي التمليك المحدود . وقد غامرت جالينا ودعتني إلى شقتها الصغيرة . أما سر «المغامرة» فهي أن القوانين التي فرضتها السلطات تفرض على كل شخص من الشعب البلغاري الإبلاغ المسبق عن كل ضيف سيدخل منزله ، وإذا كان هذا الضيف سيقضي مثلا يوما أو يومين أو أكثر ، يتعين على المواطن البلغاري الحصول على تصريح مسبق من السلطات ، بعد تقديم معلومات ووثائق تتعلق بأصل وفصل الضيف القادم . وقالت لي جالينا أيضا إن هناك في كل بناية سكنية شخص مكلف من قبل السلطات بمراقبة نشاط سكان البناية ، والإبلاغ عمن يشك في قيامه بأي عمل من شأنه الإضرار بمصالح الدولة أو استضافة الغرباء القادمين من الخارج .

صدمتني هذه المعلومات التي تتناقض تماما مع فكرة «تحرير الإنسان» من الاستلاب الرأسمالي التي كانت تروج لها الفلسفة الاشتراكية ، وكان الكثير من أصدقائي يرون أن الاشتراكية على الطريقة الستالينية التي كانت مطبقة في أوروبا الشرقية ، لا علاقة لها

بالاشتراكية الحقيقية ، بل ربما تكون أقرب إلى الفاشية .

كانت الأسعار بشكل عام رخيصة ، فكان سعر تذكرة الباص مثلا ١٠ ستوتنكي ، أي عشرة مليمات ، وكان معظم الركاب لا يشترون تذاكر أصلا كما رأيت بنفسي ، وكانت المواصلات متوفرة ، وأسعار المواد الغذائية زهيدة . ورغم ذلك عندما أتيحت لي الفرصة لزيارة أكثر من «سوبرماركت» أو بالأحرى المجمعات الاستهلاكية التي أقامتها الحكومة ، خلال زيارتي التالية إلى بلغاريا ، كنت أرى الناس يقفون في صفوف طويلة أمام بائعة تقطع لهم بعض قطع السلامي أو السجق ، بحرص وبكمية محدودة للغاية . أما الفودكا فكانت على العكس متوفرة ، وكان منها أكثر من نوع : فكانت هناك الفودكا الوردية والفودكا البيضاء . ولكن السلطات كانت أيضا تتحكم في نسبة الحكول فيها حتى لا يندفع البلغاريون ، وهم من المدمنين- مثل الروس- على الشراب- فلا يستيقظون مبكرا صبيحة اليوم التالي للذهاب إلى أعمالهم .

أتيحت الفرصة للذهاب مع جالينا أكثر من مرة فيما بعد ، أي خلال الزيارة التالية التي قمت بها خصيصا حيث قضيت أسبوعا أو أكثر ، لأن أذهب إلى أكثر من مطعم من مطاعم المدينة ، وكان أفضلها بالطبع المطعم الكوري ذي التصميم البديع من الداخل ، وكان يقع في مبنى يشبه القصور القديمة أو المتاحف الصغيرة . والمؤكد أنه كان تابعا لسفارة كوريا الشمالية ، وكنت أتوجس كثيرا وأنا أتطلع إلى قائمة الطعام ، فقد شاهدت من قبل كيف كان الكوريون يتناولون حساء لحم الكلاب . . وكانت كوريا الشمالية - ومازالت بالطبع- تنفق الكثير على برنامج التسلح النووي- لكن شعبها كان يعاني من قلة المواد

الغذائية بدرجة فاضحة ، وفي فترة من الفترات انتشرت فيها المجاعات ، وأمدتها غريمتها التقليدية ، كوريا الجنوبية ، بالمساعدات الغذائية .

داخل سجن الصليب الأحمر

انتهت جولتي مع جالينا واتفقنا على أن نلتقي في اليوم التالي ، وعدت إلى الفندق ونمت نوما قلقا مضطربا مليئا بالكوابيس والخيالات الغريبة ، واستيقظت في الصباح على صوت جرس الهاتف . وعلى الطرف الآخر كانت هناك المترجمة المرافقة التي طلبت مني سرعة الهبوط لتناول الإفطار معها في مطعم الفندق . كان هذا تكليفا حزبيا على ما يبدو . وقد فاجأتني أثناء تناول الطعام بأنه يتعين علي مغادرة هذا الفندق على الفور ، وانهم سينقلونني إلى مكان آخر . وقد كان ، وأخليت طرفي من الفندق وودعت المرافقة المترجمة ، أو ربما كان من الأفضل أن أطلق عليها «الرفيقة المترجمة» ، وحملت حقيبتي وركبت سيارة مع مرافق وسائق ، المرافق لم ينطق بحرف وظل متجهما طول الوقت ، وانطلقت بنا السيارة في طريق سريع إلى مكان غريب . . إلى أن توقفت أمام مبنى يقع في حي هادئ يبدو احد الأحياء التي تضم عادة البنايات الحكومية الرسمية . وفي الطابق الأول أدخلوني مكتبا لأجد نفسي وجها لوجه أمام كريستوف رئيس تحرير مجلة «الفيلم البلغاري» الذي سبق أن التقيته في القاهرة .

تطلع إلي الرجل وصافحني مرحبا ثم جلست أمامه فسألني في اضطراب وقلق عن سبب تأخري في السفر عائدا إلى لندن ، فشرحت له السبب ، فأخبرني أنني ضيف على الصليب الأحمر البلغاري وانه

ليس مناسبا أن أبقى في فندق عمومي ، وأنني سأذهب الآن لأقيم حتى الغد في منزل من المنازل المخصصة لسكن أطباء الصليب الأحمر .

في يقيني حتى الآن أن هذه «المواجهة» بيني وبين هذا الرجل الذي لا أشك في صلته بالأجهزة ، كانت مدبرة وكان مقصودا منها التأكد من روايتي ومن معرفتي به كما ذكرت لهم في البداية ، وخاصة بعد أن انسحبت أوفيليا وتوارت عن الأنظار خشية وقوع مشاكل تحاسب عليها من قبل إدارة مؤسسة السينما البلغارية التي كانت تعمل بها .

حملتني السيارة مجددا ثم سارت أميالا وأميالا إلى أن أصبحت خارج العاصمة ، وكانت قد قطعت ما لا يقل عن عشرين أو ثلاثين ميلا ، ووجدت نفسي في بقعة خالية تقع على ربوة جبلية تحف بها أشجار غابة قريبة ، وعلى أحد جوانبها مبنى أبيض حديث ، له بوابة ضخمة تفتح بأرقام خاصة . وكان هذا هو تحديدا «السجن» الذي شاءوا أن يضعوني فيه لمدة ليلة واحدة ، معزولا عزلة تامة عن المدينة وعن الاختلاط بأفراد الشعب البلغاري . وأسقط في يدي بعد أن وجدت نفسي أجلس على فراش نظيف في غرفة ضيقة ، أفكر في هذا المأزق أو بالأحرى في كيفية الافلات من هذا المكان . كان الوقت لايزال مبكرا . لم تكن الساعة قد بلغت الحادية عشرة صباحا . توجهت وسألت أحد المشرفين ، أتذكر أنه كان رجلا في منتصف العمر ، جادا ، وكان طبيبا متخصصا محترفا لا يأبه كثيرا بالسياسة وسخافاتها . والأهم أنه كان يعرف بعض الانجليزية . وقد قلت له إنه ليس من الانصاف أن أبقى هنا محبوسا نهارا بأكمله ، وأنني أريد أن أنزل إلى

وسط المدينة لأتجول وأشتري بعض الأشياء . استجاب الرجل وأخبرني أن هناك سيارة إسعاف ستهبط إلى المدينة بعد قليل وأنه يمكنني أن أركبها ، لكنه حذرني من أن السيارة لن تعود ، وبالتالي يتعين علي أن أدبر بنفسي أمر عودتي بسيارة تاكسي مثلا . لم أكن أبالي بمثل هذه التفاصيل . . كان أكثر ما شغلني هو أن أهرب من هذا السجن إلى أن ينتهي النهار ، وأن أتصل بجالينا وأخبرها بما حدث وبمكاني الجديد ، وأستفسر منها عن مغزى تصرفهم هذا معي .

جلست بجوار سائق سيارة الإسعاف ، ومن جديد وجدت نفسي في الطريق إلى وسط صوفيا ، حيث هبطت وشكرت السائق بحرارة وصافحته ، ثم عثرت على أول كابينة تليفون ، تحدثت منها الى جالينا وطلبت أن نلتقي على الفور . كانت هي مندهشة لأنها اتصلت بي في غرفتي في الفندق فقالوا لها إنني غادرت . اتفقنا على أن نلتقي بالقرب من الفندق نفسه . كانت معي بعض العملات البلغارية متبقية من مغامراتي في فارنا . جلست أشرب القهوة في المقهى القريب من الفندق إلى أن لاحت جالينا متألقة في ملابسها الزاهية الواسعة من الذيل ، تتهادى في مشيتها ونظراتها تبحث عني ثم اتسعت ابتسامتها عندما لمحتني جالسا على مقعد أمام طاولة على رصيف المقهى . وبعد أن جلست رويت لها القصة المثيرة التي وقعت معي . أبدت استغرابها الشديد مما وقع . ولكنها استبعدت أن تكون زيارتي لها في المنزل هي السبب فيما حدث ، وقالت إنهم غالبا أرادوا فقط أن يتحمل الصليب الأحمر ، وهو الجهة المضيفة ، تكاليف اقامتي الزائدة لا أن يتحملها المهرجان أو مؤسسة السينما أي أن المسألة برمتها بيروقراطية . لم أصدقها ، فقد بدا أنها لا ترغب في الاسترسال في

مناقشة هذا الموضوع . وبعد أن قدمت لها وصفا تفصيليا للمكان الذين يقع فيه منزل الاستضافة ، طمأنتني بأنها تعرف المكان ، وأنه بالفعل مكان ساحر ، وأنها ستتولى توصيلي إلى هناك وأننا سنتناول طعام العشاء في مطعم فاخر يطل على البحيرة من أعلى الجبل في تلك المنطقة .

تجولنا في المدينة ولاحظت غياب أي وجود ملحوظ لرجال الشرطة في شوارع المدينة ، وأخذتني لزيارة كنيسة القديسة صوفيا التاريخية الأروثوذوكسية ، وأوضحت لي أنها واسرتها لم تتخليا عن الديانة ، وأنها نشأت وتربت عليها وانها تشعر بالسعادة كلما زارت هذه الكنيسة تحديدا . وقد رحبت بالطبع فقد كانت فرصة لزيارة هذا الصرح التاريخي والتقاط بعض الصور . كانت هذه الكنيسة ، التي بقى جزء كبير من هيكلها الخارجي بالفعل ، تحفة معمارية تاريخية غير عادية ، وهي توازي في سحرها وعراقتها مبنى البانثيون الشهير في روما ، وقد عرفت من جالينا أنها تعود الى القرن الرابع الميلادي ، تاريخ بنائها ، وأنها تعتبر أقدم مبنى في صوفيا وربما في بلغاريا كلها .

بعد هذه الجولة ، استطاعت جالينا أن تقنع أحد سائقي لتاكسي بصعوبة أن يأخذنا إلى تلك المنطقة الجبلية البعيدة خارج المدينة ، فقد كان يريد مبلغا كبيرا من المال بدعوى أنه سيعود دون زبائن . وكان في ذلك محقا . وقد ركبنا معه ، وكما نتهامس لا نريده أن يشعر بوجود شخص أجنبي غريب عن البلد . وقد وصلنا قبيل الغروب وكان المنظر من فوق الربوة ساحرا . أما العشاء الذي تناولناه في المطعم المطل على البحيرة فلم يكن من السهل نسيانه . كانت تجربة تركت فيما بعد تأثيرها وظلت طويلا في الذاكرة . بعد ذلك رجعت بصحبة جالينا إلى

استراحة الصليب الأحمر واقتضى الأمر الطرق بشدة على البوابة الضخم إلى أن انتبه أحدهم في الداخل لى صوت الطرقات ففتح الباب وحمدت الله ، فكل من الأطباء المقيمين في المسكن كان يحمل مفتاحا خاصا ولم يكن معي بالطبع مفتاح . وقد قضيت ليلة غاب فيها النوم ، وكان يتعين لي الاستيقاظ مبكرا للذهاب إلى المطار . وحضر سائق مكلف باصطحابي ، جاء كالعادة متأخرا ، وكنت قد اتفقت على أن أقابل جالينا في المطار لتوديعي ، لكنني تأخرت كثيرا في الوصول بسبب تأخر وصول السيارة . وشعرت بحزن كبير عندما وصلت إلى المطار ولم أجدها . وسأعرف منها فيما بعد خلال مكالمة تليفونية من لندن أنها بكت كثيرا وهي تنتظرني وبعد أن شعرت بالقلق الشديد على مصيري . فلم يكن طبيعيا ألا أحضر إلى المطار في الموعد المناسب قبل أن تقلع الطائرة . ولكني لحقت بالطائرة في اللحظة الأخيرة . وجاءت جلستي في الطائرة بجوار سيدة كندية كانت في زيارة لزوجها الدبلوماسي الذي كان يعمل في صوفيا . ولاحظت هي حزني وصمتي فأخذت تخفف عني كثيرا . وأخذت أقص عليها تلك المغامرة الغريبة التي خضتها ، وكيف انتهت على هذا النحو الغريب . ومن العجيب أن هذه السيدة التي تركت لها رقم تليفوني في لندن ، عادت بعد أسبوع واتصلت بي فقط لكي تطمئن علي . كان تصرفها هذا غير معتاد أو متوقع من سيدة غربية . وقد تعلمت من هذا الموقف النبيل أن أتجنب إصدار الأحكام العامة على البشر خاصة من ينتمون إلى الجانب الآخر من العالم .

استعمر الأتراك العثمانيون بلغاريا في ١٣٩٦ وظلت خاضعة للاحتلال لمدة ٥٠٠ سنة ، وكانت تعتبر جزءا أصيلا- ليس من

الامبراطورية العثمانية فقط- بل من تركيا نفسها ، تماما مثلما كانت فرنسا تعتبر الجزائر تحديدا ، جزءا لا يتجزا من أراضيها . وقام الأتراك بتدمير كل مظاهر الحياة البلغارية المميزة مثل الكنائس وأقاموا المساجد مكانها أو حولوها إلى كنائس مثلما حدث في كنيسة آية صوفيا الموجودة في اسطنبول ، والتي تحولت إلى مسجد وظلت ديكوراتها وتصميماتها المعمارية متنازعة بين الكنيسة والمسجد حتى يومنا هذا وقد حولها كما أتاتورك متحفا عموميا .

كان من المسائل الطريفة التي لاحظتها في بلغاريا أنك إذا سألت أحدهم عن شئ ما يهز رأسه يمنية ويسرة دلالة على الموافقة ، أي بمعنى نعم ، أما إذا هز رأسه إلى أسفل أو أومأ بها فهو في هذه الحالة يقصد النفي ، على العكس تماما مما هو سائد ومعروف فيما يتعلق بما نسميه «لغة الجسد» التي يتفق عليها البشر في العالم . وقد استفسرت عن سر هذه العادة الغريبة فعلمت أن الأتراك العثمانيين كانوا يهينون البلغاريين ويطالبونهم بأن يسمعوا الكلام الذي يقال لهم ويخضعوا له ، بأن يهزوا رؤوسهم بالإيجاب إلى أسفل ، وكانوا يضربونهم على مؤخرة رؤسهم أي على أقفيتهم لكي يستجيبوا . وبعد زوال الاحتلال التركي مع أفول الامبراطوية العثمانية ، اتخذ البلغاريون سلوكا معاكسا لمحو آثار الماضي البغيض ، فأصبحوا يستخدمون لغة الإشارة الجسدية ولكن بطريقة عكسية!

إلى بلوفديف

عندما عدت إلى بلغاريا فيما بعد في زيارة خاصة ، كان هدفي الأساسي زيارة مدينة «بلوفديف» التي لا يعرف عنها العرب والمسلمون

الكثير رغم أنها مدينة تاريخية شديدة السحر والجمال ، يمتد تاريخها إلى ما قبل الميلاد بقرون عدة . لكن المدينة كانت عندما قمت بزيارتها تكتسي بطابع مدن القرون الوسطى ، فهي مليئة بقصور التجار الأتراك من الأثرياء ، التي تشبه كثيرا قصور السلاطين ، ومازال فيها الكثير من الآثار الباقية من العصر الروماني واليوناني : ساحات البيع والشراء والإعلان عن الأفكار وقراءة قصائد الشعر التي تسمى باليونانية القديمة (أجورا) ، والمسارح الرومانية التي تتميز بمدرجاتها الحجرية ، وفضاءاتها المفتوحة . وتعتبر المدينة القديمة تحفة معمارية من الطراز الرفيع وكنزا من كنوز الإبداع الإنساني . وقد استمتعت كثيرا بالتجوال في الشوارع المرصوفة بالأحجار ، كنت فقط أشعر بالارهاق بسبب وجود الكثير من المرتفعات فشوارع المدينة القديمة ليست مستوية بل متعرجة وتمر عبر تلال ومرتفعات ثم تهبط مجددا .

كثير من مطاعم بلوفديف توجد أيضا في منازل التجار العثمانيين الأثرياء الذين كانوا في الماضي يتصرفون كملوك غير متوجين ، ولكن في الفترة التي زرت فيها المدينة كانت معظم هذه المطاعم وهي تتميز بالفخامة قياسيا إلى ما كان سائدا في البلدان الاشتراكية في أوروبا الشرقية وقتها ، لا تقدم من اللحوم سوى لحم الخنزير الذي لا أطيقه ولا أطيق رائحته ولا شكله . وربما كان هذا الأكثر توفرا كونه رخيصا ويمكن تربيته وضمان تكاثره بغزارة دون تكاليف كبيرة على العكس من الأبقار . لكن على أي حال فالأسلم عادة أن يكتفي المرء بالخضراوات والبقول وما إلى ذلك .

سكان المدينة كانوا دائما خليطا من البلغاريين واليونانيين واليهود والأرمن والأتراك والغجر . واليوم وقعت الكثير من الأحداث بل إنني

عاصرت أثناء زيارتي الحملة الهائلة الصاخبة التي أثارت الرأي العام في أوروبا وقتها ، وهي الحملة التي قادها نظام تيودور جيفكوف الديكتاتوري لترحيل نحو مليون شخص من السكان من أصل تركي ، وذلك عملا بمنطق «الانتقام التاريخي» . والغريب أنني تناقشت مع كثير من البلغاريين ووجدتهم ضد هذه الفكرة تماما . وغالبا كان رد فعلهم هذا يأتي في سياق معاداتهم للنظام السياسي الحاكم الذي كان يمارس القمع ضد الجميع . وكانت السلطات البلغارية قد ألقت بعشرات الآلاف من المواطنين ذوي الأصول التركية على الحدود وأمرت بترحيلهم رغما عنهم ، إلى تركيا ، بعد أن خيرتهم- كما سمعت ضرورة- بين تغيير أسمائهم إلى أسماء بلغارية والتخلي عن ديانتهم أو القائهم خارج الحدود . وكانت الأزمة قد بلغت ذروتها في تلك الفترة بين بلغاريا وتركيا لهذا السبب . ومما علمته أيضا أن السلطات البلغارية تحظر بناء المساجد بسبب ذلك الماضي الاستعماري البغيض . وقد قرأت بل وشاهدت أفلاما ، كانت تتناول الموضوع من الزاوية الأخرى أي خلال سيطرة الأتراك العثمانيين على البلاد ، وكيف كانوا يفرضون على السكان خاصة في بلوفديف ، تغيير ديانتهم واعتناق الإسلام واتخاذ أسماء تركية . وهي مشكلة مازالت على ما أعتقد قائمة تلقي بظلالها على كثير من المناطق في منطقة البلقان .

٦
التجربة الإيرانية الأولى

في يوليو ٢٠٠٢ كنت أشارك في لجنة تحكيم أسبوع النقاد في مهرجان لوكارنو السينمائي الدولي في سويسرا عندما تلقيت دعوة للمشاركة في لجنة تحكيم «مهرجان طهران الدولي للأفلام القصيرة» الذي كان سينعقد في الفترة من ٢١ إلى ٢٦ أكتوبر . وقد طلبت مني المشرفة على الاتصالات الخارجية في المهرجان ، شيرين ناديري ، عبر البريد الألكتروني ، البيانات الخاصة بي مع صورة فوتوغرافية وبيانات جواز السفر الذي سأحضر به .

كنت في ذلك الوقت مقيما في القاهرة منذ أواخر ٢٠٠٠ ، وقد سألت ووجدت أن السفر إلى إيران بجواز السفر المصري أفضل من الجواز البريطاني ، لا أعرف لماذا ولكن ربما لأن العلاقات الايرانية البريطانية أو العلاقات بين ايران والغرب عموما لم تكن على ما يرام ، وهي لاتزال كذلك حتى يومنا هذا .

وبعد عودتي إلى القاهرة كان يتعين علي أن أتقدم إلى السفارة الإيرانية بطلب للحصول على تأشيرة لدخول الأراضي الإيرانية . واقتضى الأمر أسبوعا أجروا فيه اتصالاتهم بطهران إلى أن اطمئنوا إلى أنني ضمن المدعوين لعضوية لجنة تحكيم المهرجان في دورته السابعة فمنحوني التأشيرة لكنهم حصلوا المقابل المالي المحدد ، أي لم يمنحوها

لي بالمجان كما تفعل سفارات دول أخرى في حالة وجود دعوة رسمية .

لم يكن قد سبق لي السفر إلى إيران ، وكانت إيران بالنسبة لي لغزا كبيرا ، وكانت التجربة الإيرانية كلها في العمل السياسي مثيرة للكثير من الإحباطات . أما السينما الإيرانية فكانت قد أصبحت لعقد من الزمان ، «تفاحة» المهرجانات السينمائية في الغرب بل وفي العالم الثالث أيضا .

الطيران إلى إيران لم يكن مباشرا ، بسبب عدم وجود علاقات من أي نوع بين مصر وإيران منذ أن قطعت هذه العلاقات بعد زيارة الرئيس السادات إلى القدس ثم توقيع اتفاقية كامب ديفيد . لذلك كان يتعين علي أن أسافر إلى طهران عن طريق دبي ، ومن هناك أركب طائرة أخرى تنقلني إلى طهران ، وهي رحلة قصيرة للغاية .

في الطائرة من القاهرة إلى دبي كان هناك عدد من الإماراتيين واضح أنهم من رجال الأعمال . وكانت الطائرة التابعة لطيران الإمارات ، قد تأخرت عن موعد إقلاعها كثيرا وعندما هبطت أرض مطار دبي لم يكن قد بقى على موعد إقلاع طائرتي الأخرى من دبي إلى طهران أكثر من ٢٠ دقيقة ، لذلك فقد هرولت بمجرد أن استقرت الطائرة على أرض المطار ، محاولا تجاوز الركاب الواقفين الذين يستعدون لمغادرة الطائرة ، لكي أجري من اجل اللحاق بطائرتي .

لفت سلوكي هذا أنظار بعض الركاب الإماراتيين ، فسألني أحدهم بدهشة : أين تذهب؟ فقلت ضاحكا : إلى طهران .

ازدادت دهشة الرجل فسألني : تقصد انك ذاهب إلى طهران؟ فعقبت قائلا : نعم والطائرة لم يبق على إقلاعها سوى دقائق معدودة فاسمح لي من فضلك بالمرور .

حملق الرجل وزملاؤه في وجهي وقال معربا عن استغرابه الشديد : ذاهب إلى طهران؟ وماذا تفعل أنت المصري في طهران؟

علقت قائلا بسرعة وأنا أتجاوزه لكي أخرج من باب الطائرة : جاسوس!

كنت أمزح بالطبع ، ولكن ردي هذا كان صادما . للوهلة الأولى لم يبدو أن صديقنا الاماراتي أخذ تعليقي هذا على محمل المزاح ، وكانت دهشته نابعة من كوني مصريا يذهب إلى إيران ، ولا يبدو على ملامحي وتكويني أنني من التجار أو من رجال الأعمال الذين تقتضي مصالحهم أحيانا تجاوز العلاقات السياسية المتدهورة من أجل الاستمرار في ممارسة أعمالهم التي تدر عليهم أرباحا كبيرة . وقد فهمت على الفور سر دهشة الرجل وهو يسألني بلهجة يشيع فيها نوع من الاستنكار عما أفعل في إيران ، فلم أجد أفضل من أن أثير خياله بأن أقول له إنني جاسوس . وكانت الإجابة مدهشة بحيث أغلقت أي مجال لمزيد من الأسئلة وسمحت لي بالمرور بسرعة ومغادرة الطائرة ثم اللهاث للحاق بالطائرة الأخرى المتجهة إلى طهران .

كانت الطائرة التي ركبتها من دبي إلى طهران تمتلئ بالإيرانيين والإيرانيات ، وكانوا على ما يبدو من المقيمين في الإمارات ، وكانوا ذاهبين غالبا لزيارة أسرهم وأهلهم . وكان منظرهم الخارجي يوحي بالثراء والراحة . ومن بينهم لمحت سيدة حسناء سافرة الرأس ترتدي أفخر الملابس . فلما بدأت الطائرة في الهبوط أخذت ترتدي الملابس التقليدية السوداء (الشادور) وتضع غطاء الرأس هي ومن بصحبتها من النساء ، وقد شاهدت هذا التصرف مرات عديدة عندما كنت أسافر من لندن إلى الدوحة عندما كنت أعمل هناك في التسعينات لفترة قصيرة .

في مطار طهران كانت شيرين ناديري في انتظاري بشحمها ولحمها . لم أكن قد رأيتها بعد ، فقد كانت كل علاقتي بها علاقة «إليكترونية» أي عبر البريد الأليكتروني . وقد وجدتها فتاة في الثلاثين من عمرها تقريبا ، قصيرة إلى حد ما ، ترتدي الملابس الإيرانية المفروضة من قبل الدولة على كل النساء ، أي الملابس السوداء الثقيلة التي تغطي الجسد بكامله . لكنها كانت تضع غطاء رأس يحجب جزءا من وجهها أيضا . وقد عرفت فيما بعد خلال وجودي في إيران ، أن الإيرانيات اللاتي يرتدين غطاء رأس بهذه الطريقة هن عادة من الممتثلات مع الوضع القائم ، أي من المتشددات المتزمتات دينيا ، لأن معظم الإيرانيات يتحايلن لرفع جزء من هذا الغطاء بحيث تظهر مقدمة شعر الرأس على الأقل .

مددت يدي بشكل عفوي إلى شيرين لمصافحتها ، ابتسمت وهزت رأسها نفيا ، بما يفيد أن المصافحة بين الرجال والنساء غير مسموح بها هنا . وقد وعيت الدرس فلم أبادر لمصافحة أي امرأة قابلتها بعد ذلك ، في المهرجان أو في غيره ، بعد أن فهمت أن هذا السلوك أصبح من المحظورات في ظل النظام الإسلامي الذي يحكم البلاد منذ الثورة التي جاءت بالخميني زعيما روحيا ومرجعا وحيدا في الحكم والسياسة وشتى أمور الحياة . ولم أدهش كثيرا لأنني كنت قد قابلت في مصر حتى من بين من يقمن بالتدريس في الجامعة ، من ترفض وتعتذر عن عدم قبولها مصافحة الرجال .

جلست مع شيرين في صالون مخصص لاستقبال الزوار الرسميين في المطار ، وجاءوا بالشاي والحلوى الإيرانية . ولكن بدلا من الانتظار لعدة دقائق ، أخذ الوقت يمضي حتى تجاوز الساعة ، وفرغ الحديث

الأول التعارفي بيني وبين شيرين فلم يعد هناك ما يقال ، خاصة وقد تجاوزت الساعة الواحدة صباحا ، وبدأت أشعر برغبة شديدة في النوم . وعندما تجرأت وسألت شيرين بعد طول تردد : متى سنذهب؟ قالت لي «إننا في انتظار إحضار حقيبتك» . كانت شيرين قد طلبت مني عدم الاهتمام بأمر الحقيبة قائلة إنهم سيحضرونها بعد قليل فلم أكلف نفسي الوقوف في المكان المخصص لتسلم الحقائب كما أفعل عادة في كل مطارات الدنيا ، أو بالأحرى وجدت نفسي مضطرا لمصاحبتها ونسيان أمر الحقيبة . وقد استغرق الانتظار في المطار أكثر من ساعة ونصف بصحبة شيرين إلى أن جاءوا بالحقيبة (غالبا بعد فحص كل شعيرة في داخلها!) . وتوجهنا إلى السيارة التي حملتنا إلى الفندق في وسط طهران .

وجدت في انتظاري في الفندق المسؤول المكلف بالاتصالات الخارجية والضيوف الأجانب ، وكان هو في الواقع وراء دعوتي إلى المهرجان ، وهو شخص لطيف للغاية وشديد التحضر يدعى حسن ، وقد رحب بي وقال إنه سعيد بأن يكون هناك عضو من مصر في لجنة التحكيم . وكان لابد أن أصعد للنوم على أن أقابله صباح اليوم التالي في بهو الفندق .

في اليوم التالي تعرفت على زملائي في لجنة التحكيم : مدير التصوير السينمائي اليوناني ستافروس شابيس ، ويوك موي تشانج (أو جيبسي كما تفضل أن تطلق على نفسها) وهي فتاة تقوم بتدريس المونتاج بمعهد السينما في هونج كونج ، وعلي رضا شوجانوري وهو ممثل ومنتج سينمائي إيراني ، وأندريه بنداريك عميد معهد السينما والتليفزيون في لودز (بولندا) وهو أيضا مخرج سينمائي ، ولودز بالمناسبة

هي مدرسة السينما الشهيرة التي تخرج منها رومان بولانسكي وكل السينمائيين البولنديين العظام .

اتفقنا منذ الجلسة الأولى على اختيار مدير التصوير اليوناني رئيسا للجنة التحكيم ، وكان من الواضح أنه أكبرنا سنا ، بل وكانت له أيضا لحية بيضاء كثيفة تضفي عليه سمات الحكمة والوقار . وعلمت بعد ذلك أنه سبق أن حضر إلى هذا المهرجان وكان أيضا رئيسا للجنة التحكيم في دورة سابقة .

كانت الصحبة بشكل عام لطيفة وتتسم بالتجانس والود ، وقد قضينا معا أياما نضحك ونتبادل رواية الكثير من القصص والحكايات الشخصية الطريفة ، وكنا نتناول الطعام معا ، ونجوب طهران في جولات منظمة وفي وجود مرافقين رسميين ، وبعد ذلك ذهبنا في رحلة إلى مدينة إصفهان الجميلة .

أما المهرجان فتقيمه جمعية تسمى «جمعية السينما الشابة في طهران» وهي إحدى الجمعيات السينمائية العديدة المنتشرة في إيران ، علمت أن هناك عددا كبيرا منها في عموم طهران . هذه الجمعيات مهمتها ليست عرض الأفلام بل إنتاج الأفلام التسجيلية والقصيرة ، من أفلام الديجيتال والفيديو والسينما . وتقول المعلومات المنشورة في دليل جمعية طهران للسينما الشابة التي تقيم المهرجان انها أنتجت في عام واحد فقط هو (عام ١٩٩٩- ٢٠٠٠) ٢٧٤ فيلما . وقد شعرت بنوع من الحسرة ، ففي مصر لا يتجاوز فيها إنتاج هذا النوع من الأفلام من خلال المركز القومي للأفلام التسجيلية والقصيرة التابع للدولة ٤- ٦ أفلام سنويا ، علما بأن هذه هي وظيفته الرئيسية ، ويبلغ عدد العاملين فيه أكثر من ٥٠٠ موظف .

كانت أولى الجولات التي قمنا بها في طهران في منطقة القصور الملكية التي كانت مخصصة لشاه إيران السابق محمد رضا بهلوي الذي أطاحت به الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩ ، وهي منطقة شاسعة محاطة بالأسوار ومحروسة بالبوابات ، لكنها أصبحت الآن مفتوحة كمنطقة حدائق ، كما تحولت قصور الشاه إلى متاحف يستطيع الجمهور العام دخولها دون مقابل . وتمتلئ المنطقة بعدد كبير من القصور ، لكني لاحظت أنها قصور صغيرة المساحة كثيرا ، ضيقة الغرف ، قياسا إلى القصور الملكية في مصر التي كانت تتبع أسرة محمد علي مثل قصور عابدين والقبة والمنتزه ورأس التين . وأخذت أتأمل في المنطقة المحيطة المعزولة تماما عن المدينة ، وتخيلت المنطقة نفسها قبل أكثر من ٥٠ عاما ، كيف كانت تبدو؟ لاشك أنها كانت تمتلئ بالبعوض ، يحيط بها الظلام من كل جانب ، فقد قرأت أن أحد الأسباب الرئيسية التي دفعت الأميرة فوزية ، شقيقة الملك فاروق الأول (ملك مصر والسودان كما كان يعرف قبل أن يطيح به ضباط يوليو ١٩٥٢) إلى طلب الطلاق من شاه إيران السابق والأخير ، المناخ المحيط بحياتها داخل القصر الشاهنشاهي ، وما أدى إليه من إصابتها بالاكتئاب والمرض ، مما جعلها تكف تقريبا عن تناول الطعام ، وتعاني من الكثير من المتاعب والآلام . وقد وقع الطلاق بينها وبين الشاه في عام ١٩٤٥ بعد زواج دام نحو ٦ سنوات ، وكانت فوزية الزوجة الأولى للشاه ، تزوج بعدها ثريا (عام ١٩٥١) ثم طلقها عام ١٩٥٨ بعد أن ثبت أنها لا تستطيع الانجاب ، ثم تزوج زوجته الثالثة والأخيرة فرح ديبا (عام ١٩٥٩) التي أنجبت له ولدين وابنتين .

طبعا قصور الشاه تمتلئ بالتحف والسجاجيد النفيسة والمجوهرات واللوحات الفنية التي لا تقدر بثمن ، لكنها بشكل عام ، لا تعكس ذوقا رفيعا كما كنت أتصور ، بل إن ديكوراتها وأثاثها الكلاسيكي يضفي جوا من الكآبة والبرودة على تلك القصور . مسكينة فوزية الجميلة!

في حدائق منطقة القصور شاهدنا جماعات من الفتيات ، يمرحن ويتركن أنفسهن على سجيتها إلى حد كبير . ولمحت الكثير منهن يشمرن أكمام الشادور بحيث يبدو جزءا من أذرعهن مكشوفا في أشعة الشمس . وهمس حسن في أذني قائلا إن تلك إحدى وسائل التمرد الخافت على النظام .

كان حسن الذي يجيد الانجليزية والألمانية قد قضى أكثر من عشرين عاما في ألمانيا قبل أن يعود إلى بلاده ، وكانت آراؤه «ليبرالية» للغاية ، ولم يكن بالتالي من «أهل الثقة» ، بل كان المهرجان يستعين بخدماته باعتباره من «أهل الخبرة» . وقد فهمت فيما بعد خلال الأيام التالية ، أن حسن لم يكن من المقربين إلى رئيس المهرجان ، ولم يكن مرضيا عنه كثيرا . والسبب واضح بالطبع ، فلم يكن حسن ينتمي إلى طبقة «الكهنة» أو الذين يدورون في فلكهم ، بل وكان خارج البلاد وقت قيام الثورة «الإسلامية» في ١٩٧٩ .

استقبال خاص

بعض القصور الملكية أصبحت مخصصة لرئاسة الجمهورية ، ولبعض المؤسسات الرسمية في الدولة (أو ربما الوزارات) . وقد أقام مستشار الرئيس محمد خاتمي (كان خاتمي وقتذاك رئيسا لجمهورية

إيران الإسلامية) حفل عشاء خاص على شرف أعضاء لجنة التحكيم وضيوف المهرجان من السينمائيين والنقاد ، دعا إليه عددا كبيرا أيضا من المسؤولين والصحفيين ورجال الإعلام في ايران . وقد استقبلنا الرجل أولا بنفسه داخل مكتبه الشخصي في قصر من هذه القصور . وعندما قدموني له ، بادرني بالتحية باللغة العربية بينما كنت أصافحه ، ثم سألني عن مصر وأحوال مصر بلغة عربية سليمة واضحة ، فرددت عليه بأدب وشكرته على استقباله لنا ، وعندما سألني عن إقامتنا في إيران ، قلت إن إيران تمثل بالنسبة لي تاريخا وحضارة عظيمة كنت دائما أتطلع لزيارتها .

الواضح تماما من خلال هذا الاستقبال أن مستشار الرئيس الإيراني كان يولي اهتماما خاصا بي كمصري عضو في لجنة التحكيم ، أكثر بكثير مما أبداه تجاه باقي أعضاء اللجنة من الأجانب (أو الفرنجة) . وكان هذا الاهتمام الذي سيتبدى بصورة أكبر أثناء حفل الختام ، يعكس الاهتمام الكبير بمصر ، والرغبة الحميمية الصادقة في إعادة العلاقات معها . وبعد أن خرجنا من مكتب مستشار الرئيس (لا أتذكر اسمه بكل أسف) جلسنا حول عدد كبير من الموائد التي انتشرت في قاعات الاستقبال والطعام في القصر الفخم وكأننا عدنا في الزمن إلى أجواء ألف ليلة وليلة .

جاءت جلستي وسط مجموعة من الإعلاميين والصحفيين الإيرانيين (لا أعرف ما إذا كانت تلك مصادفة أم مقصودة!) ووجدت نفسي منفصلا تماما عن باقي أعضاء اللجنة الذين تفرقوا حول موائد متعددة في صحبة أشخاص إيرانيين . ودار الحديث بيني وبين المتحلقين حول مائدتي . وطبعا وجهت لي الكثير من الأسئلة عن

مصر وعن السينما المصرية وعن محمد حسنين هيكل الذي اكتشفت أنهم يعرفونه جيدا جدا ، وكان ما قاله في محاضرته بالجامعة الأمريكية وقتها من انتقادات شديدة للنظام ، وتطرقه للمرة الأولى للحديث عن توريث الحكم ، قد لقي اهتماما كبيرا بينهم . وعندما سألتهم عن توزيع الأفلام الأجنبية في إيران على الاسطوانات الرقمية أجابني رجل قدم لي نفسه على أنه رئيس لتحرير مجلة سينمائية في إيران ، وقال إن من الممكن الحصول عليها من الخارج أحيانا . ولكن يجب أن تمر أولا على الرقابة .

تكلمنا بعد ذلك في أمور كثيرة . واكتشفت أنهم شديدي الاطلاع على ما يحدث في مصر ، حتى ما يتعلق بالكثير من النواحي الثقافية . لم يكن معظم الجالسين معي من المتزمتين فكريا أو التابعين مذهبيا للنظام ، بل بدا عليهم الكثير من الانفتاح الفكري . وكان رئيس تحرير مجلة السينما رجلا رائعا واسع الاطلاع والثقافة ، وقال لي شاب آخر إنه يقدم برنامجا في التليفزيون الإيراني عن السينما ، وإن هناك قناة تليفزيونية مخصصة لعرض الأفلام الإيرانية .

الغريب في الأمر أنني قرأت بعد مدة من مغادرتي إيران ، ربما عدة أشهر ، نبأ إلقاء القبض على هذا الرجل تحديدا بدعوى اتصاله بجهات خارجية وأنه حصل على عدد من الأفلام على الاسطوانات الرقمية دون إذن من السلطات .

تجولنا بعد انتهاء حفل العشاء أو تلك الوليمة الكبرى ، في حدائق القصور الملكية وكان الوقت مساء ، وكانت تشيع في الجو نسمة خفيفة وبعض قطرات المطر ، وكانت الغابة المحيطة بـ«قصرنا» تبدو والأضواء تنعكس على أشجارها من بعيد ، كأنها الغابة المسحورة . وقد تساءلت

بصوت خافت ، وكان «حسن» إلى جواري ينصت : ما كل هذه الأجواء الباذخة هنا؟ وهمس حسن : «إنهم ينهبون أكثر بكثير مما كان يحدث في زمن الشاه . . رحم الله الشاه . . لقد كانت أيامه أحسن مائة مرة»!

التمرد

ذهلت من هذا التصريح الخطير . لكن تأكد لي هذا الشعور بعد ذلك مرات ومرات ، بعد أن التقيت بالكثير من الشباب وطلاب الجامعة . وكان من بين الذين كنت أتحاور معهم معظم الوقت ، شاب في العشرين من عمره ، لكنه كان يبدو أنضج كثيرا جدا من سنه . وكان اسمه «رائد» . وقال لي إن هذا الاسم اسم عربي خالص . وقد سماه أبوه به لأنه يعشق اللغة العربية ، وقد عاش سنوات في البلاد العربية (في سورية والعراق) . أما هذا الأب فكان مستشار الرئيس نفسه الذي كنا في ضيافته بشحمه ولحمه قبل قليل!

وعرفت أن أباه صديق مقرب من خاتمي ، وأن الاثنين درسا معا الفلسفة في جامعة إصفهان قبل أن يدرس خاتمي الفلسفة الإسلامية في قم ، وأن والد رائد عمل مساعدا لخاتمي وقت أن كان رئيسا للمركز الإسلامي في هامبورج بألمانيا كما كان استاذا للفلسفة (الغربية وليست الاسلامية) ، وقد عاد الاثنان بعد الثورة الإسلامية إلى إيران .

كان رائد نموذجا مثاليا للجيل الجديد الذي نشأ في ظل الثورة . وكان ينتمي لأسرة من الطبقة القريبة من الحكم بشكل أو بآخر ، وكان طالبا في الجامعة يدرس علوم الاتصالات الحديثة والإعلام ، كما كان قد بدأ أخيرا ، بتشجيع من والده ، في تعلم اللغة العربية ، بالإضافة

إلى الانجليزية والألمانية وكان يجيدهما إجادة تامة . وقد قال لي أيضا إن والده يجيد الحديث بست لغات أجنبية .

كانت كل الأسباب إذن متوفرة لأن يكون «رائد» مخلصا للنظام الذي لاشك أنه سيتيح له الفرصة للترقي والصعود ، وربما يصبح بعد ذلك مسؤولا مهما لو عرف كيف يسلك الطريق . لكن رائد كان متمردا أصيلا ، وكان ساخطا على النظام كله عموما ، وعلى الرئيس خاتمي بشكل خاص . وقال لي مباشرة ذات مرة ، وكنا نتناقش في مكان مفتوح في إحدى حدائق مدينة إصفهان ، بعيدا عن عيون الآخرين ، إن الإحساس العام بين طلاب الجامعة ، وهو إحساس يشاركهم هو فيه ، أن خاتمي «خان» الشعب ، وتخلى عن وعوده له . فلما أستوضحته هذه النقطة قال إنه كان يتعين على خاتمي أن ينأى بنفسه عن رجال الدين ، وان يحول الدولة إلى دولة مدنية حديثة ، ويتخلص من سلطة رجال الدين استنادا إلى التأييد الشعبي الكاسح الذي كان يتمتع به ، لكن خاتمي بدلا من ذلك ، استسلم لرجال الدين ورضى بأن يأتمر بأوامرهم .

وانفجر رائد ذات مرة غاضبا قائلا لي : تصور أن الطلاب في جامعة طهران أصبحوا الآن على استعداد حتى للترحيب بالأمريكيين نكاية في النظام القمعي القائم .

ملحوظة : بعد سنوات من هذا الحديث قامت مظاهرات في جامعة طهران تهتف ضد النظام وتطالب أمريكا بالتدخل . لكن تم قمعها بشدة .

أعود إلى لجنة التحكيم وإلى المهرجان . كانت العروض الرسمية للمهرجان تتم في مجمع سينمائي رائع في وسط طهران لا يبعد كثيرا عن مكان اقامتنا في الفندق . وكانت هناك أكثر من قاعة لعرض الأفلام كما كانت هناك قاعة ضخمة للمحاضرات والمؤتمرات والندوات . وفي هذه القاعة نفسها سألقي بعد يومين محاضرة تستغرق أكثر من ساعة ، حول السينما المصرية .

كنا نذهب أحيانا إلى هذا المجمع لمشاهدة الأفلام المعروضة خارج المسابقة ، والالتقاء بالناس وبممثلي وسائل الإعلام الذين كانوا يجرون معنا مقابلات بالاستعانة بالطبع بخبرة «شيرين» في الترجمة من الانجليزية إلى الفارسية وبالعكس . أما أفلام المسابقة التي كنا نقوم بتحكيمها ، فقد كنا نشاهدها في قاعة خاصة في مكان آخر ، وفي أوقات محددة يوميا . وكنا نتناقش لمدة ساعة بعد كل جلسة من جلسات المشاهدة المكثفة (كان عدد الأفلام المتسابقة في كل الفروع : التسجيلية والروائية القصيرة والرسوم والفيديو) كبيرا جدا .

وأتذكر أن مصر كانت تشارك بفيلمين ، وصل أحدهما دون ترجمة انجليزية مصاحبة فاستبعدناه من المسابقة على الفور دون نقاش . وكان في المسابقة أيضا فيلم رائع للمخرج الفلسطيني إيليا سليمان هو فيلم «سايبر فلسطين» . وعندما دارت المناقشات بعد مشاهدته ضمن أفلام أخرى ، اتضح أن رئيس اللجنة اليوناني لم يفهم هذا الفيلم ولم يكن من المعجبين به . وقد دار نقاش طويل بيني وبينه حول هذا الفيلم تحديدا ، وكان العضو الايراني في اللجنة علي رضا يؤيدني في أننا أمام عمل جميل يستحق جائزة ما ، لكن باقي أعضاء

اللجنة اتخذوا موقفا سلبيا من الفيلم بكل أسف .

كان يصاحبنا طوال مشاهدة الأفلام وطوال المناقشات التي تعقب المشاهدة مرافق إيراني يتكلم الفرنسية والانجليزية . كان هذا الرجل دائم التجهم ، وكان يتعامل معنا جميعا بحذر بالغ ، ويكاد يشي بتصرفاته وحركاته بأنه مكلف بمتابعتنا من الناحية الأمنية ، أي أنه كان تابعا لجهاز أمني يتعين عليه أن يكتب له تقارير عن أعمال اللجنة ، بل وكان يصغى باهتمام لكل مناقشاتنا دون أن يستطيع التدخل فيها بالطبع . ومؤكد أنه في كل لجان التحكيم يكون هناك منسق أو ممثل لمدير المهرجان ، يتولى التنسيق بين المدير (الذي يمثل المهرجان ككل) وبين لجنة التحكيم ، ويستطيع أن يتصل بالمدير في حالة وقوع أي لبس بين أعضاء اللجنة بشأن شروط منح الجوائز مثلا ، فمهمة هذا المنسق عادة أن يضمن عدم خروج اللجنة عن لائحة المهرجان . اما هذا الرجل المصاحب لنا في طهران ، فلم تكن مهمته «فنية» ، فهو لا يتبع مدير المهرجان أو ممثليه ، بل يتبع جهاز الأمن أي المخابرات الإيرانية . وكان هذا واضحا ، فقد كنا نراه يتحدث هاتفيا بين وقت وآخر لكي يخبر رؤسائه عن تحركاتنا . وكنت في تلك الفترة لازلت مدخنا شرها . وكنت أحتاج إلى بعض الفترات بين الأفلام للخروج من قاعة العرض إلى الشارع لكي أدخن ، فقد كان التدخين ممنوعا تماما داخل القاعة . وكان هذا الرجل يبدي ضيقه الشديد من موضوع التدخين ، ولم يكن الأمر مرتبطا بالجانب الصحي بالطبع كما استنتجت فيما بعد ، بل بالجانب الأمني ، فهو يعتبر خروجي من القاعة إلى الشارع وحدي دون أن يمكنه تتبعي ، عملا يسبب له الكثير من الاضطراب .

المهم أن هذا الرجل كان يصحبنا دائما عقب انتهاء عملنا كل يوم إلى الفندق الذي نقيم فيه ثم يتركنا هناك في صحبة رائد ، وأحيانا أيضا تكون شيرين موجودة . وكان رائد مكلف باصطحابنا إلى المطاعم في المدينة ، وكانوا حريصين للغاية على أن نتناول الطعام في عدد من المطاعم الايرانية التي تقدم أشهى المأكولات .

صديقنا ستافروس اليوناني رئيس اللجنة ، وهو رجل مرح محب للحياة وإن كان يمكن أحيانا أن يتحول إلى التزمت بدرجة مزعجة ، اقترح أن ننجز جلستين للمشاهدة في يوم واحد (كانت الجلسة الواحدة تستغرق حوالي ٣ ساعات) على أن ننتهي من المشاهدة قبل يوم من الموعد المقرر لكي نتمكن من القيام برحلة إلى مدينة اصفهان في الجنوب ، وقال إنه سيرتب مع إدارة المهرجان أمر هذه الرحلة .

انتهينا من آخر جلسات المشاهدة مساء السبت ، وخرجنا إلى الشارع ، وجاءت السيارة المخصصة لنقلنا ، ووقف «حارسنا» الأمني المتجهم ينتظر أن نركب السيارة ، وشعرت بالغيظ الشديد ، فما معنى هذا؟ وهل نحن تلاميذ في المدرسة . . وقررت أن أضايقه وأتجاهله فقلت عابثا موجها كلامي لأعضاء اللجنة : إنه مساء السبت . . فأين سنسهر هذا المساء؟

نظر إلي الرجل نظرات حادة غاضبة ، وقال : هذه دولة إسلامية . . أين يمكن أن تسهر . . سنذهب بكم إلى الفندق طبعا!

فعلقت بسرعة قائلا : عفوا . . ولكني كنت بصدد اقتراح أن نذهب جميعا إلى المسجد!

انفجر الجميع في الضحك ، فقد جاء التعليق سريعا ومباشرا وفي الصميم ، ولم يملك الرجل نفسه فأخذ يشاركنا الضحك .

وداخل السيارة جلس هو بجوار السائق . والتفت إلي وانفجر في حديث أقرب إلى المونولوج ، يفيض بالأسى والشجن والحزن والنوستالجيا : لقد كنا بشرا نستمتع بالحياة مثل كل البشر ، هل تعتقد أنني لا أريد أن استمتع بالحياة مثل غيري ، أنا أيضا كنت اذهب إلى السينما وأسهر واستمتع ، وكنت مدمنا على الأفلام المصرية الاستعراضية والغنائية وخصوصا أفلام فريد الأطرش وسامية جمال ، وكنت أداوم على سماع أم كلثوم وعبد الوهاب . . إنه جزء من موروثنا الثقافي الجميل . . لكنهم حولونا إلى أدوات مثل الجماد وقضوا على أجمل ما فينا . . ماذا نفعل!

فوجئت بحديث الرجل الذي كاد أن يبكي من شدة التأثر وهو يروي لنا كيف كانت الحياة في إيران في الماضي أكثر استرخاء وجمالا . جاء الاعتراف من رجل يفترض أنه رجل أمن ، مذهلا وكان اعترافا إنسانيا إلى اقصى درجة . ومنذ تلك اللحظة انتهى أي شعور لدي ضده بل وأصبحت أراه أيضا شخصا لطيفا ومجاملا وقريبا إلي أكثر من الآخرين . فنحن ننتمي إلى ثقافة مشتركة ، فيها ما لا يمكن للآخرين أن يفهموه . وهل يمكن أن يفهم البولندي أو اليوناني صوت عبد الوهاب!

الممنوع مرغوب

جاء مدير المهرجان بعد عدة أيام إلى الفندق للتعرف علينا . وكان بصحبته بعض المسؤولين ورجال الأمن بالطبع . وعلى العكس من المسؤولين في بلادنا الذين يمكنك عادة التعرف عليهم من ربطات العنق والبذلات الداكنة التي يرتدونها ، كان هذا الرجل ، مثل كل

المسؤولين الايرانيين ، يرتدي ملابس داكنة غير متناسقة وبدون ربطة العنق بالطبع التي يعتبرونها رمزا للثقافة الغربية أو يعتبرونها على الأقل ، شيئا «غير مرغوب فيه» وإن كان يمكن للأجنبي أن يرتديها كما قالوا لي عندما ذكرت أنني سأرتدي واحدة لحضور حفل الختام ، لكني غيرت رأيي لكي لا أجرح مشاعرهم .

كان مدير المهرجان مختلفا في مظهره وتحفظه وتجهمه عن «حسن» الذي كنا نعتبره المدير الحقيقي ، فقد كان يعرف كل شئ عن الأفلام ، ومن أين جاءت ، وكما يعرف كل شئ عن مخرجيها وكان من أهل السينما تماما ، وهو الذي قام بالاجراءات المتعلقة باستحضار الأفلام من الخارج ، ويمكن القول أن حسن كان المدير الحقيقي ولكن «من الباطن» إن جاز التعبير ، وكان الرجل الآخر الملتحي هو «المدير الرسمي» الذي يمثل المؤسسة الحاكمة ، وكان بالتالي من أهل الثقة . هذه الازدواجية التي تعتبر إحدى السمات المميزة للبنية البيروقراطية في الكثير من بلدان العالم الثالث التي زرتها ، تلعب دورا كبيرا في تقويض أي نظام ، وتحوله إلى نظام يقمع المبادرات الفردية ويقضي عليها ، فليس من الممكن لشخص أن يخدم بإخلاص إلا إذا كان يشعر بالمساواة مع غيره أو أن ما يمكن أن يميزه عن غيره ، هو عمله فقط وليس ولائه للنظام الحاكم . وقد قال لي «رائد» حرفيا إن «الحزب الحاكم»- يقصد جماعة الإسلاميين- في إيران لا يمثل أكثر من ثلاثة ملايين (إيران اكثر من ٦٠ مليون نسمة) من المتشددين دينيا بينما الباقون لا شأن لهم بالتشدد ولا يرغبون في دولة دينية .

وروى لنا على الغداء ذات يوم المنتج والممثل علي رضا زميلنا في اللجنة ، كيف اندلعت الثورة التي شارك هو فيها كطالب في الجامعة ،

وأشار لنا بإصبعه إلى المسجد الذي خرجت منه المظاهرة الأولى ، ثم كيف اندلعت مظاهرات جامعة طهران ، وكيف استمرت المظاهرات كل يوم جمعة إلى أن تحولت طهران كلها إلى حالة من الثورة المستمرة التي انتهت بهروب الشاه . لكن علي رضا أكد أن الذين قاموا بالثورة لم يكونوا كلهم من المتشددين أي من أنصار الدولة الدينية ، بل كانوا ينتمون إلى تيارات مختلفة متنوعة : ديمقراطية ويسارية وإسلامية معتدلة ، لكن الخميني كان ملهما لاشك في ذلك ، وكان ينبغي بعد وفاته أن تنتهي تجربة الدولة التي يقودها رجل دين لأن الخميني كان «حالة خاصة» . لكن ما حدث ، حسب كلام علي رضا ، ورائد أيضا ، أن «الملالي» سرقوا الثورة ، ثم أخذوا ينكلون بالثوار الحقيقيين الذين شاركوا فيها .

كان هذا بالتأكيد كلاما خطيرا جدا . ولم يكن من الممكن أن يتكلم علي رضا على هذا النحو أبدا في وجود شيرين ناديري التي كانت شديدة التزمت والتحفظ ، بل كان معنا رائد وحسن في تلك الجلسة .

جولة غريبة

ولعل من أكثر التجارب التي مررنا بها في طهران غرابةُ تلك التجربة التي وقعت عندما قال لنا حسن مساء الخميس : استعدوا غدا ، في حوالي الساعة الثانية عشرة ظهرا ، لأننا سنأخذكم في جولة أنا واثق أنها ستعجبكم . وتساءلت في دهشة : أليست هذه الساعة ساعة صلاة الجمعة . فرد حسن ببساطة : أعتقد هذا . . لماذا السؤال؟ هل ستصلي؟

دهشت بالطبع فقد كنت أتخيل أن صلاة الجمعة في إيران مقدسة ، وأن لا أحد يمكنه أن يسير في الشوارع في تلك الساعة بينما المصلون في المساجد . لكنهم أفهموني أن إيران ليست مثل السعودية ، فليس هناك ذلك التشدد بالنسبة لصلاة الجمعة . وكان هذا مدهشا حقا ، فهم يصرون على ضرورة ارتداء النساء الملابس السوداء الثقيلة لكنهم لا يصرون على ضرورة أداء صلاة الجمعة!

كنا جاهزين في الموعد بعد ظهر الجمعة . وجاءت سيارتان وركبت في السيارة التي ركب فيها حسن بينما ركب رائد في السيارة الثانية . وسارت السيارتان مسافة طويلة حتى خرجتا من طهران ، وانحرفتا في طريق محاط بالخضرة ، ثم سرنا في طريق واسع على جانبيه بعض الفيلات والمباني الحديثة ، ووجدنا عشرات السيارات تقف على جاني الطريق وتنزل منها مئات الفتيات والشبان ويصطف طابور طويل أمام مبنى معين . وأمر حسن أحد المساعدين بالذهاب للحصول على تذاكر الدخول . وسألت : إلى أين نذهب؟ فكانت الإجابة : هذا مكان فيه بعض الأشياء التي قد ترغبون في شراء بعضها .

هل قطعنا كل هذه المسافة لكي نشاهد بعض السلع السياحية التي تباع في طهران قرب الفندق؟

اتضح بعد قليل أن هذا المبنى المحاط بالأسوار العالية هو مدرسة تابعة للسفارة الإيطالية في طهران ، أي أنه يتبع عمليا إيطاليا ، وأن سعر تذكرة الدخول حوالي ٣٥ دولارا وهو مبلغ كبير دون شك بمقاييس إيران ، فلماذا تزدحم البوابات بطوابير الشباب هكذا؟ وعندما نفذنا من البوابة كان أول ما لفت أنظارنا وجود عشرات الفتيات الإيرانيات اللاتي افترشن الحشائش في الحديقة ، بعد أن تخلصن من الشادور

ومن أغطية الرأس ، واخذ الشباب يخالطون الفتيات ، بعضهم يدخن والبعض الآخر يتناول المشروبات الخفيفة المنعشة ، وللمرة الأولى نرى الجمال النسائي الإيراني الحقيقي بدون حواجز أو أقنعة . وكان أكثرنا افتتانا بما نراه حولنا ، صديقنا اليوناني ذو اللحية البيضاء القادم من بلاد ديونيسوس وأبيقور!

كان الشباب يتحملون الثمن المرتفع لتذكرة الدخول والرحلة الطويلة والازدحام في أجواء حارة ، مقابل تذوق «طعم الحرية»أي الاسترخاء الحقيقي في الشمس بعيدا عن عيون شرطة الآداب وزبانية الفكر ، والاختلاط كوسيلة ربما لأن يتعارف الشباب على الفتيات وتنشأ علاقات قد تؤدي إلى الزواج . ولكن ما المقصود من الإتيان بنا إلى هذا المكان؟ لقد شاهدنا بالفعل بعض الأشياء الجميلة من الهدايا واللوحات المشغولة يدويا والعملات النادرة وغير ذلك ، لكن لا أتذكر أن أحدا منا اشترى شيئا ، فهل أرادوا أن يجعلوننا نرى الوجه الآخر من إيران : وجه أوروبي قريب من البيئة التي أتى معظمنا منها؟

السويدية المحجبة

كان صديقنا اليوناني يشعر بالقلق الشديد لأن زوجته السويدية أصرت على أن تلحق به ، وكانت قد لقيت صعوبة شديدة في الحصول على التأشيرة ثم اتصلت به الليلة الماضية لتخبره بأنها حصلت عليها أخيرا وأنها في الطريق . لكن الأمر اقتضى أن تذهب أولا إلى سورية ومنها إلى طهران ، ثم ظهرت أمامنا فجأة في بهو الفندق . كانت «ليندا» امرأة طويلة فارعة متغضنة الوجه ، لاشك أنها كانت جميلة في الأيام الخوالي ، ثم أصبحت ، مع تقدمها في السن ، ذابلة الملامح ،

لكنها ظلت تتمتع بالحيوية الشديدة ، وكانت انجليزيتها أيضا ممتازة بدرجة ملفتة .

تفرض السلطات الإيرانية على كل امرأة أجنبية (أوروبية أو أمريكية أو آسيوية) ارتداء الملابس الطويلة (غالبا معطف طويل) وغطاء للرأس . وكان منظر تلك السويدية العجوز الشقراء وهي ترتدي الحجاب والمعطف الطويل مثيرا للضحك . وكانت «ليندا» تحادثك وتروي لك شيئا ثم تستطرد وتسرع في إيقاع استخدامها للكلمات بدرجة كبيرة جدا إلى أن تصل إلى حالة من الهوس والتوتر الشديد وهي تتكلم وتشير بيديها إشارات شديدة العصبية . وقد عرفت منها فيما بعد أنها كانت قد أصيبت بمرض عصبي أقعدها لسنوات في البيت . وفي إحدى مشاجراتها أمامنا مع زوجها الذي لم يكن سعيدا أبدا بوجودها في طهران ، اتهمته بأنه السبب في إصابتها بهذا المرض . ولكنه فضل الصمت على أن يترك الأمور تتفاقم فيما بينهما . كان في أحيان كثيرة يتعامل معها كما لو كانت طفلة ، وكان ستافروس ينهرها ويحاول تلقينها حسن السلوك ، لكن حالتها المرضية كانت تغلبها أحيانا رغم أنها كانت سيدة لطيفة ورقيقة المشاعر وودودة إلى أقصى درجة ، كما كانت مثقفة ثقافة رفيعة . وكنت اتأمل فيها مفتونا بأفقها الواسع وثقافتها العريضة ، لكنني كنت أعجز أحيانا عن متابعة ما تقوله عندما تستبد بها الحماسة فتتداخل الكلمات في فمها ، وتختلط معا .

في اصفهان

وافقت إدارة المهرجان على طلب ستافروس فسمحت لنا برحلة لمدة يوم واحد إلى إصفهان على أن نعود في مساء اليوم نفسه . وكان

يتعين علينا أن نستيقظ في الصباح المبكر ونذهب إلى المطار لكي نستقل طائرة تنقلنا إلى اصفهان في الجنوب . وطرنا فوق الصحراء الصفراء لمدة ساعة تقريبا قبل أن تبدأ الطائرة في الهبوط . وكان بصحبتنا رائد ، ولم يكن حسن ولا شيرين معنا . وعندما وصلنا إلى مطار اصفهان وجدنا سيارة ميكروباص في انتظارنا ، مستأجرة بالطبع من شركة سياحية بسائقها مع مندوبة إيرانية كانت تشرح لنا طوال الرحلة ما نشاهده من مناظر .

وأستطيع القول إن كل رحلتنا إلى إيران لا تساوي شيئا دون الجولة التي قمنا بها في إصفهان . . مدينة السحر التي تنتمي للقرون الوسطى ولاتزال تحتفظ بالكثير من ملامحها القديمة ، أهمها بالتأكيد ، الجسر القديم الشهير «كاجو» الذي يعتبر من أجمل الجسور في العالم ، ويرجع تاريخه إلى عام ١٦٥٠ ، وهو تحفة معمارية بكل معنى الكلمة ، وهناك أيضا جسر بول الذي شيد في القرن الثاني عشر .

لكن ربما يكون أهم معلم من معالم اصفهان هو مسجد الإمام الواقع في ميدان كبير مستطيل الشكل تقع على جوانبه عدة بنايات تعود إلى مئات السنين ، والمسجد نفسه عمره أكثر من ٨٠٠ سنة ، وهو أيضا نموذج فذ على تفوق العمارة الإسلامية وتميزها بالقيشاني الملون . وقد زرنا المسجد ووجدنا الناس يدخلون بالأحذية ، وسألت المرافقة فقالت إن المسجد لا يستخدم إلا في صلاة الجمعة ، ولا مشكلة في دخولنا بالأحذية طالما أن الأرضيات غير مفروشة بالسجاد .

قمنا أيضا بزيارة السوق القديم (البازار) بحاراته الضيقة الملتوية الذي يشبه كل الأسواق القديمة في مدن الشرق ، واشترينا هدايا من هناك ، واستخدمت أنا مهارتي ، أو بالأحرى ، خبرتي المحدودة في

المساومة التي تعلمتها في سوق أبو ظبي للسجاد ، في شراء بعض الهدايا التذكارية المصنوعة يدويا من النحاس بأقل من نصف الثمن وسط دهشة أعضاء لجنة التحكيم من الأوروبيين الذين لا يعرفون هذا النوع من المساومة ، خاصة بعد أن دفعت زميلتنا القادمة من هونج كونج بدولارها ضعف المبلغ الذي دفعته في شراء نفس الآنية النحاسية المصنوعة يدويا .

أخذتنا المرافقة إلى أحد أفخم محلات بيع السجاد العجمي الاصلي الفاخر . وقضينا أكثر من ساعة نتفرج على عرض للسجاد بشتى أنواعه وأسعاره ، وكان الرجل الذي يقوم بالعرض يجيد الانجليزية ، يشرح بالتفصيل كيفية صنع الأنواع المختلفة من السجاد ، ونوعية ربط وتحزيم الخيوط التي تصنع منها معا ، ثم أشار إلى قطعة من السجاد الحريري الفاخر جدا وقال إن ثمنها ٢٥ ألف دولار ، وإن من يمكنه أن يتعرف على نوعها سيحصل عليها مجانا . طبعا لم ينجح أحد منا في فك شفرة السجادة الثمينة ، كما لم يفلح البائع أيضا في إقناع أي منا بشراء أي قطعة من السجاد الفارسي رغم الإغراءات والتسهيلات .

كانت المرافقة الايرانية ترتدي رداء واسعا تستطيع أن تلمح من تحته سراويل «الجينز» وقد روت الكثير عن العرب الذين يأتون إلى إيران ليتزوجوا بفتيات ايرانيات جميلات صغيرات السن ، زواج المتعة المحدد الأجل والأجر ، وإن هذه الممارسة شائعة في إيران ، وبموافقة الأهل .

ومن الأشياء التي لفتت نظري أيضا وجود الكثير من البطاقات البريدية السياحية الملونة التي تحمل رسوما مصورة للإمام علي والحسين

وغيرهما ، وهو أمر مستحب في إيران ، والتصوير عموما من الأشياء التي لا تلقى أي معارضة من جانب السلطات الدينية في إيران طالما ظل في إطار احترام الجسد الإنساني طبعا . وقد قمنا في اصفهان أيضا بزيارة كنيسة أرمينية قديمة تاريخية تعود إلى العصور الوسطى ، وفي داخلها يوجد متحف رائع يضم الكثير من الآثار المسيحية القديمة . ولم ألحظ وجود اي حراسة مسلحة على أبوابها .

وهناك الكثير جدا مما شاهدناه في اصفهان ، لكني أكتفي بالقول إن هذه المدينة إحدى أعاجيب الزمن والدنيا ، وبدونها لا يكون المرء قد زار إيران . وكانت المرافقة قد حذرتني من البداية من أنني سأشعر بالتعب الشديد في نهاية اليوم بسبب كثرة ما سنشاهده ، وكنت متلهفا على رؤية المدينة ، والمشكلة أنني لم أكن قد نمت لدقيقة واحدة في الليلة السابقة ، وكان يتعين علي الاحتفاظ بذهني متيقظا إلى أن عدنا بالطائرة إلى طهران ووصلنا إلى الفندق في الحادية عشرة مساء وأنا أشعر بحالة من الارهاق الشديد . وأظن أنني استغرقت في نوم طويل عميق .

المحاضرة

كان اليوم المخصص للمحاضرة التي سألقيها يوما حافلا . جاءت شيرين لتصحبني إلى المدرج الكبير الرهيب الذي تجمع فيه حوالي ألف شخص ، معظمهم من شباب الطلاب جاءوا للاستماع إلي ما سأقوله لهم في محاضرة لم يكن جاهزا منها أمامي سوى بضعة أسطر عبارة عن نقاط رئيسية عامة ، لكن الله فتح علي كثيرا في ذلك اليوم .

تحدثت عن السينما المصرية ، في الماضي ، وفي الحاضر ، كيف

كانت وكيف أصبحت ، تطرقت لتجربة سيطرة الدولة على السينما وتوجيهها ، وقدمت نقدا للتجربة ، وتحدثت عن الصعوبات الكبيرة التي يواجهها السينمائيون المصريون الذين يتطلعون إلى صنع أفلام تعبر بصدق عنهم وعن طموحاتهم الفنية ، وعن السينما الفنية والسينما التسجيلية ، وعن تأثير التليفزيون ، وغير ذلك من مواضيع وقضايا .

تلقيت عشرات الأسئلة والتساؤلات الصادقة المعنية بالفعل بالحصول على إجابات . وكان هناك الكثير من الأسئلة تتركز حول ما أراه بخصوص السينما الإيرانية ، ومستواها ، ونوعية أفلامها ، وكنت ألمح من بين ثنايا الأسئلة الكثير من الغمزات الانتقادية الساخطة على ما هو مفروض من قيود على السينمائيين في إيران . ورغم الفرص الكبيرة التي يتمتع بها السينمائيون الشباب إلا أنني لمست سخطا على الرقابة التي تحظر تناول الكثير من المواضيع ، كما تحرم تماما تناول العلاقات العاطفية بين الرجل والمرأة .

قلت بوضوح إنني لا أفهم كيف يمكن أن تستمر وتتطور سينما تسير على وتيرة واحدة ، وتصنع نوعا واحدا من الأفلام ، وتتجنب أنواعا أخرى أصيلة في التعبير السينمائي : الأفلام الموسيقية والعاطفية والبوليسية وأفلام النقد السياسي ، وإن هذه الأنواع من الأفلام هي التي تضفي الحيوية على أي سينما ، وليس من الممكن العيش كل الوقت على الدراما التسجيلية التي تدور في الريف ، وفي الجبال ، وتتوقف عند الواقعية المذهبية فقط ، ولا تقترب من الخيال الحر المنطلق . وكان يمكنني أن ألمح بوضوح ، أثر كلماتي هذه على الكثير من الوجوه التي كانت تحملق في ، وكنت أحاول جادا أن أتأكد من متابعتي لوجه شيرين لكي أتأكد ، إذا استطعت بالطبع ، أنها تترجم

بصدق ما أقوله بالانجليزية ، وأظنها كانت تفعل .

بعد انتهاء المحاضرة والمناقشات تجمع حولي عدد من الشباب أرادوا استكمال الحديث معي ، وقال لي أحدهم بلغة عربية سليمة : لماذا لم تتحدث بالعربية؟ فقلت لأنني أعتقد أن الأغلبية لا تفهم العربية هنا ، فقال إن هذا غير صحيح وإن العربية هي اللغة الثانية في إيران بعد الفارسية . فقلت له في أدب شديد : ربما لأن مترجمتي لا تعرف العربية ويجب أن تفهم في النهاية ما أقوله .

وكنت أقرب إلى الحقيقة فيما قلت ، فلو كان المسؤولون عن المهرجان ، وقد ألحوا في ضرورة ان تتم هذه المحاضرة ، كما طلبوا من زميلي اليوناني الأمر نفسه ، يرغبون في أن أتحدث بالعربية لطلبوا ذلك بوضوح من البداية ، لكنهم أرادوها بالانجليزية على أن تسجل وتترجم للفارسية مباشرة ، وهو ما تم . وإن كنت لا أعتقد أنهم كانوا سعداء بما قلته من آراء في المحاضرة ، ولا أظن انهم ارتاحوا لما وجهته من نقد خفي لنظام يفرض نوعا واحدا من «الفكر» السينمائي على السينمائيين ، رغم أنني بدأت كلامي بالإشادة بالفرص الكثيرة المتوفرة في إيران أمام الشباب لصنع أفلامهم الأولى ، ولو عن طريق كاميرا الفيديو .

يوم الجوائز

لم نتوصل نحن أعضاء لجنة التحكيم ، إلى النتائج النهائية للمسابقة إلا في اليوم الأخير للمهرجان ، أي صباح يوم إعلان الجوائز . كنا نتبع طريقة جيدة وعملية توفر الكثير من الوقت والجهد ، تتلخص في استبعاد الأفلام التي لا نرغب في استبقائها للنهاية أولا بأول ، وذلك بأغلبية الأصوات . وكنا نبدأ أولا بمناقشة كل الأفلام حتى لا

نظلم أي عمل منها ، ثم بعد أن تنتهي المناقشة ، نقوم بالاقتراع عليها واحدا واحدا ، إلى أن نتوصل إلى قائمة قصيرة للغاية من الأفلام التي نود أن نستبقيها للمناقشة النهائية . وكان كل منا يقوم بتسجيل ملاحظاته على هذه الأفلام .

وعندما حلت الجلسة الأخيرة ، قمنا بمناقشة كل الأفلام التي استبقيناها في كل فرع ، ثم بدأنا التصويت . وطلب رئيس اللجنة أن يسلمه كل منا ورقة باسم الفيلم الذي يرشحه للحصول على الجائزة الكبرى للمهرجان . ولدهشتنا الشديدة جاءت النتيجة بالإجماع على فيلم «امرأتان» وهو فيلم دنماركي من النوع الروائي القصير(٢٢ دقيقة) من إخراج أمير رضا زاده ، وهو مخرج إيراني يعيش في الدنمارك . وكان فيلما بديعا مؤثرا عن العلاقة بين امرأة دنماركية ثرية وخادمتها المسلمة المهاجرة من المغرب ، وكيف تتحول العلاقة من الشك وانعدام الثقة والتعالي العنصري إلى التفاهم والفهم المشترك والتواصل الإنساني رغم اختلاف اللغات والأصول والخلفيات . فيلم رائع ساحر منسوج ببراعة ، كأنه مقطوعة موسيقية كلاسيكية تفيض بكل المشاعر النبيلة .

ومنحنا جائزة أحسن فيلم روائي قصير إلى الفيلم الاسكتلندي «ليونارد» الذي كان يتناول العلاقة بين الأجيال بطريقة مؤثرة للغاية . وذهبت جائزة أحسن فيلم تسجيلي إلى فيلم «نحن نعيش على الحافة» لمخرج من روسيا البيضاء هو فيكتور أسليوك ، وكان يصور ببراعة حياة جماعة من الغجر يعيشون على هامش المدينة ، في ظروف شاقة . وذهبت جائزة لجنة التحكيم الخاصة إلى الفيلم الإيراني «متعة النار» التسجيلي الذي أخرجه علي محمد قاسمي الذي سأعود لكي أعيد اكتشافه في أول أفلامه الروائية الطويلة في مهرجان فينيسيا السينمائي

عام ٢٠٠٥ مع فيلمه الجرئ جدا «كتابة على الأرض» . وكانت هناك أيضا جوائز أخرى مثل جائزة أحسن فيلم من أفلام الرسوم ، وأحسن فيلم تجريبي ، وغيرهما .

انتهينا من الاتفاق على الجوائز ، دون وقوع خلافات كبيرة ، باستثناء أنني أردت ، ولم أنجح ، في منح جائزة للفيلم الفلسطيني «سايبر فلسطين» لإيليا سليمان ، لكني لم أجد استجابة حقيقية بين أعضاء اللجنة باستثناء علي رضا الذي أيدني بقوة دون جدوى فستافروس اليوناني لم يفهم الفيلم- كما أشرت من قبل- ولم يكن سعيدا بالتصوير في الجزء الأخير منه الذي يدور داخل كنيسة . كانت المشكلة أن ستافروس كمدير للتصوير السينمائي ، كان يرى الفيلم من زاوية ضيقة ، هي التي تهمه وتشغله ، ليس كما يراه الناقد بالتأكيد .

بعد ذلك فوجئت عندما طلبت مني شيرين ، وأيدها كل أعضاء اللجنة ، أن أتولى كتابة مبررات منح الجوائز ، وهي مهمة شاقة تتطلب صياغة دقيقة ومختصرة ومعبرة لأسباب منح كل فيلم الجائزة التي حصل عليها . واتفقوا جميعا على أنني «أفضل من يقوم بالمهمة» مضيفين أنني ناقد وأعرف كيف أكتب وأصوغ الكلمات بينما كانوا جميعا من السينمائيين!

حفل الختام

حفل الختام كان حافلا بالغناء التقليدي ، كما شهد عرضا فولكلوريا من التراث الايراني ، وقد استمتعنا جميعا به ، وكان هناك ممثل يقوم بتقديم فقرات الحفل بطريقة كوميدية لطيفة ، وكان الجمهور يستجيب معه بشكل مدهش .

لكن إيران أيضا بلد من بلدان العالم الثالث التي تحكمها سلطة لا تعرف المزاح في مثل هذه الأمور ، فلابد من حضور الوزير المسؤول ، أي وزير الثقافة ، لكي يلقي كلمة يحدثنا فيها ، كالعادة ، عن دور السينما في «بناء الإنسان» ، يتبعه رئيس البلدية ، ثم مدير المهرجان ، ثم رئيس لا أعرف ماذا وماذا ، قبل أن تبدأ الفقرات الحقيقية للحفل .

الغريب أن الممثل الذي كان يقوم بتقديم الحفل بطريقة فكاهية ، كان ينتقل بين اللغات ببراعة مدهشة ، فهو يتحدث نحو ست لغات من بينها اللغة العربية التي قدمني بها وهو ينادي على اسمي ، بطريقة مسرحية درامية ، ولم ينس أن يحيي مصر ، وأن يستوحي الطريقة الكوميدية في الأفلام المصرية ، وفوجئت عند صعودي إلى المنصة بعد أن نادى على اسمي باستقبال الجمهور لي استقبالا حماسيا . وتفسيري للأمر ان هذا الحماس لم يكن بالطبع لأن جمهور طهران قد أصبح يعرفني أو يهتم بأمري ، بل أعتقد أنه كان من جانبهم ، حبا في مصر ، وتقديرا للدور الثقافي المصري ، وللعلاقات التاريخية القديمة بين الشعبين ، ولأنني كنت الوحيد بين أعضاء اللجنة ، الذي أنتمي إلى ثقافة قريبة منهم ، يشعرون بها ويودون لو تتاح لهم الفرصة للانفتاح عليها مجددا . كان هذا الاستقبال جميل ومريح ، ويشعر المرء أنه رغم حاجز اللغة ، هناك تقارب وتفاهم بين الشعبين ، وهو أمر لا يمكن للحكام أن يشعروا به .

انتهى المهرجان ، وانتهت الرحلة إلى إيران بسلام ، وبدون وقوع أي مشكلة ، وعند مغادرة الفندق للتوجه إلى المطار فوجئت بموظف الاستقبال يقول لي : أرجو أن تبلغ سلامي إلى «عمرو دياب» من فضلك . . فأنا مدمن على سماع أغانيه!

ورغم كل ذلك ، ورغم كل الحفاوة والود ، إلا أنه كان ينتابني طوال الوقت ، شعور ما غامض بعدم الارتياح . هذا الشعور عادة ما ينتابني وأنا في زيارة الدول «المغلقة» . لقد انتابني الشعور نفسه في بلغاريا كما سبق أن كتبت . وقد عاد إلي هذا الشعور وأنا في إيران . ولا أعرف حتى الآن لماذا لا تستطيع بلادنا أن تتحرر كما تحررت بلدان أوروبا وأمريكا اللاتينية بل والكثير من الدول الافريقية والآسيوية .

٧
التجربة الإيرانية الثانية

بعد عشر سنوات بالضبط من رحلتي الأولى إلى طهران ، تلقيت دعوة جديدة لحضور المهرجان نفسه ، أيضا كعضو في لجنة التحكيم الدولية ، وكان الموعد في نفس الشهر ، أي اكتوبر ٢٠١٢ ، وكان مطلوبا من لجنة التحكيم منح الجوائز لأفلام تتنافس في أربع مسابقات هي مسابقة الأفلام الروائية القصيرة ، والأفلام التسجيلية القصيرة ، وأفلام التحريك وما يسمى بـ«الأفلام التجريبية» . وخلال السنوات العشر التي تفصل بين التاريخين ، جرت مياه كثيرة في الأنهار والبحار ، قامت حرب ضارية في المنطقة على الجهة الأخرى من إيران ، وهي الحرب الأمريكية على العراق بهدف الإطاحة بنظام الطاغية صدام حسين الذي كان سببا في خراب العراق وتغيير وجه المنطقة وزيادة النفوذ الإيراني فيها ، فقد خرجت إيران لتصبح الرابح الأكبر من تلك الحرب .

لم تكن رحلتي من القاهرة إلى طهران مباشرة ، فمازالت العلاقات الدبلوماسية مقطوعة بين مصر وإيران ، وبالتالي لا تربط خطوط طيران مباشرة عاصمتي الدولتين ، رغم زيادة حجم الاستثمارات الإيرانية في مصر كما علمت ، ورغم سفر عدد متزايد من رجال الأعمال المصريين إلى طهران بغرض الاستيراد وربما التصدير أيضا . . لا أدري!

كان يتعين علي كما كان الأمر في المرة السابقة ، الإقلاع من القاهرة إلى دبي على متن طائرة تابعة لطيران الإمارات ، ومن هناك أركب طائرة أخرى إلى طهران ، وكانت الطائرة المتجهة من دبي إلى طهران من نوع بوينج ٧٧٧ ، وهي طائرة عملاقة ، وكانت ممتلئة عن آخرها بالركاب ، معظمهم من الإيرانيين .

كانت السيدات والفتيات الإيرانيات ترتدين الملابس العصرية المكشوفة بدرجة مثيرة للانتباه . وكأنهن يعوضن الحرمان من تنفس أجسادهن الهواء الطبيعي بسبب ما يفرض عليهن من ارتداؤه ملابس شديدة المحافظة ، وهي ملابس سوداء ، طويلة (الشادور) وغطاء رأس مميز ، وإن لم يشبه أغطية الرأس التي انتشرت في مصر خلال العشرين عاما الأخيرة والتي أصبحت مثيرة للسخرية بسبب تباين أشكالها وألوانها بدرجة كبيرة ، مع اختلاف طريقة وضعها على الرأس بحيث لم تعد زيا «إسلاميا» كما يقال ، بل مجرد تقليد أو وسيلة للتحايل حتى لا يقال إن هذه المرأة أو تلك الفتاة ، متبرجة أو «ليست منا» . وكانت سيدة مصرية فاضلة قد لفتت نظري إلى أن المدعو عمرو خالد كان هو الذي بدأ الترويج لما يسمونها ملابس «إسلامية» في مطلع التسعينيات ، قد دعا الفتيات المصريات إلى ارتداء ما يشأن من الملابس العصرية شريطة ارتداء غطاء الرأس الذي يطلقون عليه خطأ (الحجاب) ، لتمييز أنفسهن عن المسيحيات المصريات ، وهي من أوائل الدعوات الطائفية التي شقت الساحة الوطنية وساهمت في تعزيز الاحتقان الطائفي المتفاقم في مصر .

كالعادة قبيل هبوط الطائرة إلى أرض مطار طهران أو مطار الإمام الخميني ، قامت النسوة والفتيات بتغطية رءوسهن وارتداء الملابس

الطويلة السوداء التي تعكس نوعا من التجهم والصرامة ويجعل الشارع الإيراني يبدو وكأنه يعيش حالة حداد عام وهي قائمة بالفعل منذ مقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ثم الإمام الحسين ، مع انتظار الإمام «الغائب» ، الإثني عشر . ويقال إن الكثير من الأسر الإيرانية المتشددة تضع صحنا فارغا ومقعدا فارغا أمام مائدة الطعام في انتظار عودة الإمام الغائب في أي وقت لكي يطرق بابها ويتناول طعام العشاء مع أفرادها الطعام ، وهو ما أراه جنونا ما بعده جنون!

وصلت في الثامنة والربع مساء إلى العاصمة الإيرانية . كنت أترقب بالطبع أن أجد في انتظاري ، كما في المرة السابقة ، مندوب المهرجان يستقبلني ويأخذني إلى قاعة كبار الزوار ، حيث يقدمون لي القهوة والحلوى الإيرانية في انتظار الانتهاء من إجراءات استلام حقيبتي والاتيان بها إلى حيث أجلس ، غير أن شيئا من هذا لم يحدث . فلم يكن هناك أحد في استقبالي عند نزولي من الطائرة ، ولا طول الطريق في اتجاه الخروج من الدائرة الأمنية إلى حيث يوجد المستقبلون والمودعون . وأمام بوابة الخروج من داخل منطقة الجمارك بعد أن تمكنت بنفسي من انتشال حقيبتي أخذت أتساءل في حيرة : ماذا لو لم يكن هناك أحد في انتظاري؟ ماذا سأفعل؟ لم تكن معي صورة من خطاب الدعوة ، ولا من الرسائل الالكترونية المتبادلة بيني وبين إدارة المهرجان ، كما لم يكن معي رقم تليفون المهرجان فلم يكونوا قد زودوني بأي تفاصيل . وكنت أعتمد على أن الأمور ستسير كما سارت قبل عشر سنوات عندما وجدت شيرين ناديري في انتظاري .

توجهت إلى حيث تقف مجموعة ممن تصورت أنهم من رجال الأمن في المطار ، فقد كانوا يرتدون زيا رسميا عسكريا . لكنهم لم

يكونوا من رجال الشرطة بل من الخدمات الطبية . سألت أحدهم عن مندوب مهرجان السينما ، فقال لي إن المندوبين جميعا يقفون خارج بوابة الخروج من المنطقة الجمركية . وأضاف إنه يتعين علي الخروج والبحث عن هذا المندوب في الخارج ، وإنني إذا لم أجده يمكنني أن أعود إليه وهو سيتصرف . كنت في حالة قلق لأنني لا أدري كيف سأتصرف فلا معرفة لي باللغة الفارسية ، ولا يمكنني ببساطة التوجه بسيارة تاكسي إلى فندق من الفنادق والانتظار هناك فلن يهتم بي أحد طالما أنني لا أحمل أي معلومات أو طرق واضحة للاتصال بمسؤولي المهرجان .

أخذت ألعن ساعة قبولي تلك الدعوة التي رافقها إلحاح شديد من جانبهم بعد أن اعتذرت مرتين . كانوا يريدونني أن أحضر قبل خمسة أيام من موعد افتتاح المهرجان لأشاهد الأفلام المشاركة في المسابقات الأربع مع باقي أعضاء لجنة التحكيم ، والانتهاء من المشاهدة والتوصل للنتائج ربما في نفس يوم الافتتاح أو حتى قبله ، ثم قضاء الوقت في متابعة أعمال المهرجان ، والظهور أمام كاميرات التليفزيون والإذلاء بأحاديث للإذاعات المختلفة ، فقد كانوا عادة حريصين كل الحرص ، على استغلال الضيف الذي يحل عندهم أكبر استغلال بدعوته للتحدث إلى أجهزة الإعلام المختلفة دون انقطاع تقريبا ، وكنت أتحايل بشتى الطرق لكي أعثر على طريقة أفلت بها من هذا الحصار الإعلامي المرهق خاصة وأن أسئلة الصحفيين هناك كانت عادة تدور داخل نفس الدائرة مع تكرار الأسئلة نفسها ، بحيث يصبح مطلوبا منك تكرار ما سبق أن قلته لتوك أمام قناة تليفزيونية أخرى ، وهو ما أجده سخيفا وشكليا ولا يشكل أي قيمة . وأحيانا لا يكون من يحاورك يعرف عنك

شيئا تقريبا ، فالمهم عنده أن يسجل معك أي كلام عن المهرجان ، ولابد أن يكون حديثك إيجابي حتى لو لم تكن سعيدا بالمهرجان نفسه ، وإلا لاعتبرت قليل الذوق مثلا . وهذا شأن ما يحدث في جميع المهرجانات التي تقام في الجزء الخاص بنا من العالم .

تائه في المطار

كنت قد تمسكت بالحضور قبل يومين فقط من افتتاح المهرجان لا قبل خمسة أو ستة أيام كما أرادوا ، فلم أكن أرحب بأن أقضي كل هذا الوقت الطويل في مشاهدة أفلام أعرف مقدما أن معظمها أفلاما ساذجة . وقد قضينا نحن أعضاء لجنة التحكيم الدولية (وكنا ستة أعضاء بدون رئيس) الوقت في المشاهدة والتصفية والمناقشات وتمكنا من التوصل إلى النتائج قبل ليلة من الختام وانتهى الأمر . ولكن التوصل للنتائج لم يكن بسيطا أو سهلا كما قد يتبادر إلى الأذهان .

كان من الواضح أن هناك رغبة في أن يكون هناك عضو تحكيم من مصر . وكان الرئيس المصري الجديد- أيامها- محمد مرسي ، قد قام بأول زيارة يقوم بها رئيس مصري إلى طهران لحضور مؤتمر قمة دول عدم الانحياز ، وقد اعتبر الإيرانيون الزيارة مؤشرا على انفراجة في العلاقات المتوقفة بين الدولتين منذ وصول الإسلاميين إلى السلطة بزعامة آية الله الخميني عام ١٩٧٩ ، وكان الرئيس الإيراني وقتها هو محمد أحمدي نجاد المعروف بتشدده وانغلاقه الفكري وتصريحاته الهزلية ، وربما يكون التشابه بينه وبين محمد مرسي في المواقف والتصريحات المثيرة للسخرية ، بل والضحالة السياسية ، هي ما كان يجمع بين الرجلين . وعلى أي حال هكذا شاءت الأقدار وقتها ، أن أجد نفسي

في إيران في الوقت الذي كانت مصر تشهد اضطرابات كثيرة في الشارع بسبب سياسة الإخوان المسلمين العقيمة الكارثية التي كانت تنذر بعواقب وخيمة .

في المطار وقفت حائرا مترددا لبرهة قبل أن أحسم أمري وأغادر صالة جمع الحقائب مرورا بأجهزة الكشف عليها ثم أغادر البوابة لأجد عددا من المندوبين واقفين يرفعون لافتات تحمل أسماء كثيرة لكن اسمي لم يكن من بينها . هل كان الرجل يكذب علي؟ هل اختفى المندوب لكي يذهب في أمر ما لقضاء حاجته مثلا ثم يعود؟ ظللت حائرا لا أدري ماذا أفعل قبل أن أتوجه إلى مكتب استعلامات المطار وأشرح للموظفة المسؤولة الموقف . طمأنتني هي في هدوء شديد والابتسامة تتسع على وجهها ، بما يوحي بأن الأمر بسيط وأنه مر عليها الكثير من أمثالي السذج الخائفين . كانت هادئة تتمتع بجمال واضح دون ابتذال أو مبالغة في الماكياج على عادة نساء وفتيات هذه البلدان . وكانت ثقتها ونغمة صوتها الرخيم تمنحني الثقة . وقد أجرت اتصالا هاتفيا مع المسؤولة عن إذاعة المطار وطلبت مني أن أنتظر بالقرب منها ، وسرعان ما سمعت اسمي يتردد مع عبارة باللغة الفارسية ، واضح أنها تنبه من ينتظرني إلى أنني موجود عند مكتب استعلامات المطار . ولكنني عدت للتأكيد على موظفة الاستعلامات ضرورة ذكر مهرجان طهران للأفلام القصيرة ، فأومأت برأسها مؤكدة أن هذا قد حدث بالفعل . انتظرت ولكن بلا جدوى . فلم يحضر أحد لاستلامي بعد!

كررت رغبتي في إعادة إذاعة النداء فجرى اتصال تليفوني آخر ثم نودي عن طريق إذاعة المطار على المندوب الذي ينتظر حضرتي . وبعد دقائق حضر شاب أسمر نحيل وأخذ يبدي اعتذاره الشديد مبررا ما

حدث بأنه كان يقف على يمين بوابة الخروج على العكس من جميع المندوبين الذين كانوا ينتظرون على يسار البوابة ، كما اعتذر متذرعا بما وصفه بـ «الظروف الراهنة في البلاد» ، دون أن أدري ماذا كان يقصد بالضبط ، لكني فهمت أن الأمر يتعلق بالتهديدات الإسرائيلية بضرب إيران ونسف منشآتها النووية ، وهي تهديدات (فشنك) يعرف العالم كله أنها تهديدات عنترية وهمية تستخدمها إسرائيل فقط من أجل ابتزاز تعاطف العالم والحصول على مزيد من المساعدات العسكرية من الولايات المتحدة تحديدا . المهم أن المندوب (السامي) قال لي إن الأوضاع المتوترة هي السبب في منع المندوبين الرسميين من التواجد داخل المطار عند خروج المسافرين من الطائرات كما كان يحدث في الماضي .

وضع الشاب حقيبتي في سيارة تشي حالتها بقدمها وسوء استخدامها ، وركبت معه وكان اسمه محمد ، للذهاب إلى الفندق في وسط المدينة . استغرق المشوار نحو ساعة ثم فوجئت عندما وصلت بأن الفندق هو نفسه الفندق الذي أقمت فيه قبل عشر سنوات ، ويدعى «فندق هويزة» ، وقد أطلقت عليه أنا على سبيل التقريب «فندق عويضة» فلم يكن في مستواه يرقى إلى فنادق الدرجة الثالثة .

إجراءات تسجيل الإقامة انتهت بسرعة ثم حصلت على مفتاح غرفتي التي توجد في الطابق الأخير ، وفوجئت مفاجئة أخرى خيالية عندما وجدت أنها في نفس الممر ونفس الطابق ، بل وأنها الغرفة نفسها التي سبق أن أقمت فيها قبل عشر سنوات . وعندما تفقدتها وجدت أنها تطل على نفس المبنى الكئيب المرتفع ، وكان الواضح أنه لم يشملها أي نوع من التحديث أو التجديد شأن الفندق كله . هل

كان الأمر مجرد مصادفة بحت . كان هذا سؤالا فلسفيا بالطبع . وفي إيران يجب أن تسأل نفسك الكثير من الأسئلة الفلسفية .

وجدت نفس الحمام البائس الذي يفتقد إلى رأس لما يعرف بـ «ألدوش» يمكن أن تعمل بشكل طبيعي . هل من المعقول أن الحصار الدولي المفروض على إيران يعيق حصولها على أشياء بسيطة من الخارج مثل رأس الدوش؟ وهل يعجز الإيرانيون عن صنع مثل هذه الأشياء؟ وكيف إذن تصل هذه السيارات الحديثة التي رأيتها تسير في شوارع طهران؟ وإلى أين تذهب كل هذه العائدات الهائلة من تصدير النفط؟ وهل يعجز النظام الإيراني ، عن شراء ما يلزم من دول أخرى معروفة تتعامل معه؟

كل هذه الأسئلة كانت وظلت دائما تلح علي . كان عندي بعض «التصورات» لا الإجابات . من ضمن هذه التصورات مثلا أن النظام الإيراني الذي دام بقاؤه في السلطة حتى تلك اللحظة ٣٣ عاما ، كان ينفق المليارات على الأمن ، أي على تأمين النظام ، تماما مثل أي نظام «شمولي» مغلق ، يتربع على قمته مجموعة من رجال الدين يملكون إصدار الفتاوى حول كل ما يشمل من مناحي الحياة ، تعاونهم في إحكام سيطرتهم قوات أمنية تتضخم باستمرار ، على رأسها ما يعرف بـ«الحرس الثوري» الذي يقوم على الولاء العقائدي المطلق تماما كما كان الحرس الأحمر خلال ما عرف بـ«الثورة الثقافية» في الصين في ستينات القرن الماضي . ثانيا هناك بالطبع البرنامج النووي الإيراني المثير للجدل الذي تدور حوله الشكوك ، وما إذا كان يهدف إلى صنع أسلحة نووية ، وهو موضوع ترغب إيران ، رغم نفيها المتكرر ، أن تبقيه دائما ، تحت الطاولة ، أي كمسألة محتملة ، والدليل ما يتكرر في تصريحات

المسؤولين الإيرانيين حول حق الدول (المستضعفة) في الدفاع عن نفسها أمام الدول «المستكبرة» . . حسب التعبيرات الخومينية المأثورة التي أصبحت الآن محفورة في ضمير كثير من الإيرانيين بمن فيهم الذين يطلق عليهم الإصلاحيون .

ذهبت في اليوم الثاني لكي أنضم إلى لجنة التحكيم . وضعوني في سيارة عادية من طراز بيجو ٤٠٥ ، وذهبنا إلى مجمع سينمائي بعيد نسبيا عن وسط المدينة يضم أربع قاعات للعرض السينمائي ، مع قاعة صغيرة خاصة تقع تحت الأرض هي التي كانت تعرض فيها الأفلام للجنة التحكيم .

دلفت إلى القاعة أثناء العرض . وكان باقي أعضاء اللجنة يشاهدون الأفلام منذ أربعة أيام ، فقد استجابوا للدعوة التي وجهت إليهم والتي تلخصت في طلب حضورهم قبل الافتتاح بستة أيام في حين أنني أفلت من هذا المصير السيئ .

الممثل العملاق

التفت الجميع إلي مرحبين ، خاصة العضو الإيراني في اللجنة ، الذي عرفت فيما بعد أنه ممثل مشهور كثيرا في إيران ، وهو أحمد نجفي . كان نجفي رجلا طويلا فارعا وسيما ، يجيد الانجليزية ، وكان قد درس الاقتصاد في كاليفورنيا بالولايات المتحدة قبل أن يعود إلى إيران عام ١٩٧٦ ، ويبدأ العمل في السينما ويقفز ليصبح من أهم المتحكمين في صناعة السينما في إيران ، فقد احتل منصب رئيس المجلس الأعلى لشؤون السينما ، ولكنه كان شديد التواضع ، يتمتع بروح المرح وخفة الظل والقدرة على السخرية ، ولم يكن يبدو لي متشددا بأي حال ، بل

كان يرحب بما أطرحه عليه من آراء «انتقادية» لنظام حكم الملالي ، وإن لم أتورط بالطبع في الإفصاح عن موقفي السياسي الحاسم في هذا الموضوع ، بل كنت أستخدم المدخل إلى الموضوع من السينما ، أي من العامل المشترك القائم بيننا . ولم أكن أفهم قط كيف يمكن لفنان ومبدع أن يخضع فنه لنظام يقمع البشر . وكانت هذه الفكرة واضحة تماما في مناقشاتي المستمرة الممتدة مع أحمد نجفي .

كان نجفي كثيرا ما يغادر قاعة العرض الصغيرة لكي يحظى باستراحة للتدخين ، فقد كان مدخنا شرها ، وقد أخبرني أنه ينتمي أصلا إلى خورامشهر في اقليم خوزستان ، الذي يقيم فيه عدد كبير من عرب إيران . وكان يتحدث أيضا بعض العربية ، ولكنه كان طليقا في الانجليزية وأيضا في اللغة الأوكرانية فقد كان متزوجا من سيدة من أوكرانيا تعرف عليها أثناء تصوير فيلم من الإنتاج المشترك هناك . وقال لي إنه يسافر كثيرا لأن زوجته التي أنجب منها أبناءه ، تقيم حاليا في أوكرانيا ، وكان نجفي كما علمت منه ، يتمتع بهامش كبير من الحرية قياسا إلى غيره من الإيرانيين . لذلك استطعت أن أفهمه تماما عندما بدأت أناقشه حول وضع السينما الإيرانية والرقابة المشددة (الأخلاقية والسياسية) المفروضة عليها . وكان رأيه الذي عبر عنه بقوة ، وهو الذي عمل في السينما في زمن الشاه وما بعده- أن الأفلام الإيرانية في الزمن الحالي أفضل مائة مرة عما كانت في الماضي ، رغم الرقابة ، وأن ٩٠ في المائة من الأفلام التي كانت تنتج في زمن الشاه كانت أفلاما تافهة تنتشر فيها مناظر القتل والعنف والقوادة والسرقة . وكان هو كممثل يشعر بالتآلف التام مع الوضع السينمائي في إيران ، ويرى وجوده أفضل ضمانا لإنتاج الأفلام الجادة . لكنه حاول بالطبع أن يقلل

من شأن المخرجين الآخرين المشهورين مثل محسن مخمالباف وبهمن غوبادي وأصغر فرهادي الذين يعتبرون من المنشقين ، وكان يبدو عليه الضيق عندما كنت أشير بإعجاب إلى أفلامهم ، وكنت ومازلت من المعجبين بفيلم «انفصال» لفرهادي الذي حقق للسينما الإيرانية ما لم يحققه فيلم آخر ، فقد حصل على جائزة الأوسكار لأفضل فيلم أجنبي . وها هو يعود ليحصد الجائزة مجددا عن فيلمه الأخير «البائع» الذي ليس من الممكن اعتباره فيلما مواليا بأي حال . وعندما بحثت عن الأفلام التي قام بتمثيلها أحمد نجفي وجدت أنه لم يعمل مع أي مخرج محسوب على حركة السينما الجديدة في إيران ، لكنه تعاون في بدايته مع المخرج الإيراني المخضرم مسعود كيميائي كمساعد مخرج ، ثم قام ببطولة فيلمين من أفلامه في أوائل التسعينات . وكيميائي هو مخرج فيلم «البقرة» الشهير الذي كان أول اختراق كبير للسينما الإيرانية فيما وراء الحدود . وقد أنتج في زمن الشاه عام ١٩٦٩ ومنع من العرض لمضمونه الرمزي .

رغم عدم اقتناعي بما كان يسوقه من مبررات إلا أنني كنت أشعر بنوع من الارتياح في التعامل مع نجفي فقد كنت أستطيع أن أدير معه حوارا حقيقيا بذهنية منفتحة ، ودون أن أخشى شيئا فقد كان يفهم ما أقوله جيدا وهو الذي عاش لسنوات في الغرب (الأمريكي) وكان يعرف ويستوعب من أنا ، ومن أين أنا قادم ، وكان يضفي على مشاهداتنا في لجنة التحكيم جوا لطيفا مليئا بالمرح ، فقد كان يلقي النكات ويروي الكثير من الحكايات الطريفة المسلية . وباختصار كانت صحبته ممتعة ، وكنا أحيانا نذهب جميعا لتناول طعام العشاء في الخارج ، برفقة المسؤول عنا بالطبع ، وبصحبة المترجم الأمين «محمد» وهو نفس الشاب

الذي استقبلني في المطار ، ثم اكتشفت بعد مدة قصيرة من وصولي أنه كان مكلفا بمرافقة لجنة التحكيم والترجمة لأعضائها من الإنجليزية إلى الفارسية ، وكان هناك بالطبع مرافق آخر ذو لحية خفيفة ، كان دائم التجهم والعبوس والشعور بالقلق ، فعرفت على الفور أنه «المسؤول الأمني» عن اللجنة . لكن نجفي لم يكن يأتي كل يوم لمشاهدة الأفلام ، بل كان أحيانا يتغيب ، بسبب مسؤوليته في جهاز السينما الحكومي . وكان الواضح من أحاديثه معي أنه دائم السفر والتحرك ، وأنهم يسمحون له بادخال ما يشاء من الخارج ، فأدركت أنه من أبناء «الطبقة الحاكمة» . والغريب أنه تحدث كما قرأت بعد ذلك ، عن قرار منعه من العمل عام ١٩٩٧ ، دون أن يعرف السبب ، ثم وبعد نجاح أحمدي نجاد ووصوله إلى الحكم ، تم الغاء قرار المنع وعاد للعمل ، بل وصعد لكي يتولى أعلى منصب سينمائي رسمي في البلاد ، رغم أنه لم يكن يبدو عليه أي سمة من سمات التشدد كما أشرت من قبل .

كانت لجنة التحكيم مكونة (حتى الآن) من ستة أعضاء ، وتغيب عن الحضور العضو السابع . إثنان من الإيرانيين ، وأربعة من الأجانب كلهم مديرو مهرجانات سينمائية هم شاب برتغالي يدعى فرنشيسكو مانويل ، كان يدير مهرجانا محليا صغيرا من نوع مهرجانات «القطاع الخاص» . وكان والده ، وهو رجل أعمال من الأثرياء ، هو الممول الأساسي لهذا المهرجان . لكن هذا الشاب لم يكن طبيعيا ، فقد كان أقرب ما يكون إلى شخص مدمن . فهو لا يكف عن التدخين ، وعن إبداء الرغبة في الخروج إلى الشارع بغرض التدخين ، واحتساء القهوة السوداء ، وكان يحتسي منها عشرات الأقداح يوميا ، ولكن الأخطر ، أنه كان شديد التوتر والعصبية ، وكان يفتعل الكثير من المشاكل

والمشاجرات التي وصلت إلى حد تبادل الشتائم والاتهامات مع العضو الثاني (الإيطالي) في اللجنة ، وهو إيميليو ديلا شيزا وكان على العكس منه رجلا هادئا شديد الكياسة لكنه يمكن أن يفقد أعصابه عند الاستفزاز خاصة عندما وصفه صاحبنا البرتغالي بأنه عضو في عصابات المافيا (مافيوزي) .

كان إيميليو هذا مخرجا ومديرا للتصوير السينمائي ، كما أخرج بعض الأفلام الموسيقية ، وعمل مساعدا للإخراج مع كبار المخرجين الايطاليين ، وهو متاثر بوجه خاص بتجربة المخرج الهولندي التسجيلي الكبير يوريس إيفانز الذي عرف باسم «الهولندي الطائر» ، ثم أسس وأصبح رئيسا لمهرجان سنوي للموسيقى والسينما ، يقام في مدينة إيطالية صغيرة هي «بادوا» بالقرب من فينيسيا . ويطلق على مهرجانه «مهرجان النهر الدولي» وهو يحصل على دعم من البلدية وبعض رجال الأعمال . وقد دعاني إيميليو فيما بعد لرئاسة لجنة التحكيم الدولية في مهرجانه ، لكنني أعتذرت لضيق الوقت . وقد امتدت صداقتنا بعد ذلك وأصبحنا نتقابل سنويا في مهرجاني برلين وفينيسيا ونتبادل الأحاديث والذكريات الطريفة عن «التجربة الإيرانية» .

كان إيميليو على العكس تماما من فرنشيسكو ، يتميز بهدوئه وحكمته ، لكنه اقترح رغم تجربته الطويلة ، بكثير من التواضع ، أن أرأس أنا اللجنة وأدير مناقشاتها ، وقد وافق الجميع ووافقت وبدأنا العمل على هذا الأساس . أما العضو الثالث «الأجنبي» فكان المخرج الهندي «سارو» وهو مخرج أفلام التسجيلية الطويلة ، وكان شابا متواضعا ومتعاونا وكان يجيد الحديث بالانجليزية ، ويبدو مثقفا ، ولكنه لم يكن- لحسن حظه- يدير أحد المهرجانات .

كان نقيض هؤلاء جميعا يتمثل في العضو الإيراني الثاني في اللجنة وهو المخرج محمد رضا إسلامو ، ولم أكن أعرف له أفلاما . وإسلامو رجل طويل القامة ، ممتلئ الجسم ، يطلق لحيته دلالة على انتمائه للجناح الديني المتشدد ، وكان يتحدث بحماس شديد ولا يفوت أي فرصة للإشادة بالوضع في إيران ، وبتجربة الحكم الإسلامي ، وكان لا يرتاح عندما يتطرق الحديث إلى السينمائيين الإيرانيين الذين أعرفهم وأعرف أفلامهم من خلال ما أشاهده في المهرجانات السينمائية الدولية ، فقد كان يتحفظ عليهم باعتبارهم «لا يمثلون الوجه الحقيقي» للسينما الإيرانية ، فهم لم يكونوا من العناصر «المتماثلة» مع النظام . وقد ثبت من خلال المناقشات أنه كان سينمائيا «مؤدلجا» أي عقائديا ، وكان شيعيا لا يخفي تعصبه للفكر الشيعي الطائفي ، ولكنه لم يتجرأ قط ويشن أي هجوم على أحد من مخالفيه ، بل كان يتحدث بفخر عن الإسلام طبقا لقناعاته ، ويروي لنا كيف ان الغربيين يجب أن يقتربوا أكثر من الإسلام ليتعرفوا عليه وعلى عظمته وتسامحه . وفي أحد الأوقات كنت أضحك سرا مع إيميليو عندما كان يشتد به «حماس الداعية» فيتجه خلال مناقشاته الطويلة العقائدية ، محاولا إقناع إيميليو وفرنشيسكو وسارو لاعتناق الإسلام ، فلابد أنه كان يراهم من «الكفار»!

انضمت إلينا بعد يومين سيدة من تاترستان ، طويلة أستطعت أن ألمح شقرة شعرها من تحت غطاء الرأس الذي ارتدته نزولا على التعليمات المفروضة على جميع الأجنبيات اللاتي يأتين إلى إيران ، وقد قالت لي فيما بعد إن النساء في بلدها لا يضعن غطاء الرأس أي

أنه ليس مفروضا عليهن كماهو الحال في إيران . وكانت هذه السيدة ، وتدعى سفيتلانا يونوسوفا ، قد جاءت لكي تنضم إلى لجنة تحكيم أخرى لمسابقة مخصصة لأفلام البلدان الإسلامية ، والطريف أنهم ضموني أيضا إلى هذه اللجنة باعتباري أنتمي إلى دولة مسلمة ، دون أن يكونوا قد أبلغوني مسبقا بهذه المهمة المزدوجة ، كما انضم إلينا «محمد إسلامو» لضبط إيقاع هذه اللجنة .

المشكلة الرئيسية أننا كنا نعجز عن الحديث مع سفيتلانا ، فلم تكن تتحدث أي لغة من اللغات المعروفة ، عدا الروسية ولغة بلادها الأصلية . وكنا نتخاطب معها باستخدام لغة الإشارة ، لكنها رغم ذلك كانت تنصت جيدا لأحاديثنا ، وعندما كنا نضحك كانت تشاركنا الضحك ، وكانت في الحقيقة لا تكف عن الضحك ، وكثيرا ما بدا لي أنها كانت تفهم كل ما كنا نقوله . وقد فوجئت بأنها كانت تقطن في الحجرة المقابلة لحجرتي في الفندق . وكان أحيانا يتصادف أن نصعد معا في المصعد ، وكنت أشعر بالحرج من وجودي معها داخل المصعد ، وأرى بأن من الخطأ التورط في موقف كهذا حتى لا يظن أحد أننا صاعدين معا ، ففي هذه البلدان يجب على المرء أن يحسب حساب كل خطوة من خطواته . . ولكن الغريب أنها لم تكن تبالي على الإطلاق ، بل كانت تتصرف بشكل طبيعي ومتحرر ، كأنها في بلدها تماما ، باستثناء مسالة غطاء الرأس والملابس الطويلة التي كانت ترتديها وكانت تبرز بشكل واضح الطراز الخاص المميز لملابس النساء في الجمهوريات الإسلامية الصغيرة الواقعة في آسيا الوسطى .

حفل الافتتاح

كان حفل افتتاح المهرجان عجيبا حقا . كان المسرح الذي أقيم فيه الحفل هو مسرح دار الأوبرا الإيرانية التي شيدت في زمن الشاه ، وكانت تتميز برونق وسحر أرستقراطي خاص ، وكان بناؤها يجمع بين عمارة النهضة والعمارة الإسلامية . ولقد أجلسوني في الصف الأول بل في منتصفه تماما . ووجدت نفسي محاطا بعدد من المسؤولين منهم من كان يبدو عليهم سمت رجال الدين الشيعة بسبب نوع الملابس التي كانوا يرتدونها ، وخاصة العمائم الشهيرة . وقد ارتج علي الأمر فلم أكن أعرف هل أنا في مسجد أم في مسرح . فقد بدأ حفل الافتتاح بأن صعد مقرئ شاب إلى خشبة المسرح وجلس على كرسي أمام ميكروفون ، وأخذ يقرأ آيات الذكر الحكيم بينما ران على القاعة صمت مطبق .

وبدأت المعاناة الشاقة عندما بدأ المسؤولون يصعدون واحدا وراء الآخر ، إلى المنصة ، ليلقي كل منهم خطبة عصماء مليئة بالكلمات الرنانة التي كان الجمهور يقاطعها بالتصفيق والتهليل ، وكانت كل كلمة من كلمات هؤلاء تستغرق وقتا طويلا جدا وتبدو بلا نهاية ، وكلما كان المسؤول يشير أو يذكر خلال كلمته الرسول الكريم (صلعم) كان الحاضرون يهبون واقفين ويهتفون في نفس واحد (اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد) ، ثم يعودون في حركة متناغمة منسقة للجلوس في مقاعدهم . وكنت أتطلع إليهم في قلق بالغ ، فقد شعرت بالحيرة الشديدة : هل أفعل كما يفعلوا أم أتجاهل الأمر وأظل جالسا في مقعدي باعتباري «أجنبيا» غريبا . كان يجلس بالقرب مني شيخ معمم وكان يوجه نظراته إلي والابتسامة لا تفارق شفتيه . وشعرت بالحرج

فأصبحت أنهض معهم وأجلس معهم ، على الأقل حتى لا يبدو منظري شاذا . ولم أعرف ماذا كان يفعل زملائي باقي أعضاء اللجنة من الأجانب لكني لمحت بعضهم منهمكين في التقاط الصور وتسجيل هذا الحدث الخارق بكاميرات الفيديو الصغيرة الموجودة في أجهزة التليفون المحمول .

وكان آخر من صعد إلى خشبة المسرح رئيس المهرجان السيد مزرخاني ، وكان شابا مهذبا دمث الخلق ، غير أن صديقا لي من عرب إيران ، كان قد راسلني عندما كنت أنشر كتاباتي في موقع بي بي سي العربي ، لمحني ذات مرة في إحدى ردهات المجمع السينمائي واقفا مع السيد مزرخاني ، نحاول التواصل باللغة الانجليزية التي كان زعم مزرخاني أنه لا يعرف منها سوى كلمات بسيطة . فرحب بي صديقي «العربي» ولكنه سألني بنوع من الاستنكار : ماذا تفعل مع هذا الشخص؟ فقلت إنه رئيس المهرجان ، فرد بحدة واستنكار : وما علاقته هو بالسينما لكي يكون رئيسا للمهرجان أو لأي مهرجان؟

الطريف أنني اكتشفت فيما بعد أن السيد مزرخاني هذا يجيد الحديث بالانجليزية وباللهجة الأمريكية أيضا شأن كل ما قابلتهم من الإيرانيين المتحدثين بالانجليزية في إيران ، ومنهم من يجيدها إجادة تامة بهذه اللهجة رغم أنه لم يسبق لهم الذهاب إلى أمريكا ولا حتى على سبيل الزيارة . ولكني لم افهم السبب الذي جعل مزرخاني يتظاهر بأنه لا يعرف الإنجليزية . ففي إيران لن تستطيع دائما العثور على إجابات لكل تساؤلاتك .

أعود إلى مأزق حفل الافتتاح ، فبعد أن انتهت كلمة السيد مزرخاني ، بدأ تقديم لجان التحكيم : وقد بدأوا أولا بلجنة تحكيم

المسابقة الوطنية للأفلام الإيرانية ، وصعد أعضاؤها الى المسرح ثم نزلوا ، ثم جاء دور لجنة التحكيم الدولية ، وكانوا قد صوروا مع كل منا بعض اللقطات في مواقف مختلفة أثناء المهرجان ، والآن بدأوا في عرض هذه الشرائط لكل عضو بالترتيب على شاشة كبيرة مع إعلان إسمه إلى أن يصعد على المنصة لتحية جمهور الحاضرين ومصافحة رئيس المهرجان ثم يقف بجوار زملائه . وبعد أن عدنا جميعا إلى مقاعدنا ، بدأ مذيع الحفل ينادي على أعضاء لجنة تحكيم مسابقة أفلام البلدان الآسيوية الإسلامية ، وكان اسمي هو الأول ، فوجدت نفسي مضطرا مرة أخرى للصعود على المسرح وتحية الجمهور . وكان الجمهور في كل مرة يصفق بحرارة كما لو كانوا يعتبروننا من نجوم السينما ، لكن على أي حال هذه هي طبيعة الشعب الإيراني وغيره من شعوب المنطقة ، فهو يتميز بالمجاملة خاصة وأننا ضيوف رسميون على المهرجان «الرسمي» فلا يوجد مهرجان سينمائي أو غير سينمائي يقام في إيران بمعزل عن الدولة أو مستقل عنها ، حتى لو كانت الجهة التي تقيمه- كما هو الأمر في حالة مهرجان طهران للأفلام القصيرة هذا- جمعية سينمائية أهلية ، فهي تحصل على الدعم والتمويل من الحكومة ، والبلدية هي التي تعين رئيسها ، وتدعمها وزارة الثقافة وتشرف على عملها . ففي إيران لابد أن تكون من «أهل الثقة» لكي تتولى رئاسة جمعية أو مهرجان أو يسمح لك أصلا بالعمل السينمائي . والطريف أن في إيران قانون مشابه لما هو معمول به في الصين الشيوعية ، فقد منعت السلطات «الثقافية» المخرج جعفر بناهي مثلا من العمل في السينما لعدة سنوات بعد أن أخرج فيلم «تسلل»!

بعد أن انتهت كلمات المسؤولين وتقديم لجان التحكيم ، صعدت

إلى خشبة المسرح فرقة موسيقية إيرانية عجيبة ، يحمل قائدها آلة غريبة هي عبارة عن مزيج من القربة والناي ، ولكن بدلا من الناي الواحد كان ينفخ في اثنين في وقت واحد ، مع الطبول والدفوف وآلات أخرى واضح أنها من التراث الإيراني . والحقيقة أن ما قدمته هذه الفرقة كان أكثر من رائع ، وكان العازف الأول يتحرك على المسرح يتحرك ويتلوى وهو ينفخ في آلته العجيبة التي كانت تصدر صوتا مرتفعا يهيمن على قاعة المسرح تماما . وبدا لي انني كنت أشاهد وأستمع إلى فرقة من فرق الغجر ، ولكني عرفت بعد ذلك من المرافق أنها فرقة شهيرة من الجنوب الإيراني .

بعد نهاية حفل الافتتاح وفي الطريق إلى خارج دار الأوبرا (الشاهنشاهية) ألقى صحفي إيراني شاب القبض علي ، فقد جذبني من ذراعي مصرا على ضرورة اجراء مقابلة صحفية قصيرة معي في ركن هادئ ، وقدم لي نفسه باعتباره ممثلا لوكالة الأنباء الإيرانية . وكان يحمل بالفعل بطاقة صحفية بهذا المعنى . وكان أول ما سألني سؤال عن مغزى وصول محمد مرسي لرئاسة الجمهورية في مصر وما ينتظر أن يعقب هذا من تغيير في العلاقة بين القاهرة وطهران . قلت له بوضوح إنني لست ممثلا لوزارة الخارجية المصرية ، ولا لمصر ، وليست لي أي صفة رسمية ، بل أنا رجل مستقل تماما أمثل نفسي فقط ، وليست لي علاقة بالسياسة ، وطالبته بعدم توجيه أسئلة سياسية لي في مناسبة سينمائية ، فألح علي وكان يمسك في يده بورقة دون فيها بعض الأسئلة ربما أيضا بتوجيه من رؤسائه . كنت في هذه الفترة- وما بعدها أيضا- أشعر بغضب شديد مما يفعله مرسي وجماعته في مصر ، وخاصة تصريحات مرسي المستفزة للناس جميعا ثم اعلانه تحصين

قراراته ضد أي أحكام قضائية أي أنه أعلن نفسه ديكتاتورا . وعندما شعرت بأن أسئلة الصحفي الإيراني تحاول أن تجرني لابداء نوع من الترحيب بما فعله مرسي سواء في زيارته إلى إيران ، أو بما يعتبرونه في إيران نقلة «ديمقراطية» في مصر ، قررت أن أقول له حقيقة ما أشعر به بمنتهى القوة ، فقلت إنهم في إيران يبالغون كثيرا في أهمية وصول مرسي والإخوان المسلمين إلى السلطة ، ولابد أن يعرفوا أن الإخوان فقدوا الكثير جدا من شعبيتهم ، وأن مصر ليس من الممكن أن تحكمها حكومة إسلامية ، فلكل دولة تاريخها الخاص ، وأنه ينبغي على الإيرانيين أن يؤيدوا ويدعموا ما يطالب به الشعب المصري وهو قيام دولة مدنية ديمقراطية حديثة تكفل الحريات العامة للجميع ، دون تمييز ، وأن هذا النوع من الحكم هو الذي يمكن أن يستمر ويزدهر وليس نظاما للحكم يقوم على التفرقة بين المواطنين ، وعلى فكرة الإسلام السياسي . وتساءلت أيضا بنوع من الغضب : هل أصبحت إيران الشيعية فجأة من مؤيدي الاخوان المسلمين وهم من غلاة السنة!

استمع لي الصحفي دون أن يعقب أو يعلق ، ثم بدأ يوجه لي بعض الأسئلة التي تتعلق بالمهرجان وبما يتميز به وبدوري في لجنة التحكيم . وانتهى الأمر على سلام ، ولا أظن أن ما قلته في حق السيد محمد مرسي وما وجهته من لوم للسياسة الإيرانية وإن على استحياء ، قد وجد طريقه للنشر . لكن أحدا لم يتعرض لي بسؤال أو يضعني في أي موقف محرج ، فالحق أنهم كانوا يتميزون بالكياسة في هذا المجال .

من بازار لبازار

عندما أرادوا أن يأخذونا في جولة في «بازار» طهران ، أي السوق

التقليدي الشعبي القديم ، وبعد أن استعد الجميع للذهاب وجاءت السيارة التي ستنقلنا إلى هناك ، فوجئنا في اللحظة الأخيرة بالغاء الجولة ، وتهامس البعض في ردهات الفندق عن وجود اضراب وتظاهرة نظمها تجار البازار بسبب قرار الخفض المفاجئ في العملة الإيرانية الذي أعلن رسميا الليلة الماضية . لم يكن بوسعنا الدخول على معظم المواقع الاخبارية الأوروبية والغربية المعروفة مثل بي بي سي أو سي إن إن مثلا ، لمعرفة تفاصيل هذه الأخبار لكني تمكنت من النفاذ إلى مواقع أقل شهرة وتأكدت بالفعل من صحة الأنباء عن الاضراب والتظاهرة ، واغلاق الشرطة الطريق وقيامها بالاعتداء بالضرب على المتظاهرين وتفرقتهم بالقوة .

لكننا سنعود في يوم آخر لزيارة البازار نفسه ، الذي لم يبهرني على الإطلاق بل وجدته صغيرا وفاقدا لرونق وسحر بازار اسطنبول مثلا الذي يتميز بنظافته واتساعه وامتداده العميق الطويل كما يوجد في داخله آلاف مؤلفة من الحوانيت . وقد ذهبنا أيضا إلى البرج الكبير الذي أصبح علما من أعلام طهران ، ويطلقون عليه برج ميلاد ويبلغ ارتفاعه ٤٣٤ مترا ويعتبر من أعلى المباني المشابهة في العالم ، وهو متعدد الطوابق ، وكان قد افتتح عام ٢٠٠٨ وبالتالي لم أكن قد رأيته في زيارتي الأولى إلى ايران عام ٢٠٠٢ ، وكان من أكثر ما لفت نظري بعيدا عن موضوع الارتفاع الكبير للبرج ، والكفاءة العالية لمصاعده ، وشكله المدهش ، وهو من تصميم مهندسة أمريكية ، وجود بعض المعارض التشكيلية للوحات والتماثيل المتميزة في الطابق العلوي الذي أخذونا إليه .

كنا نأمل أن يأخذونا في رحلة إلى مدينة شيراز ، لكنهم استجابوا أخيرا وقرروا أن نذهب إلى مدينة كاشان التي تبعد عن طهران حوالي ٢٥٠ كيلومترا . وكان علينا أن نستيقظ مبكرا في الخامسة صباحا لكي نبدأ رحلتنا قبل أن يزدحم الطريق . وركبنا جميعا ، أي أعضاء لجنة التحكيم الدولية ، سيارة تابعة لإحدى شركات السياحة . وبدأنا التحرك على الطريق الممتد وسط الصحراء . كان معنا محمد المترجم والمرافق الرسمي لنا ، لاحظت أن السائق غير متزن تماما ، فقد كان يتردد عند تقاطعات الطرق ، هل يتجه يمينا أم يواصل السير إلى الأمام في خط مستقيم ، وكاد أكثر من مرة أن يصطدم بسبب تردده المفزع ، بالسياج الحديدي الفاصل بين الطريقين ، حاولت أن أنبهه أكثر من مرة ، لكن قال لي محمد إنه لم يأخذ قسطا كافيا من النوم ، واضطر للاستيقاظ مبكرا . وكانت النتيجة أن محمد هو الذي تولى قيادة السيارة . ولم أشعر بالارتياح لهذا القرار قط ، فلم يكن محمد سائقا محترفا ، ولم يكن بالتالي مؤهلا لقيادة السيارة التي تحمل تسعة أفراد أضف إلى ذلك أنه بدأ في تشغيل شرائط تسجيل لأغاني إيرانية حديثة صاخبة الإيقاع ، هي غالبا من الأغاني الشبابية المحظورة ، وبدأ الجميع يتمايلون على إيقاعاتها ، وكانت جذابة دون شك ، لكني كنت أعاني صداعا خفيفا بسبب قلة النوم فطلبت خفض الصوت قليلا ، وهنا انبرى لي فرنشيسكو البرتغالي غاضبا ، مصرا على أن يبقى الصوت مرتفعا . كان سريع التوتر والغضب ، يعارض أي شئ يقال من أي طرف ، مصرا على التدخين داخل السيارة ، وعندما كان أحدنا يعترض كان يصر على ضرورة أن تتوقف السيارة لكي يحظى بفرصة

للتدخين . كانت عيناه متورمتان ، ويداه ترتعشان ، وأنفه محمر ، وكانت كل ملامحه الخارجية تشير إلى أنه من مدمني المخدرات ، لكن المؤكد أنه لم يغامر بتهريب أي كمية منها معه إلى إيران ، ويبدو أن الحرمان كان يفعل مفعوله في هذا الشاب المسكين المدمر . وعندما ستتاح لنا فرصة زيارة البازار الشهير في كاشان ، ستنشب مشاجرة حادة بينه وبين المرافق الرسمي ، لأنه يرفض التحرك ويريد البقاء في المدينة ، لا أدري لأي سبب ، لكن عندما فشل المرافق وكان شابا رقيقا مهذبا في اقناعه بضرورة ركوب السيارة للعودة ، انفجر المرافق فيه غضبا وهو الذي تحمل طويلا خلال الطريق ، الكثير من سخافاته ، ثم أخذ يوبخه بل اتهمه مباشرة بالإدمان . فقد كان الأمر واضحا للجميع . وتوترت الأجواء وظل صاحبنا صامتا منكسرا طوال رحلة العودة ، فشعرت بالشفقة عليه رغم فظاظته .

في كاشان زرنا موقع الحفريات التاريخية التي تعود إلى ما قبل الميلاد ، وفيها الكثير من الآثار الظاهرة ولكنها تحتاج إلى عناية كبيرة لا تلقاها من الحكومة بسبب عجز الميزانيات المخصصة لهذا النوع من التراث ، فهو ليس تراثا إسلاميا بل يرجع إلى عصور الوثنية- من وجهة نظرهم بالطبع . أما مسجد «الأغا بوزرق» فقد كان في حالة رائعة ، يتألق في وسط المدينة ، وتاريخه يعود إلى القرن الثامن عشر . وقد أنبهرنا أيضا بزيارة قصر الطبطبائي وكان أحد كبار تجار المدينة بل يمكن اعتباره شهبندر تجار كاشان في الماضي ، والقصر مشيد على مساحة واسعة ، ويتميز بمعماره الفريد ، كما استمتعنا بزيارة قصر الأميري ، وهو أيضا من قصور القرن التاسع عشر التي تعود لأسرة من كبار الأثرياء بالمدينة ، عرفت بصناعة القيشاني أو البلاط الملون (السيراميك) الذي

كثيرا ما كان يستخدم في تغطية جدران المساجد الإيرانية ، بلونه الأزرق المميز كما هو حال مسجد الإمام في اصفهان . أما بازار كاشان فهو شئ فريد حقا بقبابه السحرية الخلابة ، وتصميمه الذي يجعلك تشعر كما لو كنت قد دلفت إلى عالم ألف ليلة وليلة وعلاء الدين والمصباح السحري .

كانت الملاحظة الأساسية التي خرجت بها من الزيارة الثانية لإيران هي أنه بين الزيارتين ، اللتين تفصل بينهما عشر سنوات ، حدث تغير واضح وملموس سواء على المستوى الاقتصادي أو على الصعيد السياسي ، فقد لاحظت الكثير من المظاهر التي تجعل المرء يشعر بالتوتر ، فالناس كانوا قلقين ، غير راضين لكنهم كانوا ايضا خاضعين بشكل ما لما يتردد ليلا ونهارا في وسائل الإعلام من أن إيران مستهدفة من إسرائيل ومن الحصار الأمريكي ، وكانت العملة تتدهور في قيمتها ، والسلع ترتفع كثيرا في أسعارها ، وأصبحت البطالة ظاهرة ملموسة بشكل أوضح مما كانت . وقد استمعت كثيرا إلى حكايات من بعض الشباب تشي بتمردهم ورفضهم حتى للتفسيرات الدينية السائدة . وحدثني سائق تاكسي شاب عن وجود بيوت للدعارة في طهران ، وأن الشرطة تغض الطرف إلا لو وقعت مشكلة كبيرة وخرج الأمر إلى نطاق العلن واشتكى السكان ، وقال إنه لا يمكنه أن يقول في العلن ما يقوله في محيط بيته وعائلته لأن الحرية غائبة ، والوشاة منتشرون في كل مكان ، وأبدى غضبه الشديد لمعاداة بلاده لأمريكا ، وقال لي إنه إذا تخيل نفسه وقد أصبح مثلا رئيسا للجمهورية فسيكون أول قرار يتخذه هو عقد اتفاقية صداقة وتعاون مع الولايات المتحدة .

عندما كنت في المطار ، على وشك أن أغادر إيران ، تذكرت كتاب

محمد حسنين هيكل الأول الذي يحمل عنوانا غريبا هو «إيران فوق بركان» . وتساءلت : هل مازالت إيران ترقد «فوق بركان» منذ أن كتب هيكل كتابه عام ١٩٥١!

٨
الهند من دون أفيال

في أكتوبر ٢٠٠٩ تلقيت دعوة لزيارة الهند لحضور مهرجان سينمائي يقام في نيودلهي للسينما الآسيوية والعربية ويسمى مهرجان آسيان . لم يسبق لي أن زرت الهند ، ولم أكن لأتردد في قبول الدعوة رغم مدة الطيران الطويلة المرهقة من لندن إلى دلهي . ولكني أقبلت على المغامرة ، وركبت طائرة ليلية رغم أنني من الذين لا يستطيعون الاستغراق في النوم وهم على متن أي مركبة من المركبات ، فدائما العقل يعمل ، ويفكر ، ويكون يقظا . هذه المشكلة تعتبر نقمة وليست نعمة ، كما أنني لست ممن يمكنهم الاستغراق في قراءة كتاب يغيبون فيه عن العالم ، ويبتعدون تماما عن التفكير في قطعة الحديد الضخمة التي يسكنون في جوفها والتي تطير لتعبر بهم المحيطات والقارات .

بعد أكثر من ثماني ساعات من الطيران أعلنت المضيفة لسعادتي الكبيرة ، أن الطائرة قد بدأت في الهبوط إلى مطار دلهي في «القارة الهندية» بعد أن طرنا عابرين فوق القادرة الأوروبية من غربها إلى شرقها ، ثم فوق تركيا وإيران وأفغانستان ثم المحيط الهندي وصولا إلى مقصدنا .

لم أصدق أنني هبطت ببساطة إلى أرض الهند . وكان أول ما فعلته أن أرسلت لزوجتي رسالة عن طريق الهاتف المحمول أقول لها

فرحا : «لقد فعلتها . . أنا الآن على أرض الهند» . كان الوقت مبكرا حوالي السادسة والنصف صباحا . وكان المطار يبدو غريبا ، شبه مظلم ، مليئا بالبشر وبضباط هنود كان بعضهم يجلس أمام طاولات يناولون المسافرين القادمين استمارات ورقية لتعبئتها وهي أساسا شهادة للخلو من الأمراض خاصة الحمى وأعراض الزكام . كان هناك في تلك الفترة نوع من الهوس الذي اجتاح العالم بسبب ما اطلقوا عليه مرض «أنفلونزا الطيور» . وكنت شخصيا أخشى أن أصاب بالعدوى ، وأتوجس كثيرا عندما أجد شخصا يجلس بالقرب مني في الطائرة ، يعطس ويسعل ، وأدعو الله ألا يصيبني الرذاذ المتطاير من فمه وأنفه . وكانوا أيضا قد نبهوا على المسافرين بالطائرات بضرورة تطهير أيديهم إذا ما لمسوا الأسطح العارية المعدنية أو البلاستيكية للطائرة ، التي يمكن عن طريقها انتقال المرض . وقد اتضح فيما بعد أن هناك الكثير من المبالغات التي انتشرت حول هذا المرض . وإن كان لايزال يظهر من فترة وأخرى ، ولو على نطاق محدود .

كان في انتظاري كالعادة- مندوب من المهرجان ، اصطحبني إلى السيارة التي أخذت تقطع شوارع مدينة «دلهي» التي تعتبر مدينة قائمة بذاتها ، ويمكن اعتبارها ببساطة «الحي الأوروبي» العصري الحديث من العاصمة الهندية ، فقد أنشاها البريطانيون وافتتحت رسميا كعاصمة جديدة عام ١٩٣١ ، وعندما شاهدت القصور والمنازل الفخمة بحدائقها الواسعة والأشجار التي غرست على طول الطرق في شوارع نيودلهي لم أصدق أنها يمكن أن تنتمي إلى عاصمة الهند التي كنت أعلم مسبقا أنها تكتظ بأعداد هائلة من السكان . كانت الشوارع خالية ، وغصون الأشجار وأوراقها تهفهف ، والجمال يبهر العيون ،

وكنت ألمح بين آونة وأخرى ، سيارات فارهة تتميز بالفخامة تمر . لاشك أنها سيارات البعثات الدبلوماسية التي تقطن هذه المدينة أو الضاحية ، أو القطاع الأوروبي أو الحديث الذي يعتبر في الحقيقة جزءا لا يتجزأ من دلهي العاصمة التاريخية القديمة . ويمكن أن أقول إن دلهي هي «المدينة القديمة» التي تمتد في عمق التاريخ وفيها توجد المعابد الهندوسية والقصور التاريخية وغيرها من الآثار القديمة .

عندما وصلت السيارة إلى الفندق الفخم الذي يعتبر أحد أرقى فنادق دلهي ، وبعد أن عبرت البوابة الخارجية لباحة الفندق ، رأيت عددا كبيرا ملحوظا من عمال الفندق يرتدون الزي الموحد المميز الأزرق . كان هناك من يلوح لي بيده ، ومن يفتح لي باب السيارة لكي أهبط ، ثم من أخذ يطوق عنقي بطوق من الورود ، حسب التقليد الهندي المعروف دلالة على الترحيب ، ثم من فتح لي باب الفندق الزجاجي الضخم لكي أدلف عبره إلى الداخل حيث أرشدني شخص آخر إلى مندوبة الفندق . وكنت مذهولا بالطبع من هذا الاستقبال الذي يليق بالملوك والرؤساء وضيوف الدولة الرسميين ، لكن الأمر لم يكن كذلك بالطبع ، فقد كان هؤلاء جميعا بكل أسف ، طامعين في الحصول على «بقشيش» مناسب وجيد من الضيف القادم من الخارج أي من حضرتي ، وشعرت بحسرة ، أن المطلوب أن أدس يدي في جيبي وأظل أوزع الأوراق المالية عن يمين وعن يسار على كل هؤلاء ، ولكن الحقيقة أنني لم أكن أحمل أي عملة هندية فلم أكن قد قمت بتصريف العملة بعد ، فما كان مني سوى أن تجاهلت كل الابتسامات الطامعة المرسومة على الشفاه ، وأتجنب النظرات النهمة التي تفترسك ، تريد أن تسبر أغوارك لتعرف أي نوع من نزلاء هذا الفندق الفخم أنت ،

فهم لا يعرفون بالطبع أنني مجرد ناقد وكاتب جاء لحضور وتغطية مهرجان سينمائي صغير والكتابة عن التجربة .

أخبرني موظف الاستقبال أنني يتعين أن أصعد إلى غرفتي مع مندوبة الفندق الهندية الحسناء التي كانت في استقبالي . وقد دهشت كثيرا عندما وجدت أنها تجاهلت تماما مسألة التسجيل في الاستقبال وقالت لي عندما سألتها إنها ستقوم بكل هذه الأمور في غرفتي . كيف في غرفتي؟ ما هذا الذي يحدث ، وكيف تسمح إدارة الفندق بصعود موظفة شابة لم تكف عن التدلل والمجاملة ، بل وأصرت أيضا على حمل حقيبتي الصغيرة التي أحتفظ بها في يدي بنفسها ، ودعوت الله أن تمر هذه المسألة على خير . كما كنت أتساءل بيني وبين نفسي أيضا عما إذا كانت هذه «الخدمة الخاصة» ، أي انهاء الإجراءات في الغرفة ، تستوجب دفع بقشيش مناسب أو مكافأة مالية لهذه الفتاة!

الفقر والسياحة

يجب أن أعترف هنا بأنني كنت دائما أنفر من السياحة في البلدان الفقيرة ، ليس فقط لأن المرء يبذل جهدا كبيرا في إبعاد المتسولين عنه وهم كثيرون جدا في العادة ، بل لأن وجود مظاهر الفقر والفاقة من حولك يحول بينك وبين الاستمتاع بما تفعله ، فكيف يمكنك أن تغشى الأماكن التي ليس بوسع المواطن العادي من أهل البلد أن يقترب منها أو يحلم بتناول الطعام فيها مثلا!

غير أن هذه كانت الهند . وكان لابد من الاقتراب من هذا العالم المختلف كلية عما عرفته في الغرب . وعموما بعد أن وصلنا إلى الغرفة ، كان مطلوبا مني أن أتلقى بعض التعليمات وأن أوقع بعض الأوراق ثم

أحصل على قائمة إرشادية إلى الخدمات التي يقدمها الفندق لعملائه . . وغير ذلك من أشياء لا أتذكرها ، ولا أفهم لماذا لا يقومون بها في مكتب الاستقبال مثلما يحدث في الفنادق الأخرى ، لكنها على ما يبدو حيلة لكي يشعر «الزبون» بأنه يلقى معاملة خاصة متميزة .

كان لابد أن أرتاح أولا قبل أن أهبط لمعرفة ما الذي يحدث ، وماذا سأفعل وكيف سأصل إلى مقر المهرجان لحضور حفل الافتتاح . كان هناك الصديق العراقي انتشال التميمي الذي كان يتمتع بنفوذ خاص في هذا المهرجان وكان أيضا مسؤولا عن ترشيح الأفلام العربية التي تعرض بمسابقته وبرامجه المختلفة ، ولاشك أنه كان وراء دعوتي هذه ، كما كان معه الصحفي المصري سعد القرش الذي لم اكن أعرفه معرفة شخصية من قبل . وقال لي انتشال إن المهرجان لم يدعو أحدا من النقاد والصحفيين العرب هذا العام سوانا ، أي سعد وأنا . ولكن كان هناك من المدعوين أيضا المخرج السوري حاتم علي مع فيلمه «الليالي الطويلة» ، والمخرج التونسي الياس بكار مع فيلمه التسجيلي «حائط المبكى» . وفيما عدا ذلك لم يكن هناك أحد من العالم العربي وهي مسألة مثيرة للدهشة بالتأكيد في مهرجان يجمع بين السينما الهندية والعربية!

ولعل أول ما لفت نظري في هذا المهرجان أنه يعتمد ، أساسا ، على الجهود الفردية لرئيسه ومؤسسه نيفيل تولي ، وهو شاب هندي من رجال الأعمال ، لكنه شديد الاهتمام بالسينما ، لدرجة أنه كان مشغولا بفكرة بعيدة كل البعد عما يجري عادة في مهرجانات السينما العالمية ، وهي فكرة تحويل المهرجان بشكل أو آخر ، إلى ساحة لتعليم

السينما على طريقة الورشة المفتوحة يوميا لمئات الطلاب ودارسي السينما . وخلال الكلمة التي ألقاها في حفل الافتتاح ركز على تلك الناحية ، مؤكدا أنه يرغب في رؤية كل من يتطلع لفهم ودراسة السينما يأتي إلى هذا المهرجان ليتعلم ويستفيد . ولهذا أقيمت الكثير من الندوات والمناقشات المفتوحة مع الطلاب الذين جاء الكثيرون منهم من أقاليم أخرى ، كما أقيم عدد من ورشات العمل السينمائية .

كان المهرجان قد تعرض لبعض المشاكل التي أعاقت انطلاقه في موعده المحدد في الصيف ، فتأجل إلى الشهر الخريفي ، وكان هذا مناسبا أكثر لضيوف المهرجان ، لأن الطقس أفضل كثيرا بالطبع في هذا الفصل عنه في فصل الصيف ، لكن يبدو أن المشاكل المالية التي ترتبت على الأزمة الاقتصادية العالمية ألقت بظلالها على المهرجان بشكل ما ، فتقلص عدد المدعوين بشكل عام .

وقد علمت أن نيفيل تولي يأتي بالمال اللازم لتمويل مهرجانه من المزادات التي يقيمها للأعمال الفنية والأثرية من اللوحات والمنحوتات والجداريات وغيرها . وتقدم حكومة دلهي دعما محدودا للمهرجان بشكل غير مباشر يتمثل في توفير مجمع سينمائي بقاعاته المتعددة ، وإن كانت كل الدلائل تشير إلى أنه قد أصبح في حاجة إلى ترميم وإعادة إحياء لاستعادة بهائه القديم فقد علمت مؤخرا أنه توقف منذ فترة بسبب الكساد الذي اعترى «تجارة» مؤسسه وصاحبه .

كان من الأشياء التي لفتت نظري كثيرا في هذا المهرجان ، الطابع العام «غير الرسمي» أو الـ casual وأجواء الألفة التي تربط بين البشر بحيث يسهل كثيرا التعامل مع الجميع ببساطة ، ومنهم المسؤولون عن المهرجان وعلى رأسهم مديره ماني كاول ورامان شاولا ، أو السيدتان

اللتان سبق لهما الاضطلاع بمسؤولية المهرجان من قبل : السيدة إندو والسيدة لاتيكا . وانت تشعر وأنت تتكلم مع هؤلاء الأشخاص الذين قد يبدون غرباء تماما عنك ، أنهم قريبين منك كثيرا ، ربما أكثر مما تعتقد ، بل وأنهم على اضطلاع جيد بالسينما المصرية والعربية ، وبكل الشخصيات الفاعلة فيها ، ماضيا وحاضرا .

المشكلة التي أحسست بها ، أو بالأحرى ، ما خطر ببالي وأنا وسط كل هذه الأجواء الحميمية ، تمثلت في سؤال يتعلق بالجانب الآخر ، العربي الرسمي ، والقائمين على أمر المؤسسات السينمائية والمهرجانات السينمائية في بلادنا . . أين هم من كل هذا الدفء ، ولماذا يتقاعسون عن مد أيديهم للصداقة مع الهند . ولماذا تركوا المهرجان يتوقف وربما يموت؟!

كان لابد من الخروج من نيودلهي إلى الهند الحقيقية في دلهي ، وهي معرض مفتوح ممتد أمامك ، من البشر ومن الآثار التاريخية العملاقة الباقية التي تشهد على عظمة تلك الحضارة التي حفرت لها مسارا عميقا في تاريخ البشرية في ذلك الجزء من العالم . ومهما تمتع المرء بالإرادة فلن يتمكن من سبر أغوار دلهي وما يقع حولها في بضعة أيام ، لكن الزيارة تصبح محفزا لك على العودة لاكتشاف ما فاتك . ولعل من الأشياء التي كانت غائبة عن إدارة المهرجان تنظيم جولة لنصف يوم لضيوف المهرجان للتعرف على أهم المعالم التاريخية في المدينة ، وهو جزء أساسي في مسألة «المعرفة» والعلاقة بين السينما والحياة .

خطر ببالي خاطر آخر مؤرق : كيف أهملنا الاهتمام بحضارات الشرق ، تلك الحضارات القريبة منا : اليابانية والهندية والصينية ، أو

التي كنا نرتبط بها تاريخيا ولو عبر «طريق الحرير» ، والتي أثرنا وتأثرنا بها كثيرا : في اللغة والكتابة ، وفي البعثات التجارية والغزوات ، وفي البحث عن مصير مشترك سياسي في العصر الحديث من خلال كتلة عدم الانحياز التي ولدت في باندونج - أندونيسيا منذ أكثر من خمسين عاما ، ثم حمل نهرو العظيم لواءها مع تيتو وعبد الناصر . ومازلت أتذكر كيف كانت الشوارع في القاهرة تمتلىء بالبشر في استقبال الزعيم الهندي نهرو ، استقبالا شعبيا يليق بالأبطال ، وكيف كان نهرو محبوبا في العالم العربي بسبب نجاحه في تحقيق النهوض بأمة هائلة في العدد ، متنوعة بشكل مذهل في اللغات والأديان ، وكيف نجح في الإبقاء على التجربة الديمقراطية العظيمة في الهند ، وهو ما جعلها تمتد بعد وفاته وتستمر حتى يومنا هذا ، بينما لم يحقق غيره من رفاقه القدامى شيئا من هذا الاستقرار .

جولة حرة

خرجت في جولة حرة مع سعد القرش ، وكان المشهد مختلفا تماما في دلهي عنه في نيودلهي . أولا كان يتعين علينا استخدام «التوكتوك» وهو منتشر بدرجة كبيرة في شوارع دلهي ويتحرك مثل الصراصير الصفراء الصغيرة التي كثيرا ما تتحرك حركة دودية ، ويدلف عبر الطرق المزدحمة الضيقة الجهنمية المليئة بالغبار . لكن هناك وسيلة أخرى أقل عصرية من التوكتوك ، هي العربة التي يجرها رجل . كنا نريد الذهاب من وسط المدينة إلى المسجد الأحمر أو مسجد الجمعة الذي بناه الامبراطور جاهان نما ويعرف أيضا باسمه . وهو مسجد كبير يعتبرونه من أكبر مساجد الهند . ولكن لم تكن هناك سيارات تاكسي تسير في

الطريق الضيق الصاعد إلى المسجد الذي شيد فوق ربوة . وكانت عملية الصعود يمكن أن تستنزف قوتنا تماما ، فأوقفت عربة من تلك التي يجرها رجل ، وهي إحدى الوسائل الشائعة في هذه الطرق ، وأخذت أفاوضه على المقابل الذي سيحصل عليه ، ولم تكن المسافة طويلة لكن الحرارة كانت قد اشتدت ، وكان ما بذله الرجل من جهد من أجل حملنا إلى أعلا الشارع مما يدعو فعلا للحزن والأسى ، فقد رأيت كيف كان ينزف كمية كبيرة من العرق ، وكان ضامر الجسم نحيلا ، يبدو عليه الحرمان والجوع ، ولكن هذه هي مهنته التي لا يجيد غيرها ، وهو مستعد لأن يفعل كل ما بوسعه من أجل الحصول على بضع روبيات لم تكن تساوي في نظري شيئا . وهو سبب آخر كفيل بافساد شعورك بالاستمتاع خلال الرحلة .

وجهت إلينا السيدة إندو دعوة للعشاء في منزلها ، وهي شاعرة وكاتبة ومؤرخة سينمائية هندية درست على أرقى مستوى في جامعة أكسفورد البريطانية ، كما أن زوجها أيضا مثقف كبير ورجل يتميز بالأدب والكياسة والذوق الرفيع ، ولاشك أنهما ينتميان الى البورجوازية الهندية ، ويقيمان في شقة فخمة تقع في مكان أرستقراطيٍ هادئ من نيودلهي .

كانت الشقة تدل على الذوق الفني لأصحابها . وكانت إندو قد دعت بعض الأصدقاء من الكتاب والنقاد . وكان معنا بالطبع انتشال التميمي وسعد القرش وحاتم علي . وكانت السهرة ممتعة ، وامتد الحوار الذي أتاح لي الفرصة للمرة الأولى للاقتراب من المثقفين الهنود الذين يختلفون كثيرا عمن كنت أقابلهم طيلة سنوات ، في العاصمة البريطانية . كانوا هنا «في بيتهم» وسط ثقافتهم ، لا يشعرون بالفزع ولا

بالمنافسة ، ولا يمارسون الاستعلاء الهندي المفتعل الذي يمكنك أن تجده- على سبيل المثال- متأصلا لدى الكثير من موظفي البنوك والعاملين في وزارة الداخلية البريطانية على وجه الخصوص ، وفي معابر المطارات كضباط جوازات ، فالهنود البريطانيون يميلون إلى أن يكونوا عادة ملكيين أكثر من الملكة نفسها ، أي أنهم عادة ، أكثر تشددا من البريطانيين «الأصليين» . وهم أيضا يصوتون في الأغلب الأعم ، لصالح حزب المحافظين اليميني ، ظنا منهم أن هذا الحزب هو الحزب الذي يمثل بريطانيا الحقة- أي بريطانيا الملكية المحافظة ذات التقاليد العريقة ، رغم الماضي الاستعماري السيئ السمعة الذي كان هذا الحزب يدافع عنه لعقود طويلة خاصة في التشبث الشديد بما أطلقوا عليه «جوهرة التاج» أي الهند . هذه الظاهرة كانت تلفت أنظار الكثيرين ممن أعرفهم من أصدقائي . وهذا لا يمنع من أن نجد بين هنود بريطانيا ، خاصة ممن لا يعملون في التجارة ، بعض المتمردين والثائرين والذين يفضلون أن يكونوا في صفوف المعارضة .

عندما خرجت في جولة ثانية مع سعد القرش أردت أن أجرب ركوب مترو الأنفاق في دلهي المزدحمة ، ورغم أن سعد كان قد جاء إلى الهند من قبل أكثر من مرة فلم يكن يعرف بوجود مترو الأنفاق ، ولكنني كنت قد درست المدينة قبل أن أسافر وعرفت بوجوده- وهو ليس سرا بالطبع . انتقلنا إلى دلهي بسيارة تاكسي ، وهناك توصلنا عن طريق السؤال ، الى موقع إحدى المحطات ، وكان أول ما لفت نظري أنها تتمتع بنظافة شديدة قياسا إلى محطات قطارات الأنفاق في العواصم الأوروبية خاصة باريس وروما ، وثانيا كانت المحطة شديدة الازدحام بأعداد هائلة من البشر ، وهو أمر طبيعي في مدينة يقال إن عدد

سكانها يتجاوز ١٦ مليون نسمة ، ولكن رغم هذا الزخم البشري الكبير كان الهنود يصطفون في صفوف طولية أمام أبواب القطار ، في انتظار هبوط الركاب قبل أن يبدأو الصعود ، وهي الطريقة الانجليزية المألوفة التي اعتادوا عليها ، وربما يكون من بين الفوائد المحدودة للاستعمار الأوروبي ، أنه أدخل- ولو باستخدام البطش أحيانا- نظاما معينا يجب أن يتبع في التعامل مع وسائل المواصلات ، وقد كان بوسعي أن ألمس ذلك أيضا في الجزائر ، فليس من الممكن رؤية الناس يتقافزون ويسبقون بعضهم البعض في ركوب الحافلات بل كانوا عادة يحترمون النظام ، ويقفون في صفوف وراء بعضهم البعض . ولاشك أن للقائمين على النظام المدني دورا كبيرا في هذا المجال ، أما الفوضى فهي نتاج الجهل بالأصول وغياب التعليمات ومن يطبقونها على أرض الواقع ، وهي آفة من الآفات الكثيرة المنتشرة في بلدان العالم الثالث التي لم تتعلم شيئا من «الاستعمار» . ولكن يجب أن أعترف بأنني لا أعرف كيف اصبحت الأمور في الجزائر حاليا ، بعد زوال التأثير الغربي تماما ، وزحف الكثير من القيم المتخلفة مع اتساع نطاق المد المتشبث بالتقاليد العتيقة ، فلم تتح لي فرصة زيارة الجزائر منذ غادرتها في الثمانينات .

من آثار الاستعمار البريطاني الذي جثم طويلا على صدر شبه القارة الهندية أيضا ، أنني وجدت الهنود يشربون الشاي بالحليب ودون سكر ، وهو تقليد لا وجود له مثلا في إيران أو العالم العربي أو في البلدان العربية التي ابتليت بالاستعمار البريطاني في الماضي مثل العراق ومصر ، فالشاي هو الشاي ، أي يجب أن يُشرب بطعمه ولونه الأصليين .

كان أحد المشرفين على مطعم الفندق الذي أقيم فيه يأتي إلى مائدتي كل صباح وأنا مازلت أتناول القهوة ، لكي يقترح علي مأكولات هندية معينة قائلا لي إنني يجب أن أجرب الأطعمة المحلية . وكنت أتصور ومازلت ، أن الطعام ألوان وأشكال ذات علاقة بالبشر ، وانه جزء أساسي من ثقافة أي شعب ، وكنت أرحب بالتالي بفكرة التجريب . وذات يوم اقترح علي أكلة معينة مصنوعة من البيض ونوع من العجين الرقيق الهش ، فوافقت وتناولتها ، ولم تكن لذيذة لكني أقنعت نفسي بأن التجارب ليس شرطا أن تكون كلها عظيمة . وبعد أن ذهبت بسيارة المهرجان لحضور العروض ، بدأت أشعر بصداع وغثيان ودوار . فطلبت إعادتي إلى الفندق بالسيارة على الفور . وكان يتعين علي أن أنتظر بعض الوقت لحين حضور السيارة . وزاد إحساسي بالدوار والغثيان وخشيت أن أتقيأ . وأخيرا جاءت السيارة وحملتني . لم أر أحدا ممن أعرفهم وبالتالي لم يعرف أحد منهم بما حدث لي . وبمجرد أن دخلت غرفتي بدأت أعاني من نوبات إسهال وقيء شديدة لم أمر بها في حياتي من قبل . هرعت كالمجنون وأنا أتحامل على نفسي ، أطلب زجاجات كثيرة من المياه المعدنية من العامل الذي كان موجودا في الممر خارج الغرفة ، فأتى إلي ببعض زجاجات الماء الذي أعتبره جزءا أساسيا من العلاج في مثل هذه الحالات ، وأخذت أبحث عن كيس الأدوية التي أحملها معي أينما ذهبت ، وأخرجت دواء مضادا للإسهال والتقلص المعوي . لكن كل ما تناولته فشل في إيقاف الإسهال والقيء . وظللت أشرب الماء وأرقد على الفراش غارقا في عرقي ، عاجزا عن القيام بأي فعل ولو حتى مشاهدة التليفزيون .

واستغرقت في النوم حتى المساء ، ونهضت لكي أتصل بإدارة الفندق وأطلب أن يرسلوا لي طبيبا ، فحالتي لم تتحسن بعد . ثم اتصلت بادارة المهرجان وطلبت تغيير موعد العودة إلى لندن إلى الغد على أول رحلة بعد أن شعرت بأنني أكاد أشرف على الموت ، فإن كان الأمر كذلك فالأفضل أن أموت وسط أسرتي الصغيرة .

حضر طبيب هندي ، سألني عما حدث فرويت له ، وتوقف هو أمام ما ذكرته عن نوع الطعام الذي تناولته في الصباح ، فذكرت له الأمر باقتضاب فلم أكن أعرف بالضبط اسم هذا الطعام ، لكنه أخذ يذكر لي أوصافا تتعلق بشكله وطعمه اتضح منها أنه يعرف جيدا نوع هذا الطعام ، وقال إنه قد يحمل أحيانا ميكروبا خاصا يسبب هذا التسمم المعوي الذي وقع لي . ومنحني الطبيب من عنده بعض الأدوية الخاصة التي تقاوم هذا الميكروب ونصحني بكثرة تناول الماء وهو ما كنت أفعله . وقضيت الليلة بأكملها دون أن أغادر غرفتي أو أتناول العشاء اكتفاء بطلب بعض الحساء في غرفتي .

كان من أكثر ما آلمني بالإضافة إلى الألم والتعب والمرض بشكل عام ، هو الشعور بالوحدة ، وتخلي جميع من أعرفهم عني ، فلم يكلف أحد منهم الاتصال بي لكي يعرف سبب احتجابي عن الظهور على غير العادة ، خاصة وأنني كنت أتبادل المحادثات التليفونية مع سعد القرش- على الأقل- كل ليلة قبل أن آوي إلى فراشي . لكن أغلب الظن ، أنهم كانوا مشغولين في الحفلات التي كان يقيمها المهرجان كل ليلة . قضيت ليلة مرهقة ، طاردتني خلال نومي أحلام مزعجة . وفي الصباح نهضت مرهقا وتحاملت على نفسي لكي أحزم حقيبتي الصغيرة ، ثم هبطت لكي أستقل السيارة التي نقلتني إلى المطار .

وودعت الهند عائدا من حيث أتيت ، وقضيت في لندن أكثر من أسبوع ، أتناول العلاج إلى أن برأت من هذا المرض اللعين الذي أفسد علي رحلتي فلم تكتمل كما كان مقدرا لها!

٩
برلين المدينة الحزينة

ذهبت إلى برلين مرات عديدة ، في ذروة الشتاء عندما تبلغ درجة الحرارة ١٦ تحت الصفر ، وفي منتصف الصيف ، عندما كانت تبلغ حدا مزعجا من الارتفاع . وفي كل مرة ، كان انطباعي لا يتغير ، فهذه مدينة حزينة ، منكسرة ، تعيش مطأطاة الرأس ، منكفئة ، توهم نفسها ويوهم سكانها أنفسهم بأنها مدينة «مختلفة» لا علاقة لها بماضيها الذي كان سببا في الكارثة التي أحاقت بها والتي يرغب القائمون على منظومة الاحتلال ، أي مجموعة الدول الأربع التي احتلت برلين عند نهاية الحرب العالمية الثانية ، أن تبقى إلى الأبد ، محفورة في ذاكرة الأجيال .

برلين التي نراها هي في معظمها مدينة حديثة مقطوعة الصلة بغيرها من المدن الأوروبية العريقة مثل لندن وباريس وأمستردام وروما . والمفارقة أن ألمانيا النازية التي تتحمل وزر دمار برلين ليست هي التي دمرت برلين بل دمرها تحديدا البريطانيون والأمريكيون الذي ظلوا يشنون غارات جوية متواصلة ليلا ونهارا لأكثر من عام ، وكانت طائراتهم تقصف برلين قصفا وصف بأنه «قصف بساط» carpet bombing- أي قصف شامل ممتد عشوائي لا يتركز على نقاط محددة ، فقد كان الهدف تدمير المدينة فوق رؤوس سكانها ، وإزالة كل أثر من الآثار

التي يمكن أن تذكر الألمان بهتلر أو بالنازية . أما الألمان الذين احتلوا روما وباريس وأمستردام ، فلم يدمروا أيا من هذه المدن بل انسحبوا منها في هدوء . وهذه هي الحقيقة التاريخية التي لا يرغب أحد في ذكرها ، فهي من «المحرمات» التي ترقى إلى درجة «اليقين الديني» . وقد كتب الكثير عن التعليمات التي صدرت لقائد باريس الألماني بتدميرها قبل الانسحاب لكنه خالف التعليمات مفضلا الإبقاء على المدينة . ولعل ما يكذب هذه الرواية أو على الأقل يدعو إلى التشكك فيها أن الألمان لم يدمروا ايا من المدن الأخرى العريقة التي احتلوها مثل براغ وبودابست وأمستردام .

أردت فقط أن أسوق هذا المدخل لأن جولاتي في برلين كانت دائما تستدعي الماضي الأليم ، فما يدفعه الألمان اليوم ليس من صنع أيديهم بل من صنع قائد مجنون أراد السيطرة بالآلة العسكرية الضخمة المتقدمة التي أنشأها ، على أوروبا كلها وإخضاعها للإنسان الألماني الذي كان يرى أنه أرقى شعوب الأرض . والدمار الذي نزل ببرلين من صنع عصبة من غلاة المتطرفين فكريا ، العنصريين المعادين لسائر الأجناس البشرية (غير الجنس الآري) طبقا لفكرة من أكثر الأفكار سخفا في التاريخ ، لكنها كانت قائمة ومنتشرة وتلقى قبولا في ذلك الوقت ، داخل وخارج ألمانيا أيضا ، في لندن وباريس .

برلين مدينة حزينة أيضا لأنها ظلت لعقود ، مدينة مقسمة بين المعسكرين الشرقي والغربي أو الاشتراكي والرأسمالي ، إلى أن عادت موحدة بعد سقوط الجدار الفاصل عام ١٩٨٩ ، والألمان أبقوا على أجزاء من هذا الجدار قائمة حتى الآن في مواقع محددة قرب نهر سبري . ولكني وجدت أيضا أجزاء محدودة منه في بوتسدامر بلاتز ، الواقعة

وسط برلين وكانت هذه المنطقة أصلا مهجورة لسنوات طويلة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وأصبحت اشبه بالمستنقعات نمت فيها الحشائش بعد أن كانت بؤرة للنشاط التجاري في برلين ، والسبب بالطبع يرجع إلى وجود دار المستشارية الهتلرية الجديدة ومقر الحكومة والوزارات الاساسية في تلك المنطقة ، بما فيها الملجأ الذي أقام فيه هتلر لعدة أشهر في نهاية الحرب ، وكان يقع تحت أرض حديقة المستشارية . وكان خط تقسيم برلين يمر بهذه المنطقة ، التي عرفت بالمنطقة المحايدة . وفيها يقع أيضا أشهر معالم برلين السياحية ، أي بوابة براندنبرج التاريخية (رمز المدينة) التي كانت قد تعرضت لأضرار كثيرة خلال الحرب ، ثم أعيد ترميمها بعد توحيد شطري المدينة في التسعينات .

والحقيقة أن من أكثر الأشياء التي بهرتني في برلين قدرة الألمان على ترميم واستعادة الكثير من الآثار المعمارية ذات القيمة التاريخية . من بين هذه الآثار مبنى الريشتاج الألماني الشهير أي مقر البرلمان الذي كان بدأ إنشاؤه عام ١٩٨٢ أي في نفس عام الاحتلال البريطاني لمصر ، وكان البرلمان المصري قائما في ذلك الوقت ، أي أنه سبق وجود البرلمان الألماني (الريشتاج) في مبناه العريق الذي لايزال موجودا حتى يومنا هذا والذي أسسه الخديوي اسماعيل عام ١٨٦٦ .

كان مبنى الريشتاج قد تعرض للحريق الشهير الذي وقع في عام ١٩٣٣ وقيل إن هتلر كان وراءه ليتخذا مبررا لمصادرة الديمقراطية والتعددية ، ولحل الأحزاب والانفراد المطلق بالسلطة من جانب الحزب النازي ، وإعلاء قيمة «الزعيم» أو «الفوهرر» ورفعه إلى مصاف الآلهة ، بعد أن أصبح الشعب والجيش يقسمان على الولاء له وحده ، وكانت تلك بداية الكارثة التي أحدقت بألمانيا .

قمت بزيارة الريشتاج من خلال زيارة مجانية مرتبة ، محجوزة مسبقا عن طريق موقع البرلمان على الانترنت . وعندما وصلت في الوقت بالضبط إلى البوابة المخصصة للدخول (وهناك بوابات عدة) فوجئت بعدما ألقى الموظف المسؤول نظرة على الورقة التي كنت قد طبعتها وفيها تأكيد الحجز والموعد وهي بمثابة تذكرة دخول ، به يقول لي ببساطة ان الموعد كان في اليوم السابق . ما الذي حدث لذاكرتي في ذلك الوقت؟ لا أعرف ولكني كنت على يقين بأن الموعد صحيح وأنني ذهبت في الموعد المحدد ، لكني وجدت الورقة التي في يدي تقول عكس ذلك . وكان مهرجان برلين السينمائي في منتصفه ، ولابد أنني انشغلت وتشاغلت فلم انتبه إلى حقيقة أنني قد ضيعت موعد زيارة هذا الصرح الكبير . لكن الموظف نظر إلي وطمأنني قائلا إنني من الممكن أن أدخل مع مجموعة من الزوار الآن ولكن جولتي ستقتصر فقط على المبنى من الداخل ولن يكون مسموحا لي دخول قاعة اجتماع البرلمان الذي غيروا اسمه من الريشتاغ إلى البوندشتاغ ، أي من التشدق بالرايش أو «الرايخ» إلى التباهي بالبوندية أي الوحدة أو «المجلس الاتحادي» أو البرلمان الاتحادي لعموم ألمانيا الاتحادية ، ولاحظت منذ زمن بعيد أن كثيرين يكتبون «الرايش» بالعربية كما يكتبون كلمات وأسماء كثيرة ألمانية ، تارة بالخاء كما في (بريخت) وتارة أخرى بالشين كما في (بريشت) . . ولأني لم أدرس الالمانية فأنا أنتقل فيما بين الطريقتين دون أن أعرف ايهما النطق الصحيح وإن كنت أظن أن الشين هي الأصح ، هنا يصبح أولبريشت هو الأصح من ألبريخت ، وهو الرئيس السابق لألمانيا الشرقية ، وكذلك خلفه فالتر أولبرايشت . وقد وجدت بالبحث والاستماع أن النطق الصحيح لكلمة الريشستاغ هي

ريشتاغ ، أي أن حرف السين يتم إهماله . ومازلت أجد صعوبة شديدة في قراءة بعض اسماء الشوارع كما هي بالألمانية واجدها طويلة جدا ومعقدة ولكن من تعلموا وعاشوا في ألمانيا يعرفون جيدا كيف ينطقونها بسهولة وبساطة . وهكذا هي كل اللغات دون شك ، ولابد أن الأجنبي الذي يزور البلدان العربية يجد صعوبة كبيرة في نطق الكثير من الأسماء العربية . لكن كثيرا من الناس في بلادنا يعتبرون الأجنبي ، وبوجه خاص الأوروبي ، مجرد «خواجة» أي رجل أبله لا يعرف شيئا ، ويمكن الضحك عليه بسهولة ، فقط لأنه لا يعرف لغة الناس ولا كيف ينطقها ، ومن أشهر الشخصيات الكوميدية الهزلية في الاذاعة المصرية (في عصر الراديو بالطبع) شخصية الخواجة «بيجو» العبيط الساذج الذي كان إبن البلد الأصلي الشعبي «أبو لمعة الأصلي» ، يضحك عليه ويروي له قصصا مختلقة ، وكان الخواجة بكل بساطة وسذاجة ، يصدقها ويشتريها . . أليس خواجة؟!

كان من أكثر ما لفت نظري داخل الريشتاغ تلك الكتابات الموجودة على جدرانه من الداخل وتحمل أسماء وعبارات كتبها الجنود السوفيت الذين حرروا المكان بعد معركة ضارية مع القوات النازية استمرت اياما إلى أن تمكن السوفيت من السيطرة على المبنى . والغريب أن الريشتاغ لم يكن يمثل شيئا ذا قيمة عند النازيين فقد كان رمزا للديمقراطية التي صادروها بل وهم أغلقوا المبنى لمدة ١٢ عاما إلى أن سقط نظام هتلر ، ولكن السيطرة العسكرية عليه كانت تعني سقوط قلعة تاريخية في قلب عاصمة الرايش ، بالقرب من موقع القيادة في المستشارية والحكومة والملجأ الذي قضى في داخله هتلر الأشهر الأخيرة من الحرب تحت أرض حديقة المستشارية . وقد قمت بزيارة هذا الموقع

أكثر من مرة ، وكان قد وقع في المنطقة المحايدة المهجورة الفاصلة بين برلين الشرقية وبرلين الغربية ، ووجدت أنهم شيدوا فوق موقع الملجأ مباشرة موقفا لسيارات سكان المباني الحديثة التي أقيمت بعد توحيد شطري برلين . وكل ما يدل على وجود هذا الملجأ الأسطوري مجرد لوحة صغيرة معلقة تصف المكان القديم والملجأ ، وقد عرفت أن السوفيت فجروا الملجأ مرات عدة لازالته من الوجود ، لكنهم فشلوا في تدميره بالكامل فقاموا بإغلاق الفتحات المؤدية إليه ، وقام الألمان بعد التوحيد بالبناء فوقه وازالة كل ما يدل عليه لكي لا يتحول إلى مزار للنازيين الجدد .

في برلين أيضا زرت المقر القديم للجستابو ، أو الشرطة السرية النازية الرهيبة التي روعت الألمان لأكثر من عقد كامل ، وقد دمر المبنى ولم يبق منه سوى بعض غرف الطابق الواقع تحت الأرض وهي غرف أو زنازين التعذيب . وتعرض للزوار كأثر من آثار الماضي البغيض الذي يسعى الألمان بشتى الطرق للتبرؤ منه ومحوه من تاريخهم ، ولكنهم رغم ذلك يقومون بتدريس كل ما من شأنه ترسيخ عقدة الشعور بالذنب لدى الأجيال الجديدة باستمرار وترويج نظرية الإبادة الجماعية وغرف الغاز ومعسكرات القتل بالجملة التي قيل عنها الكثير والتي تردد الجماعات اليهودية وغيرها ، أنها أنشئت طبقا لخطة جهنمية لتصفية يهود أوروبا الذين كان يبلغ عددهم ستة ملايين يهودي . وهي نظرية وجدت الكثير من الباحثين- من بينهم باحثون يهود- الذين تحدوها ونقضوا الشهادات التي أدلى بها الذين عرفوا باسم «شهود الهولوكوست»!

وكنت قد أوليت اهتماما خاصا بهذا الموضوع وعكفت على

دراسته في أوائل الألفية الثالثة ، وقرأت الكثير حوله تأييدا ونفيا ، بل وترجمت كتابا كاملا يحوي بعض كتابات البروفيسور الفرنسي روبير فوريسون الذي يعد احد رواد مدرسة المراجعة التاريخية التي تنفي وجود غرف الغاز دون أن تنفي وقوع ضحايا كثيرين من اليهود في معسكرات الاعتقال نتيجة انتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة وقلة المواد الغذائية والمياه في أواخر الحرب بوجه خاص بسبب القصف العشوائي للمنشآت من جانب الحلفاء وهو ما أدى إلى قطع وتدمير طرق الإمدادات .

عندما أسير في منطقة «بوتسدامر بلاتز» التي أصبحت منطقة تجارية مليئة بالمباني المرتفعة على غرار نيويورك وإن لم يصل ارتفاع المباني الى مستوى ارتفاع ناطحات السحاب النيويوركية ، أتذكر المشهد الشهير من فيلم «الملائكة فوق برلين» للمخرج الألماني فيم فيندرز . وقد صور الفيلم عام ١٩٨٧ أي قبل توحيد ألمانيا ووقت أن كانت بوتسدامر بلاتز منطقة مهجورة تنتشر فيها الحشائش والمستنقعات والبعوض . ويظهر في المشهد رجل عجوز يسير في أرجاء المكان وهو يتأمل مصدوما ما وصل إليه حال منطقة كانت تزدهر وتنتعش بالحركة والحياة والنشاط التجاري والترفيهي في الماضي ، ينادي في حسرة وألم : أين بوتسدامر بلاتز . .دلوني عليها . . أين هي؟!

كثير من الأفلام التي شاهدتها كانت أيضا تتوقف طويلا أمام جسر غلينيك الذي يطلقون عليه جسر الجواسيس وهو يفصل بين شرق وغرب المدينة ويقع على نهر هافل ، وكان يتم عبره تبادل الجواسيس بين الكتلتين الشرقية والغربية ، أو المعسكر الاشتراكي والمعسكر الرأسمالي . ومن أشهر هذه الأفلام فيلم سبيلبرغ الشهير «جسر

الجواسيس» الذي تدور احداثه خلال فترة الحرب الباردة . وكان جسر الجواسيس- الحقيقي وليس الفيلم- خاضع للمنطقة التي تقع تحت سيطرة الأمريكيين ، وهو يفصل بين ضاحية فانسي في برلين وبوتسدام ، وقد استخدم كثيرا في تبادل الجواسيس ومن أشهرهم بالطبع الجاسوس الروسي رودلف أبيل الذي قبض عليه الأمريكيون في نيويورك وتبادلوه مع الطيار الأمريكي فرانسيس غاري باورز .

أما معبر تشارلي أو نقطة تفتيش تشارلي ، فكان أيضا يقع في القطاع الأمريكي من برلين ، وهو مجرد معبر يمر عبر سور برلين الذي لم يعد له وجود الآن ، لكن المكان مازال موجودا والطريف أنه يحمل اللوحة القديمة التي تقول «أنت الآن تغادر القطاع الأمريكي» عند نهاية الممر القصير في اتجاه شرق برلين لكن المرء يسير حاليا بين مناطق برلين المختلفة وهو لا يشعر قط بما كان قائما من حواجز تفصل بين القسمين ، فقد نجح الألمان نجاحا مبهرا في تعمير المنطقة الفاصلة وإزالة الجدار العتيق سيئ السمعة وإقامة مبان ومنشآت حديثة كثيرة ، وتوسيع الشوارع ومدها على استقامتها ، كما فتحوا محطات قطارات الأنفاق التي كانت قد أغلقت بعد تشييد الجدار الفاصل ، وأصبحت كل قصص الحرب الباردة من آثار الماضي ، وإن بقي الكثير مما يدل عليها مثل مبنى «شتازي» أو البوليس السري لألمانيا الشرقية الذي أصبح مفتوحا أمام الجمهور ، أي متحفا يمكن الاطلاع فيه على الملفات السرية التي تحوي الكثير من المعلومات عن ملايين الأشخاص . وغير ذلك مما صور في الفيلم الألماني البديع «حياة الآخرين» .

كنت ذات مرة أتأهب لدخول إحدى قاعات السينما لمشاهدة أحد الأفلام التي كانت تعرض في مهرجان برلين السينمائي ، وأثناء الانتظار في الصف تعرفت على فتاة ألمانية عرفت أنها مخرجة أفلام تسجيلية ، وربما أكون قد لاحظت حدوث بعض الفوضى أثناء الدخول فعلقت كيف يسمح الألمان بمثل هذه الفوضى ، وتساءلت ماذا حدث لسكان برلين المعروفين بالانضباط والدقة فما كان من الفتاة واسمها كاترينا سوى أن ابتسمت ثم علقت بنبرة ساخرة : وهل ما نراها حاليا هي حقا برلين؟

من هذه العبارة امتدت المناقشة بيننا بعد أن انتهى عرض الفيلم ، فذهبنا وجلسنا في مكان قريب نتناول الشراب ونتحدث حول السينما وألمانيا وما جرى فيها ومشاكل ما بعد التوحيد . كان رأي كاترينا أن برلين أصبحت مختلطة كثيرا بحيث لم يعد ممكنا القول إنها عاصمة ألمانية كما كانت في الماضي ، فسألتها بنوع من الاندهاش وهل أنت ضد ما يسمى بالتعدد الثقافي وهو طابع المدن الأوروبية الكبرى مثل باريس ولندن وأمستردام وغيرها؟ كان رأيها أنها ليست ضد التنوع ، لكن لم يعد من الممكن أن نتخذ هذه المدن كأمثلة على الثقافة الفرنسية أو الانجليزية أو الهولندية وبالتالي لم تعد برلين هي برلين ، ولم يعد الانضباط القديم هو سمة سكانها خاصة مع وفود موجات هائلة من المهاجرين الذين يغيرون شكل الحياة في المدينة بالضرورة ويتركون بصماتهم عليها .

كانت محقة دون شك في هذا الجانب ، ولكن كان رأيي أن هذا قد يكون تطورا طبيعيا ، وأن مسار الأمور يفرض مثل هذا التطور الذي

قد تراه هي باعتباره تدهورا . من هذه النقطة تطرقت إلى موضوع غسيل المخ المفروض على الشعب الألماني منذ عقود ، بسبب نفوذ المنظمات الصهيونية وذلك الخضوع الألماني أمام الابتزاز ، وتساءلت ما هو ذنب الأجيال الجديدة التي لم تعرف شيئا عن النازية ولا تتحمل أوزارها لكي تدفع الثمن وتظل تدفعه إلى الأبد . وتحدثنا عن التدمير الذي تعرضت له مدن ألمانية مثل مدينة درسدن التي قصفها الأمريكيون والبريطانيون بالقنابل الحارقة فقتلوا ما يربو على مائة ألف شخص ، دون سبب عسكري بل كان ذلك في أواخر الحرب بعد أن كانت ألمانيا قد أوشكت بالفعل على الاستسلام . لدهشتي الشديدة وافقتني كاترينا ، ووجدتها تعبر عن شعورها بالأسى لما حدث بل وللطريقة التي كتب بها التاريخ من زاوية واحدة فقط . ولم يكن من الممكن أن أتخيل أن تدلي كاترينا برأي مثل هذا إن لم تكن تتحدث مع شخصا «غريب» تعرف أنه سيغادر برلين بعد يومين أو ثلاثة ، فالتصريح برأي في هذا الموضوع يمكن أن يؤدي بصاحبه في ألمانيا إلى المحاكمة والسجن!

لم يكن ممكنا اتهام كاترينا بالنازية أو التعاطف مع النازية ، فقد كانت من اليساريين المنتمين للحزب الاشتراكي الديمقراطي ، بل كانت أقرب ما يكون إلى الناشطات اليساريات ، ولم تكن معادية لليهود ، لكنها لم تعترض عندما تحدثت عن دور المنظمات الصهيونية في تعميق عقدة الإحساس بالذنب بل وافقت على ذلك . وكان هذا مفاجئا لي ، فقد كنت أعتقد أن تدريس تلاميذ المدارس من الصغر وحشو أدمغتهم بعقدة الشعور بالذنب كفيل بأن ينتج أجيالا ليس من الممكن أن تفكر بشكل مستقل فيما يتعلق بماضي ألمانيا تحديدا ، خاصة وأن هناك- على سبيل المثال- قوانين تحظر تماما وتعاقب بالسجن

المشدد كل ما يعتبرونه تشكيكا في الهولوكوست!

ليس معنى وجود شخصيات مثقفة منفتحة على الآخرين مثل كاترينا أن الشباب الالماني كلهم على شاكلتها فقد قابلت منهم من يميل إلى التجهم والتعالي بل ويتصف ببعض العنصرية أيضا .

كان معي ناقد ألماني في لجنة التحكيم التي رأستها في مهرجان لوكارنو عام ٢٠٠٢ ، وكنا نحكم أفلام أسبوع النقاد . وكان شخصا متغطرسا يميل إلى الاستعلاء لكني كنت أناقشه بالحجة والمنطق ، وقد نجحت في دفعه إلى القبول بما يمكن أن يسفر عن المناقشة الحرة والتصويت الديمقراطي ، وقد كان في البداية يتصور أنه يمكن أن يمارس ضغوطا لتغليب فيلم معين كان يراه الأحق بالجائزة . ولكن بشكل عام وجدت أن الألمان يميلون إلى التحفظ ، ولكن بينهم الكثير من الأشخاص الرائعين المحبين للحياة وللبشر ، وليس كما تروج الصورة الغربية الشائعة في الأفلام عن الألماني المتجهم البارد الذي ينفر من البشر . وهم أيضا منفتحون كثيرا جدا ، أكثر من الانجليز ، على ثقافات العالم . ويقبلون بوجود الأجانب في بلادهم كأمر طبيعي أو على الأقل هذا ما شعرت به من جانب أغلبية الناس ، فلم ألمح أي إشارة أو سلوك يدل على الامتعاض أو رفض أو استهجان وجود المهاجرين واللاجئين خاصة اخواننا السوريين الذين انتشروا في كل مكان في برلين ، وخاصة أنني كنت أنتقل بواسطة بعض الخطوط المحددة للحافلات وقطارات الأنفاق وألاحظ الوجود المكثف لهؤلاء اللاجئين والمهاجرين في وسائل المواصلات عموما . وليس صحيحا مثلا أن الألمان يستنكفون الحديث بالانجليزية ، بل على العكس ، فهم يرحبون بالتخاطب مع الأجانب من أمثالنا بالانجليزية ، وأحيانا الفرنسية ،

ولا بد أنهم سيتعلمون العربية قريبا بفضل اللاجئين العرب ، الذين لم أر كثيرين منهم يقبلون أصلا على تعلم الألمانية ، فهم إما يتخاطبون مع الألمان بالانجليزية أو لا يتكلمون سوى العربية ، وبالتالي يمثل عائق اللغة مشكلة كبيرة أمامهم . والعرب عموما كما لاحظت خلال أسفاري العديدة ، لا يرحبون بتعلم اللغات الأجنبية ، وعندما يتعلمونها يصرون على خلطها بالكلمات العربية .

أما وجود الأتراك في برلين فهو الوجود الأكبر بالتأكيد لأي جالية مهاجرة ، وهم نشيطون وملتزمون بالعمل الجاد ، ومنهم عدد كبير من ما يمكن أن أطلق عليهم «الإندماجيين» أي الذين يؤمنون بضرورة الاندماج في المجتمع الألماني دون أن يفقدوا هوياتهم الخاصة بالطبع ، رغم ما لاحظته خلال السنوات الأخيرة من ارتفاع أعداد «الإنعزاليين» الذين يتمسكون بشكل متشدد بالهوية الإسلامية تأثرا بأشكال الدعاية التي يطلقها أنصار رجب طيب أردوغان .

من أحب المطاعم إلى نفسي ، وأظن أن كثيرا من القراء يشاركونني في هذا ، المطاعم التركية ، فالطعام التركي من أشهى المأكولات وأكثرها ذوقا وبراعة ، ولاشك أن المطبخ التركي استمد الكثير من مأكولاته من المطبخ العربي ، في سوريا ولبنان بوجه خاص ، كما تأثر بالطريقة العربية في إعداد المشويات مع إضافة بعض اللمسات الخاصة بطبيعة الحال . وقد قرأت أن المطبخ التركي يعد واحدا من بين أفضل خمسة مطابخ في العالم . والأكل دون شك ثقافة ، أو جزء من ثقافة أي بلد ، والطباخ الفرنسي على سبيل المثال ، يعتبر نفسه فنانا مبدعا ، وليس من الممكن أن تتناول الطعام في مطعم فرنسي ثم تدفع المقابل وتمضي في حال سبيلك ، فطاقم الضيافة في المطعم الفرنسي ،

والتركي أيضا ، ينتظر منك قبل أن تترك «البقشيش» كلمة إطراء لما أبدعوه ، سواء في طريقة طهي الطعام أو تقديمه .

الكسندر بلاتز

عودة إلى برلين ، لابد أن أتوقف أمام الساحة الكبيرة الرئيسية الواقعة في برلين الشرقية أو بالأحرى ، في شرق المدينة أي ساحة الكسندر بلاتز الشهيرة التي خلدها المخرج الألماني الراحل فاسبندر في مسلسل تليفزيوني (يقع في ١٤ حلقة) في أوائل الثمانينات قبل أن يتوفي منتحرا في عام ١٩٨٢ ، والمسلسل (الذي عرض في دور السينما أيضا على أجزاء عدة) مأخوذ عن رواية ألمانية صدرت عام ١٩٢٩ ، تدور أحداثها في أحياء الطبقة العاملة الفقيرة بالقرب من ساحة الكسندر بلاتز ، بطلها مجرم يغادر السجن معتزما التوبة لكنه يجد نفسه مرة أخرى مشدودا إلى عالم الجريمة . وكان قد ظهر عن الرواية فيلم ألماني عام ١٩٣١ قبل صعود هتلر إلى السلطة .

ساحة الكسندر بلاتز ليست مكانا ساحرا كما هو الأمر مثلا بالنسبة لساحة القديس بطرس أو ساحة الفاتيكان الشهيرة في روما ، أو ساحة الطرف الأغر (ترافالجر) في لندن ، أو الكونكورد في باريس . صحيح أنها تتمتع بجاذبية خاصة لجمهور الشباب الذين يعتبرونها بؤرة للتجمع وممارسة التسكع ، لكنها تمتلئ أساسا بمنافذ البيع والمحلات التجارية والمطاعم ودور السينما ، أي أنها تعج بالحركة والنشاط ، باستثناء يوم الأحد حيث تستغرق في سبات عميق على العكس من لندن التي اتخذت بلديتها قرارا حكيما منذ سنوات ، بالسماح بمزاولة الأعمال التجارية يوم الأحد ، وهو القرار الذي استفاد منه التجار

وأصحاب المحلات ، كما استفاد منه المتسوقون من الزوار وأهل المدينة على السواء . ومعروف أن الأحد يوم عطلة أسبوعية مع السبت ، لكنه اتخذ منذ قرون سمات مقدسة فقد كان يوم التردد على الكنائس للصلاة وحضور القداس ، وهو ما تراجع بدرجة كبيرة حاليا .

أما أهمية ساحة الكسندر بلاتز فيرجع إلى كونها نقطة تقاطع ضخمة تتفرع منها شوارع كثيرة ، وتحيط بالكثير من المعالم الشهيرة في المدينة مثل برج برلين الذي شيدته الحكومة الشيوعية كرمز للمدينة ثم أصبح حاليا يضم مراكز البث الفضائي التليفزيوني ولذلك أصبح يعرف باسم «برج التليفزيون» وأحيانا يشار إليه باعتباره «برج الكس» نسبة الى الكسندر بلاتز . ولم أتوقف كثيرا أمامه بل ولم أجده معلما جذابا أصلا من ناحية التصميم رغم ارتفاعه الكبير الذي يبلغ ٣٦٨ مترا أي أنه أعلى مبنى في ألمانيا كلها . والواضح أنني لست من محبي الأبراج العالية خاصة تلك التي يتخذونها عادة رمزا أو نقطة جذب للسياح ، فكلها تتشابه في فكرتها مهما بلغ أرتفاعها . وقد سبق أن صعدت إلى برج أيفل في باريس دون أن أنبهر رغم أنه غريب في تصميمه الحديدي ، ورغم أنه يشرف على المدينة الجميلة من أعلى ، ويمكن للمرء أن يشاهد الكثير من معالم باريس من على بعد ، وهو أيضا أمر لا أجده جذابا ، فأنا أفضل مشاهدة المعالم التاريخية الشهيرة من على مقربة وبشكل مباشر وليس من أعلى برج على ارتفاع كبير ، فما هو المثير في هذا؟ وربما يرجع نفوري من البنايات العالية والأبراج إلى الدوار الذي يصيبني أحيانا عندما أتطلع من أعلى ، وهو ما يجعلني أحجم دائما عن التطلع من نافذة الطائرة كما يفعل كثيرون ، خاصة عندما تقترب من الهبوط في مدينة من المدن التي أسافر إليها ، بل

عادة ما التفت إلى داخل الطائرة وأشغل نفسي بمراقبة مشاعر المسافرين الجالسين مربوطين بالأحزمة ، في انتظار الهبوط .

جولة في الشرق

اصطحبني في سيارته ذات مرة ، صديقي المخرج السينمائي المصري- الألماني سمير نصر(مصري الأب ، الماني الأم) في جولة في شرق برلين بوجه خاص ، وأخذ يروى لي عن وضع المنطقة قبل توحيد شطريها ، وما حدث بعد التوحيد ، كيف أن سكان الشق الشرقي الذي كان خاضعاً للحكم الشيوعي ، هم الأكثر تشككا في الأجانب وانغلاقا عن ألمان غرب برلين ، لكني لاحظت أيضا وجود أعداد كبيرة من الأتراك يعيشون هناك ويمارسون نشاطا كبيرا في مجال المقاهي والمطاعم ، بل إنه أخذني أيضا إلى حي كامل يكاد يكون مستعمرة تركية . وتحدث سمير كثيرا عن الارتفاع الهائل في الأسعار وخاصة إيجارات المساكن والشقق في شرق برلين عما كان في الماضي . وقد لاحظت أنه يتحدث كثيرا عن «الإيجارات» وفهمت منه أن تأجير المساكن والشقق ، هو الأمر السائد حتى الآن وليس البيع والشراء كما هو الأمر في بريطانيا مثلا ، منذ أن أعلنت مرجريت تاتشر في الثمانينات أنها تتجه لأن تجعل بريطانيا مجتمعا من ملاك العقارات ، وباعت الحكومة أعدادا كبيرة من الشقق التي كانت تقوم البلديات بتأجيرها لمحدودي الدخل ، واشتراها من يقدر على شرائها من مستأجريها أو تم طردهم منها وبيعت للأثرياء . وهي مشكلة تسببت في حدوث مشاكل اجتماعية خطيرة .

المهم أن المرء يسير في برلين ، يقابل البشر ، يطالع الوجوه المتعددة

المختلفة ، يتأمل في «المعجزة الألمانية» التي جعلت دولة - أو على الأقل مدينة مثل برلين- عرفت دمارا بنسبة ٨٠ في المائة من مبانيها ومنشآتها ، تعود إلى الحياة بقوة ، بفضل عزيمة سكانها وإرادة الشعب الألماني وقدرته على الخروج من الكارثة التي أطاحت ببلده وكادت أن ترجعها إلى عصور ما قبل التاريخ . وهو ما يجعلني دائما أتساءل عن الإنسان العربي الذي عرفت مدنه التاريخية القديمة العريقة التدمير والدمار ، متى وكيف سيتمكن من إعادة إعمارها وبنائها ودفعها مجددا إلى موقع الصدارة ، ويتمكن من استعادة جمالها ورونقها؟ وعندما أطرح مثل هذا التساؤل على نفسي أحيانا أشعر بكثير من الغم والضيق ، خاصة وأنا أشهد عن بعد ، ما يحدث في العراق وسوريا ، حيث يشارك أبناء البلدين في مسلسل القتل والتخريب والتدمير . فما الذي حدث لنا؟ وكيف وصلنا إلى التنكر لأي قيمة تاريخية وأثرية ، وأصبحنا نعبث وندمر وننسف بينما يتفرج علينا الجميع عاجزين!

١٠
لشبونة مدينة الدهشة المتجددة

ذهبت إلى لشبونة عاصمة البرتغال للمرة الأولى عام ٢٠٠٧ ووقعت في حبها على الفور ، وعدت إليها بعد ذلك مرتين ، وأنا على استعداد للذهاب إليها كل سنة إذا استطعت وإذا توفر عندي الوقت ، فهي أحب إلي من سائر المدن الأوروبية بما في ذلك باريس وروما وهما مدينتان تاريخيتان مرموقتان .

قد لا تحتوي لشبونة على الكنوز المعمارية الهائلة التي رأيتها في روما مثلا ، لكنها تتميز عن روما بتنوعها الشديد من حيث البيئة والطبيعة ، فهي تجمع بين النهر والمحيط والجبل والوادي ، بين المرتفعات والسهول ، بين القديم والحديث ، وبين التاريخ والفن والجمال . وربما يكون من أجمل ما لمسته في لشبونة أيضا ، أنها رغم صخبها الشديد خاصة في فصل الصيف عندما يتدفق عليها السياح فيحيلون ليلها نهارا ، أنها ليست مدينة متوحشة قاسية تطحن الغريب كما تفعل لندن أو نيويورك مثلا ، فأهلها يتميزون بالطيبة والرقة ، ويطلق عليهم البعض «فقراء أوروبا» لكني وجدتهم يتميزون حتى عن الإسبان ، بالتواضع والترحيب بالغريب بشكل بسيط وجميل ، وهم على استعداد لقضاء وقت يشرحون لك ويرشدونك إلى ما تريده رغم عدم وجود لغة مشتركة . إنهم باختصار يشعرون بجمال وأهمية مدينتهم ،

دون أدنى شعور بالاستعلاء أو الغرور .

لشبونة كانت عاصمة إمبراطورية قديمة استعمرت بلادا شاسعة مثل البرازيل في أمريكا الجنوبية التي يتحدث شعبها البرتغالية حتى الآن ، وأنغولا وموزمبيق وغينيا بيساو وماكاو وتيمور الشرقية ، وبعض البلدان الصغيرة الأخرى . كيف تمكنت البرتغال وهي دولة صغيرة قياسا إلى جيرانها ، من الوصول إلى تلك البلاد البعيدة واحتلالها وتسخيرها لحسابها؟ هذا هو السؤال المحير خاصة أنني عندما أتطلع إلى وجوه وعيون البرتغاليين ألمح الطيبة والهدوء بل ونوعا من التدين الفطري أيضا ، فهم ينتمون للكاثوليكية ولكن دون مغالاة أو تشدد . لكنني توصلت للإجابة بنظرة سريعة على التاريخ ، فقد ساهمت البرتغال مساهمة بارزة في عصر الكشوف الجغرافية المثيرة . ومنها انطلقت رحلة فاسكو دي غاما الشهيرة لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ومن هناك استطاع الدوران حول افريقيا والوصول إلى الهند .

عندما نزلت في مطار لشبونة لأول مرة لم يكن من الصعب الوصول إلى قلب المدينة ، بل كان الطريق من أقصر وأفضل الطرق التي تربط بين المطار والعاصمة . فضلت الذهاب بالحافلة التي كانت شبه خالية في ذلك الوقت من فصل الشتاء ، وكانت تتهادى في إيقاع بطئ منساب ، وكنت أرى السائق وبجواره مساعده يتحدثان حديث الأصدقاء القدامى لا يشغلهم مرور الوقت . كان الجو منعشا مع لمسة برودة خفيفة . وكنت أود أن اتأكد أنني سأنزل في وسط المدينة بالقرب من الفندق الذي حجزت للإقامة فيه ، وكان يقع ، كما رصدته على الخريطة بالقرب ، من أهم ساحة من ساحات لشبونة هي ساحة الروسيو الشهيرة ، ولكنه كان أيضا قريبا من القلعة التاريخية ، أي قلعة

القديس جورج (سانت جورج) . وقد طمأنني مساعد السائق بابتسامة واثقة وقال إنه سيخبرني عندما يصل الباص إلى المحطة التي تقع بالقرب من الفندق . وقد حدث بالفعل . وكانت محطة التوقف هي «الروسيو» . وعندما هبطت من الباص طالعتني ساحة رائعة رأيت في أحد جوانبها عمودا مرتفعا فوق قاعدة تذكارية من الجرانيت والرخام ، يوجد في أعلاه تمثال بيدرو الرابع الذي يطلقون عليه «المحرر» وهو الذي قمع كل حركات التمرد العسكرية من جانب فصائل في الجيش البرتغالي في البرازيل ، بل ومنح البرازيل استقلالها عن البرتغال ليصبح أول امبراطور عليها .

كان الوصول إلى ساحة الروسيو في صباح ذلك اليوم لا ينسى . كان المارة قلائل في الساحة في ذلك الوقت من الشتاء . وكانت الموسيقى العذبة للناي والبيانو تصدح في أرجاء الساحة الكبيرة ويتردد صداها في كل مكان . كانت رائحة الفانيلا تفوح في الجو . وفي أحد أركان الساحة كان يجلس رجل عجوز يضع بجواره آلة عتيقة من آلات الأكورديون . كان يبدو أنه يستريح قبل أن يبدأ نشاطه اليومي مع تدفق السياح والزائرين على الساحة التاريخية . كنت أقطع الساحة عرضيا وكأنني أسبح في الهواء على نغمات الموسيقى السحرية التي لم أكن أعرف مصدرها ، وربما كانت تصدر عن جهاز تشغيل الموسيقى في مكان ما وتتردد عبر سماعات ضخمة موضوعة بدقة في أماكن محددة من الساحة . لكن الفكرة كانت رائعة دون شك .

كان العمود التذكاري المنتصب في الطرف الشمالي من الروسيو يقع في مواجهة المبنى الرائع للمسرح الوطني ، وهو ينتمي معماريا إلى العمارة النيوكلاسيكية (الكلاسيكية الجديدة) وقد اكتمل تشييده عام

١٨٤٦ وأطلق عليه مسرح الملكة ماريا الثانية . والطريف أنني علمت أنه في نفس هذا المكان تحديدا كان يوجد مبنى تاريخي رسمي تابع للدولة كان محلا لإقامة نبلاء أوروبا الذين يترددون على لشبونة ، وقد أصبح فيما بعد ، في القرن السادس عشر مع بدء موجة محاكم التفتيش بقيادة الكنيسة الكاثوليكية ، إلى مقر لمحكمة تفتيش لشبونة . أي أنه في نفس المكان كان يحكم على مئات الأشخاص بالموت بدعوى الهرطقة والمروق . ولكن فن المسرح والأوبرا هزم في نهاية الأمر ، التحجر العقلي والفكري والتزمت الديني ، وأصبح مبنى المسرح الوطني القائم حتى اليوم يعتبر تحفة معمارية لا يضاهيها شئ في جمالها ، ربما سوى الأوبرا الباريسية الأصلية (أوبرا غارنييه) .

لكي أصل إلى الفندق ، كان يتعين أن أمر من شارع صغير ضيق يمتلئ بالمحلات والبوتيكات الصغيرة التي كانت لاتزال مغلقة ، فالواضح ان لشبونة من المدن التي تعرف السهر حتى وقت متأخر من الليل ، وهو ما سأكتشفه فيما بعد عندما أكتشف حياة الليل واللهو الصخب التي لا تتوقف ، خاصة خلال عطلة نهاية الأسبوع . قادني الشارع الصغير إلى ساحة أخرى موازية لساحة الروسيو كانت أروع وأجمل ومازلت أعتبرها من أجمل الأماكن في لشبونة . هذه الساحة هي «ساحة فيغيرا» التي تتميز بالأحجار التي تغطي أرضيتها ، وبالتصميم المعماري الذي يراعي تماما ما يعرف بالسيمترية ، أي التوازن والتناسق في المباني القائمة على جوانبها المختلفة . هنا لا يوجد مبنى أعلى من مبنى آخر ، وتبدو النوافذ متشابهة في المساحة والتصميم . كان يوجد في هذه الساحة أيضا الكثير من المحلات والمقاهي والمطاعم وهي تؤدي كما سأعرف بعد ذلك ، إلى الشوارع الرئيسية السحرية في لشبونة ، ومن

هذه الشوارع يمكن الوصول إلى الساحة الأعظم في المدينة ، أي ساحة الكوميرسيو المطلة على النهر مباشرة ، والتي ربما لا يضاهيها في جمالها ورونقها سوى ساحة القديس بطرس في فينيسيا .

كان الفندق كما ذكرت ، يقع على حافة الحي العتيق أي حي «الفامة» . وعندما صعدت إلى سطح الفندق وجدت أنني أشرف بشكل مباشرة على قلعة سانت جورج الرائعة التي تعتبر رمز المدينة . وفي الليل تنعكس عليها الأضواء فتجعلها تبدو وكأنها منحوتة في الجبل . والرحلة إلى القلعة تبدأ من ساحة فيغيرا . هناك عثرت على بداية الخط الشهير للترام رقم ٢٨ الذي كان يصعد عبر الحارات الضيقة في حي الفامة إلى أن يصل بالقرب من القلعة . وقد ذهبت مرات عدة لزيارة القلعة ، في المرة الأولى بواسطة الترام العتيق الذي كنت أتشكك في البداية من كفاءته فهو يبدو كأثر مهجور من آثار الماضي ، لكني اكتشفت أنه يسير بسرعة كبيرة غير متوقعة ، ولا يمكن أن يضاهيه أي وسيلة أخرى من وسائل المواصلات في قدرته على تسلق الحارات المرتفعة المائلة الضيقة بحيث أنه كان كثيرا ما يحتل الحارة التي يسير ويصعد فيها ولا يترك سوى بضعة سنتميترات بينه وبين جدران المنازل الواقعة على أحد جوانب الحارة ، وكان من الخطورة أن يغامر أحد بالسير في عرض الطريق ، وكان لابد أن يلتصق بالجدار حتى يمكنه أن يتفادى أن يفتك به الترام . هذا الترام كان في الحقيقة كما علمت- ينتمي إلى ثلاثينيات القرن الماضي ، وكانت هناك خطة في وقت ما أظن عندما اختيرت لشبونة عاصمة للثقافة الأوروبية عام ١٩٩٤ أن يتم التخلص منه باعتباره أثرا من آثار الماضي العتيق ، وأن تحل محله الباصات الصغيرة . إلا أن الرأي استقر في نهاية الأمر على الإبقاء

على الترام كأحد المعالم السياحية التي يتقاطر عليها السياح وزوار المدينة ويستمتعون بمقاعده الخشبية ونوافذه التي من خلالها يمكن مشاهدة ربات البيوت وهن يقمن باعداد الطعام داخل بيوتهن الصغيرة المتلاصقة . وقد تم فقط تحديث هذا الترام القديم بتركيب أجهزة حديثة متقدمة للتحرك مع كوابح جديدة تكفل التحكم في مساره في تلك المسارات الضيقة الملتوية ، التي يصعب كثيرا قيادة السيارات فيها . وعندما ركبت الباص الصغير للوصول إلى القلعة بعد ذلك لم أشعر بنفس ما شعرت به من متعة مع ركوب هذه الترام التاريخي ، رغم أن الباص يتوقف أمام مدخل القلعة مباشرة . والطريف أنه كان هناك رجل أمريكي ضخم الجثة بصحبة زوجته . وقد صعدا إلى الباص وأخذ الرجل يتحسس جيبه بحثا عن حافظة نقوده فلم يجدها . لقد نشل أحد الأوباش حافظة الرجل الذي أخذ يشكو ولكن دون أن يفقد ابدا رغبته في الاستمتاع بالرحلة . وقد هبط مع زوجته عند الكاتدرائية بينما واصل الباص الصغير طريقه نحو القلعة .

الحي العربي

أشم رائحة العرب وأجواء المدن العربية القديمة ، أو بالأحرى الأحياء العربية القديمة . . القصبة في الجزائر وتونس ، والقاهرة الفاطمية ، ودمشق القديمة العريقة التي أرجو أن تكون قد بقيت محتفظة بتراثها بعد كل ما وقع . وقد اكتشف أن حي الفامة هو بالفعل حي عربي أصيل ، بناه العرب الذين احتلوا لشبونة عام ٧١١ قادمين من المغرب العربي حيث أقاموا مملكة إسلامية مستقلة أطلقوا عليها «طوائف لشبونة» ، وقد بقى من أثر العرب المسلمين في لشبونة حي

القلعة أو «الفامة» ويقال إن الكلمة مشتقة من «الفم» ، كما يقال أيضا أنها محرفة عن كلمة «الحمة» أي الحمام . والعرب هم الذين أعادوا بناء أسوار المدينة القديمة كما أنشأوا القلعة . ولكن كيف أصبح اسمها قلعة سانت جورج؟ هذا ما قضيت وقتا أبحث فيه إلى أن توصلت إلى أن البرتغاليين حرروا القلعة من سيطرة المسلمين عام ١١٤٧م ثم قاموا فيما بعد بتوسيعها ودعمها وأطلقواعليها اسم القديس المقاتل سانت جورج نزولا على رغبة الملك البرتغالي «جون الأول» (أو يوحنا الأول) . وكان انتصار البرتغاليين المسيحيين على العرب المسلمين في لشبونة إحدى غزوات الحروب الصليبية الثانية ، ويقال إنها أيضا الغزوة الوحيدة التي انتصر فيها المسيحيون الذين قهرهم صلاح الدين الأيوبي وأدى إلى اندحار الغزوة الصليبية وانحسارها في المشرق العربي .

أعود إلى «الفامة» التي زرتها ومشيتها وصعدت شوارعها وحاراتها الضيقة . وكنت ذات مرة قد قررت المغامرة في المساء واكتشاف الحي وكيف يعيش سكانه فركبت الترام الذي يستمر في الحركة حتى وقت متأخر ربما نحو منتصف الليل أو بعد ذلك رغم التناقص الذي لاحظته بوضوح في عدد الركاب . في هذه الساعة كانت القلعة قد أغلقت أبوابها بالطبع . كنت أود أن أرى البحر من أعلى . ولكي أكون منصفا فلم تكن قلعة لشبونة أو القديس جورج مبهرة فقد رأيت أفضل وأكبر منها في أماكن أخرى . أما ميزتها الأساسية فهي تتمثل في موقعها الفريد فوق ذلك التل المرتفع وكانت بالتالي تشرف على المدينة من جميع الجوانب . كنت أستطيع أن أرى النهر والبحر وأسقف منازل المدينة وأبراج كنائسها وقصورها بل وساحاتها البديعة وأهمها كما قلت من قبل ساحة «الكوميرسيو» التي لا نظير لها في أوروبا وتضاهي في

مساحتها أكبر ساحة أوروبية وهي ساحة القديس بطرس التي يقع في نطاقها الفاتيكان في روما .

كانت مشاهدة مياه نهر «تاجوس» المتسعة من أعلى التل في الليل متعة . وكان الجو باردا في ذلك المكان لكنه كان محتملا ويُشعر المرء بالارتياح وكأنني كنت أغتسل روحيا وأنقي ذهني حتى يصبح بوسعي أن أتأمل في قدرة الخالق وعظمة الإنسان . وقد كنت دائما أرى أن أجمل مدن العالم بل وأعظم الأماكن التي تقع فيها الآثار التاريخية ، تجمع عادة ، بين عبقرية الإنسان وعبقرية الطبيعة . فلم يكن مصادفة قط أن يختار الإنسان تشييد القلعة هنا في هذا المكان الواقع فوق هذا التل ، فأي مدفع من مدافع القلعة التي لاتزال موجودة ولكن للذكرى فقط ، كان يمكنه أن يردع كل من يحاول الصعود لاحتلال «فم» لشبونة أو «الفامة»!

ورغم أنني كنت أشعر بنوع من التردد والوجل أو ربما حتى الخوف ، وأنا أجد نفسي وسط شوارع خالية ضيقة هابطة إلى أسفل بحيث بدت أنها ستستمر هكذا في الالتواء والامتداد والتفرع إلى ما لا نهاية ، إلا أنني واصلت الهبوط تدريجيا وكنت أتوقف بين آونة وأخرى أستنشق الهواء وأستجمع طاقتي وأتطلع إلى البحر كأنني أستمد منه القوة والعزيمة . فالبحر عالم بأكمله ، يحتويك ويشدك ولكن دون أن يطلعك أبدا على أسراره ، فعليك انت وحدك أن تبذل جهدا كبيرا حتى يمكنك الوصول إلى بعض ما يخبؤه . ولكن من الذين يستطيع أن يسبر أغواره؟

عرجت في منتصف الطريق على حانة صغيرة كان في داخلها عدد قليل من سكان المنطقة . كانت صاحبة الحانة سيدة عجوز

متغضنة الوجه معروقة اليدين ، لكن علامات الطيبة التي تقترب من القدسية كانت ترتسم بوضوح على وجهها . اقتربت مني وابتسمت ابتسامة تحمل كل معاني الرقة وطيبة القلب . لم تكن هناك بيننا لغة مشتركة يمكن أن نتواصل من خلالها . أردت أن أسألها عن المنطقة وسكانها وتاريخها ، لكن حاجز اللغة خذلني هذه المرة . طلبت قهوة سوداء فأتت لي بقدح كبير ممتلئ عن آخره بالقهوة . كنت في حاجة إلى الشعور بالدفء والقوة ، ثم استجمعت قوتي ونهضت ومضيت أواصل الهبوط إلى أن فوجئت أخيرا بالترام العجوز قادما ثم توقف في محطة قريبة مني فتسلقته واختفيت في داخله ، وأخذت أراقب باعجاب كبير كيف يتمكن السائق من التحكم بمهارة في الكوابح حتى لا ينزلق الترام ويصطدم لا قدر الله ، بأحد المنازل .

صمد حي الفامة لحسن الحظ للزلزال الكبير المدمر الذي ضرب لشبونة عام ١٧٥٥ ، وسوف أصعد مجددا خلال النهار ، حوالي ربع المسافة فقط في الطريق إلى القلعة لكي أزور كاتدرائية لشبونة التي تعرف أيضا بكنيسة القديسة سانتا ماريا ، ويقال إنها كانت في الأصل معبدا رومانيا ثم تحولت إلى كنيسة ثم إلى مسجد ثم عادت لتصبح كنيسة ثم تعرضت للدمار جراء الزلزال وأعيد بناؤها وانقاذ ما بقي منها . وهي مازالت تعبق بالتاريخ ، وتوجد الكنيسة فوق تل مرتفع وأمامها ساحة صغيرة ، ولاحظت أن بلدية المدينة حافظت على الكاتدرائية بحالتها القديمة أي لم تحاول طلاءها كما لم تسعى لأن تجعلها مضاءة تلمع في الأضواء لكي تحتفظ لها بالوقار الضروري . وينتاب المرء الشعور بالبرودة وربما تسري في جسده ارتجافة أيضا وهو يعبر منحنياتها وردهاتها العديدة ، فهي لا تتكون فقط من الباحة

الرئيسية المخصصة للصلاة ، بل تشمل الكثير من الردهات والتفريعات التي تنتشر فيها توابيت الموتى من القديسين وكبار رجالات الكنيسة في الماضي . وهي توابيت حجرية عتيقة مصمتة . وقد رأيت أن أماكن كثيرة من الكنيسة سواء في فنائها الداخلي أو ردهاتها تفوح برائحة التاريخ ، ولاتزال تجري فيها عمليات الحفريات والتنقيب عن الآثار ، ويحدث الكثير من الاكتشافات بين فترة وأخرى ، خاصة أن الزلزال دفن كثيرا من التحف الثمينة تحت الأرض .

سر الاكتشافات

حديث التاريخ قادني إلى القيام بزيارة مختلفة نوعا ما ، إلى بقعة من أهم وأجمل بقاع لشبونة هي ضاحية «بيلام» التي تقع على مسافة سبعة كيلوكترات من قلب لشبونة عند مصب نهر تاجوس العظيم أو قبيل التقائه بالمحيط الأطلسي . هذه هي ضاحية الاكتشافات أو الكشوف ، فمن هذه البقعة انطلق الرحالة البرتغاليين الكبار يجوبون العالم بسفنهم ، وعادوا بالذهب وغيره من المنهوبات التي يقال إنها كانت توزن بالأطنان وأهمها بالطبع الذهب الخالص الذي كان ملوك البرتغال يصرون على استخدامه في صنع الأسرة ومقابض الأبواب والصنابير ، كما كانوا يأتون بأحجار الجرانيت لتشييد القصور ، وأنفقوا بالتالي الكثير على المتع الخاصة مما أدى بعد زوال عصر الاستعمار إلى أن تصبح البرتغال من أفقر بلدان أوروبا فملوكها لم يجيدوا استثمار الثروة القومية أو ما نهبوه من مستعمراتهم . وأما موضوع الديكتاتورية وكيف تشبث الديكتاتور فرناندو سالازار بحكم البلاد لنحو أربعين عاما وكان يرفض بشدة الخروج من أنغولا وموزمبيق بعد ارتكاب قواته

الكثير من المذابح ضد السكان المحليين ، فهو حديث آخر لا أريد أن اشغل به القارئ الآن ، لكنه جزء أصيل من تاريخ البرتغال ، وهي لاتزال تكفر عن ذنوبها في المستعمرات حتى يومنا هذا .

في أحد أركان ساحة «روسيو» يتجمع يوميا في المساء عدد من الافارقة السود معظمهم من المهاجرين غير الشرعيين الباحثين عن عمل بطرق غير قانونية في لشبونة . وهذه هي الضريبة التي تدفعها البلدان التي استعمرت افريقيا في الماضي . من هؤلاء الكثير من تجار السلع البسيطة مثل حقائب اليد والمشغولات واللعب . ولكني لاحظت أن الشرطة أكثر رحمة بهم من مثيلاتها في مدن وعواصم أوروبية أخرى مثل مدريد مثلا ، فهي تتركهم في حالهم معظم الوقت ، وهم من جانبهم أناس مسالمون تبدو على وجوههم علامات الطيبة والوداعة مع صبغة لا يمكن إغفالها من الحزن الممزوج ببعض الخوف أيضا . ويوجد الباعة المتجولون هؤلاء كذلك قرب محطات المترو في وسط لشبونة وأهمها محطة بايكسا في ساحة فغيرا .

قطع الترام الحديث رقم ١٥ نحو أربعين دقيقة إلى أن وجدت نفسي في ضاحية بيلام الساحرة خارج لشبونة . هنا كان لابد أولا من زيارة بيلام تاور (أو برج بيلام) وهو ليس من تلك الأبراج الشاهقة الارتفاع ، بل هو برج صغير متواضع قديم يعود تاريخه إلى القرن السادس عشر ، مشيد على الطراز القوطي البرتغالي الذي يعرف باسم «المانولين» . وهو يقع عند «فم» نهر تاجوس أو قرب مصبه حيث أقلعت سفن المستكشفين الأوائل . وكان هذا البرج الذي يعتبر تحفة معمارية أصيلة ، جزءا من نظام الدفاع عن مدخل النهر ، وبجواره شيد نصب تذكاري ضخم يتخذ شكل سفينة لها أشرعة من الحجر ، يمتد منها لوح

حجري ضخم نقشت عليه صور وأسماء الرحالة البرتغاليين الذين ساهموا في بعثات الكشوف الجغرافية حول العالم . هنا في هذه البقعة التي تبدو ممتدة في عمق التاريخ وقفت وتنفست هواء نقيا ورجعت بذهني عدة قرون إلى الوراء وأخذت أفكر : كيف كان يمكن أن يكون شكل العالم اليوم لو لم تكن بعثات الكشوف قد نجحت في الوصول إلى الهند ثم إلى قارتي أمريكا الشمالية والجنوبية؟ فمن اسبانيا أيضا أبحر كريستوفر كولومبوس عام ١٤٩٢ غربا فوصل إلى الساحل الأمريكي ظانا أنه وصل إلى الهند .

وأنا واقف في هذه البقعة الهادئة ، أخذت استعيد في ذهني كيف تغير تاريخ العالم منذ ذلك الوقت ثم برزت قوة عالمية كبرى حلت محل الامبراطورية الرومانية التي كانت تسيطر على العالم في الماضي لعدة قرون . وارتج علي الأمر ، فهل كان من الأفضل أن تكتشف أمريكا وتظهر الولايات المتحدة كقوة عسكرية جبارة تهدد وتتوعد وتضرب وتمارس الهيمنة حتى من دون حروب مباشرة ، وتنشر قواعدها في كل مكان ، تريد أن تبقى في التاريخ باعتبارها القوة الأولى في العالم بل وأن تتطلع أيضا نحو الكواكب الأخرى؟ أليس هذا الجبروت كله نتاجا للتقدم العلمي والتكنولوجي الهائل الذي ساهم بشكل مباشر في تطوير نظم الأسلحة وآلات الحرب؟ وهل يمكن أن يكون العلم دائما «محايدا» «سلميا» . وألا يتوقف هذا على رغبة الإنسان نفسه وكيف يستخدم العلم ، ولماذا يمول البحوث العلمية وفي أي اتجاه يدفعها؟

كان ملوك اسبانيا والبرتغال ، ثم انضم إليهم بعد فترة ، ملوك انجلترا وهولندا وفرنسا ، هم الذين وقفوا بقوة ودعموا ومولوا بعثات الكشوف الأولى إلى قارتي أمريكا ، ثم أنتجت الكشوف بعثات

عسكرية استعمارية قامت بالغزو والاحتلال وإبادة السكان الاصليين أو تحجيمهم . وكانت الكنيسة الأوروبية تقدم لهذه القوات المسلحة الدعم المعنوي والروحي ، كغطاء ديني للهمجية الأوروبية التي مورست على السكان الأصليين ، بدعوى أنهم متوحشون ، يجب ترويضهم أو قتلهم والاستيلاء على أراضيهم . وهي قصة الصراع الطويل بين البشر على كوكبنا الأرضي ، ففكرة السيطرة والاستيلاء والاستعمار والغزو هي دون شك ، إحدى الأفكار الأساسية المحركة للتاريخ .

ولكني من جهة أخرى أخذت أتساءل : هل كان العالم سيتمكن من تحقيق كل ما حققه من تطور علمي كبير لو لم يكن «رجال الحرب» قد دعموا أهل العلم؟ وبعيدا عن الاستعمار الاستيطاني وعمليات الإبادة التي وقعت في أمريكا وغيرها أيضا ، هل كان الاستعمار كله شرا مطلقا في المجمل؟ ألم يساهم على نحو ما ، في نقل أفكار أكثر تقدما إلى بعض البلدان خاصة مما ربما يكون قد ساعد في إدماجها في ركب «الحداثة» التي شملت نظم القضاء والتعليم والزراعة والصناعات وغيرها؟ ولاشك أن هناك من سيخالفونني هذا الرأي . لا بأس فالخلاف في الرأي أمر مشروع .

تداعت في ذهني كل هذه الأفكار وأنا أقف أمام ذلك النصب التذكاري عند الضفة الشمالية لمصب نهر التاجوس ، الذي أقيم في هذه البقعة الفريدة عام ١٩٤٠ ، ثم أدخلت عليه تعديلات وإضافات منحته عمقا أكبر في الخمسينات . والغريب أن من أمر بانشاء هذا النُصب الذي أصبح من المعالم السياحية في المدينة ، ويحمل طابعا رومانتيكيا لتخليد المستكشفين البرتغاليين ، هو الديكتاتور سالازار الذي حكم البرتغال بالقبضة الحديدية من عام ١٩٣٢ حتى وفاته عام

١٩٧٠ . ومن بعده جاءت الثورة الشعبية الديمقراطية التي أطاحت بالنظام العتيق الذي أسسه ورسخه ، وأخرجت البرتغال رسميا من عصر الاستعمار عام ١٩٧٤ .

عبرت الطريق العريض الموازي لشاطئ النهر عبر نفق بديع يقع تحت الحديقة الجميلة الى الناحية الأخرى حيث يوجد «دير جيرونيموس» التاريخي وهو أحد الآثار المهمة . وكان الدير قد أقيم عام ١٦٠١م وشهد الكثير من التجديدات والتوسعات عبر القرون . وهو نموذج فذ للعمارة القوطية ، ويتميز بالتصميم الذي يبرز الأبراج كما يبرز حضور الأقواس في تصميم الأقسام والوحدات المختلفة المفتوحة على بعضها البعض في الداخل . ولكن الدير لحقت به تغييرات في التصميمات التي تميزت بها الأقسام التي ألحقت به واصطبغت بطابع فنون وعمارة عصر النهضة .

كان هذا الدير قد أنشئ بالطبع كمحفل ديني ، حيث يبارك رجال الدين الجنود البحارة الذين كانوا يبحرون من المنطقة . إلا أنه تحول فيما بعد ليصبح مقرا سياسيا لرجالات الدولة والاستقبالات الرسمية ، وفي عصر الجمهورية أصبح مقرا يضم رفاة مشاهير الشعراء والمستكشفين والأدباء ورجالات السياسة الذين لعبوا دورا بارزا في التحولات السياسية الكبرى في البلاد . وداخل هذا الدير الفسيح الذي يضم أيضا عدة متاحف ، توجد مقبرة فاسكو دي جاما مكتشف الهند . وقد أدهشني أن يصبح هذا الأثر الديني في الأصل ، مقرا للاحتفال بالكتاب والشعراء ، وهو المكان الوحيد من نوعه في العالم- حسب علمي- الذي يحتفل بالحياة الدنيا وما حققه فيها هؤلاء المبدعون العظام رغم أنه اساسا محفل ديني .

في المرة الثانية لزيارتي إلى لشبونة استأجرت شقة صغيرة تطل مباشرة من ربوة مرتفعة من جهة الفامة على ساحة الروسيو . وكان المنظر خلابا والمكان قريب من كل شئ ، لكن العيب الأساسي أنه كان يتعين علي أن أتسلق ما لا يقل عن عشرين درجة لكي أصل إلى البناية ، ثم مزيدا من الدرجات الداخلية حتى أصل للشقة نفسها . ولأنني كنت أحمل حقيبتي التي ملأتها بما يكفي للإقامة لمدة أسبوع ، فقد شعرت بالتعب بعد الوصول إلى الشقة في البداية . يجب أن أعترف بأنني لا أحب تسلق المرتفعات ، فهي ترهقني وقد تجعلني أتصبب عرقا وبالتالي قد يتسخ قميصي خاصة في المناخ الحار . لكني كنت مصرا في تلك المرة على أن أتسلق بعض الشوارع المرتفعة في لشبونة لكي أصل إلى ما يعرف بالحي المرتفع أو «بيرو ألتو» . ويمكن الصعود إليه من الطرف الآخر لساحة الروسيو بالمرور عبر شارع «نوفا دا ترينداد» في منطقة كيادو إلى أن أصل إلى «روا دي غاليت» ، وعلى اليسار منه كان هناك مقهى «برازيليرا» الرائع في قلب «بيرو ألتو» . وبرازيليرا معناها «السيدة برازيل» وهو في الحقيقة مقهى وبار ومطعم للمأكولات الخفيفة والحلوى . وكان يتعين علي أن أجلس لكي أستريح من عناء الصعود السريع فلست من عشاق المشي البطئ بل عادة ما أفضل القفز بسرعة للوصول إلى الهدف ولا أتوقف أثناء الطريق لكي لا أشعر بالتعب ، لكني أشعر بالتعب في نهاية الطريق في كل الأحوال!

كان المقعد الوحيد الخالي الذي وجدته يقع خارج المقهى الذي كان مزدحما تماما في الداخل بعشرات الشباب والفتيات ، وكانت الموسيقى تصدح والساقي يتحرك بشكل محموم بين الطاولات

المختلفة . أما في الخارج فكانت الجلسة أكثر جمالا وسحرا ففي مقابل الرصيف الذي جلست فوقه كانت توجد منطقة متسعة مرصوفة بأحجار البازلت في أشكال هندسية بديعة ، وهي تعرف بـ «لارغو دي كيادو» . في هذه المساحة كانت هناك فرقة موسيقية من السود الأمريكيين تعزف موسيقى الجاز بشكل احترافي مذهل ، وكان الشباب الذي تجمع على الجانبين يتمايل على الإيقاعات . كانوا يحتسون الشراب من كؤوس في أيديهم ولكن دون خروج عن الأداب أو ارتكاب مخالفات أو «معاكسات» . وعندما كانت الفرقة تنتهي من إحدى فقراتها الموسيقية وسط تصفيق الجمهور كان أحد أفرادها يتقدم حاملا قبعته في يده ، ينشد الحصول على بعض العملات من الجمهور . وكان الجمهور سخيا . ورأيت الكثيرين لا يكتفون بالعملات المعدنية بل يمنحون الفرقة أيضا بعض الأوراق المالية من العملة الأوروبية المستخدمة في البرتغال منذ انضمامها إلى النظام النقدي الموحد للاتحاد الأوروبي .

مازال مقهى «برازيليرا» يحافظ على ديكوراته وتصميماته الداخلية الكلاسيكية ، المناضد والمقاعد الخشبية الأصلية ، اللوحات الكثيرة المعلقة فوق جدرانه ، الصور الفوتوغرافية التي تروي تاريخه وتصور المشاهير من الكتاب والشعراء والفنانين الذين كانوا يترددون عليه في الماضي . وأعتقد أن القهوة التي شربتها كانت من أفضل ما تذوقته في حياتي في أي مكان ترددت عليه . . خاصة وقد غشيت الكثير من المقاهي في إيطاليا واليونان واسبانيا وباريس .

على نفس الرصيف الذي كنت أجلس فوقه ، كان هناك تمثال مبتكر مثير للشاعر والكاتب البرتغالي العظيم فرناندو بيسوا . كان

التمثال عبارة عن مقعد يشبه باقي مقاعد المقهى ، والرجل يجلس فوقه يرتدي بذلته الكاملة وربطة عنقه وقبعته المميزة ، ويضع ساقا فوق ساقه الأخرى في وضع أفقي . كان الجميع حريصون على الوقوف بجوار التمثال والتقاط الصور معه . وكانوا أيضا يحرصون على التقاط الصور بجوار أفراد الفرقة الموسيقية وهم يعزفون موسيقاهم . كان هذا احتفال كبير بالحياة ، بالحب ، بالبشر ، بالفن . وكان المقهى نفسه يجمع بين كل هذه الأشياء وفيه يتجسد التاريخ في أجلى معانيه . كان المقهى أصلا قد أنشئ كمحل لبيع البن المستورد من البرازيل في القرن السادس عشر ، وسرعان ما أصبح نقطة تجمع للشعراء والفنانين والكتاب فتحول إلى مقهى ومقصف . وتمتلئ المنطقة المحيطة به بالمباني التي تجمع بين الرومانتيكية والكلاسيكية الجديدة . والغريب أنها تحتوي أيضا على بعض الكنائس القديمة التي يحرص البرتغاليون على تجديدها والحفاظ على بهائها . وقد سررت عندما علمت أن هذا الحي لم يلحقه دمار كبير في زلزال ١٧٥٥ ، وبقى محافظا على الكثير من كنوزه المعمارية . وعندما غادرت المقهى الشهير وسرت يسارا في شارع غاريت ، وجدت نفسي أمام مكتبة ضخمة تتميز بالتصميم الفني البديع ، وكانت مليئة بالكتب بلغات مختلفة . وقد ذكرتني هذه المكتبة بمكتبة «فويلز» الشهيرة في وسط لندن التي يأتيها الدارسون والباحثون عن الكتب النادرة بمختلف اللغات من شتى أنحاء العالم . غير أن «فويلز» تقع على طوابق عدة .

في الطرف الآخر من ساحة الروسيو توجد محطة السكك الحديدية التاريخية ، محطة الروسيو الجميلة التي أنشئت في القرن التاسع عشر عام ١٨٨٧ ، ومن الخارج تبدو واجهة المحطة كأنها واجهة

متحف قديم ، فهي تنتمي للعمارة الرومانتيكية التي تجمع بين الجمال والرقة والعظمة . ومن الداخل تم تحديث المحطة من وضع سلالم كهربائية ولكن مع المحافظة على الطابع القديم للأرصفة . وتوجد أرصفة القطارات في الطابق الثاني من المحطة ولا غرابة في ذلك لأن المنطقة التي تقع فيها مكونة من مستويين كما سبق أن شرحت . وبجوار محطة الروسيو يوجد ترام عتيق من عربة وحيدة ، يسير على خط حديدي واحد يصعد بزاوية حادة جدا إلى المستوى الثاني أي إلى «بيرو ألتو» ، ويستخدمه السياح للاستمتاع بالتصوير من داخله وبمتعة الصعود بهذه الطريقة وربما لتوفير الجهد أيضا ، ولكنني لاحظت عندما ركبته أن الكثير من الركاب يعودون فيه مرة أخرى إلى الروسيو .

مخزن المياه

كان النظام القديم لإمداد المدينة بالمياه عبر أنابيب من الحجر ترتفع فوق أعمدة هائلة عملاقة شيدت في القرن الثامن عشر . وقد رأيت شبيها لها أيضا في مدينة اسطنبول . هذا النظام الخاص بتزويد المدينة بمياه الشرب النقية من المصبات الرئيسية والمرتفعات الجبلية ، يمتد عبر لشبونة لمسافة ٥٨ كيلومتر . وقد ركبت القطار من محطة الروسيو إلى بلدة «كامبوليت» حيث أمكنني مشاهدة ذلك النظام الرائع المرتفع فوق أعمدة تمر من تحتها القطارات والسيارات عبر بوابات ضخمة على شكل أقواس هائلة . التقطت بعض الصور لهذه الأنابيب العملاقة فوق الأعمدة ، وعندما أردت الوصول بسذاجة إلى حيث يمكنني التعرف عن قرب على هذا النظام من الأنابيب وكيف يتم تخزين المياه استوقفت رجلا وزوجته كانا يقتربان من محطة قطارات كامبوليت

وسألتهما فأجاباني بأدب كبير إن ما أبحث عنه ليس موجودا هنا ، فهنا يمكنني فقط مشاهدة نظام أنابيب المياه عن بعد في أوضح صورة ممكنة . أما المكان الآخر الذي أبحث عنه فهو يوجد في لشبونة نفسها . وبعد البحث والتنقيب على الخرائط توصلت إلى مكان التخزين أو المخزن الكبير للمياه كما شيد في منطقة «راتو» . والمفترض أنه أصبح حاليا متحفا للزوار . وعندما وصلت إلى مكان المتحف وكان الوقت ظهرا ، وجدته مغلقا ، فقد كان هذا وقت الراحة . وكان يتعين علي الانتظار في حديقة ملاصقة إلى أن يفتح المتحف أبوابه مرة أخرى في الثانية بعد الظهر . ومن موقعي على مقعد في الحديقة استطعت مشاهدة الأنابيب العملاقة مرفوعة إلى أعلى تمر عبر الجدران إلى داخل الخزان الكبير .

كان هناك موظف واحد يجلس أمام مكتب خشبي عتيق في ردهة المتحف ، دفعت له ثمنا زهيدا لتذكرة الدخول فأشار بيده وغمغم بعض الكلمات بما يعني أنني حر في أن أتجول الآن داخل المتحف حسبما أشاء . لم يكن هناك غيري في هذا المكان الرحب ذي الجدران المرتفعة ، وكانت هناك رهبة تسري في جسدي وأنا أجوس بين ردهاته ، فرائحة التاريخ كانت حاضرة بقوة ، وكانت هناك برودة تسري في الجو . وقد دهشت من عدم وجود زوار في هذا المكان فقد كان بعيدا عن وسط المدينة الصاخب . كنت أستطيع أن أسمع صوت خرير الماء . كان ممكنا أن تلقي بعملة على الأرض فيتردد صداها في أرجاء المكان . قابلت أولا حوضا ضخما ممتلئا بالماء ، وكانت هناك صنابير ضخمة يصب الماء منها في الحوض ببطء شديد ، ثم صعدت سلالم معدنية قديمة إلى الطابق الأول ونفذت عبر فجوة حجرية ضيقة وحرصت

خلال ذلك على أن أبقي رأسي منخفضا حتى لا يصطدم بالسقف . كان هذا التجويف يشبه كثيرا التجاويف المرعبة التي شاهدتها من قبل في زنازين السجناء في سراديب قصر الدوق بفينيسيا ، وكما رأيتها أيضا في سجن قصر «الكونسيرجيري» في باريس حيث احتجزت ماري أنطوانيت لفترة قبل إعدامها في ساحة الكونكورد ، لكن الزنازين الفرنسية كانت أفضل كثيرا من زنازين قصر الدوق في فينيسيا .

المهم أنني صعدت مجددا لكي أجد نفسي أمام بوابات حديدية تطل على الأنابيب الطويلة الممتدة خارج لشبونة التي تأتي بالماء وتصب في ذلك الخزان الكبير الذي شاهدته عند دخولي . كانت التجربة جميلة ومثيرة ولكن مرعبة أيضا . كنت وحدي تماما في هذا المبنى الضخم ، وعندما بدأت في هبوط السلالم المعدنية الضيقة ، كنت أستطيع أن أرى الموظف البدين الجالس عند المدخل وهو يتثائب ويقاوم النوم من الشعور بالملل . وعندما مررت من أمامه أخيرا في طريقي إلى الخارج ، لم يبد عليه ما يوحي بأنه يبالي بوجودي أصلا!

في اسطنبول قبل فترة ، قمت بزيارة «بازيليكا سيسترن» التي شيدت أساسا في القرن الرابع (العصر الروماني) كمركز للفنون والثقافة ثم تحولت فيما بعد إلى مخزن للمياه ظل يزود القصور الملكية بالمياه النقية للشرب حتى العصر العثماني . وكان يتعين أن أهبط في الظلام درجات عديدة إلى أن وصلت وسط زحام هائل للسياح الذين اشتروا تذاكر مرتفعة الثمن ، لزيارة هذا الأثر التاريخي النادر ، وكان الحوض الكبير المملوء بالماء يقبع في الظلام ، تنغرس في مياهه مجموعة كبيرة من الأعمدة الرخامية الرومانية المصفوفة في نسق هندسي بديع . لكنني الآن مازلت في لشبونة .

مناخ لشبونة بشكل عام معتدل ، باستثناء أشهر الصيف التي ترتفع فيها درجات الحرارة كثيرا . . وقد عانيت كثيرا من ارتفاع الحرارة في الزيارة الثالثة التي أقمت خلالها في شقة بديعة في وسط لشبونة بالقرب من ساحة «الكورميرسيو» . . لكن وجود المرتفعات والنهر يخفف كثيرا من وطأة الشعور بالحرارة . في وسط المدينة أدهشني عندما زرت لشبونة في الصيف أن أرى أعدادا غفيرة من السياح ، بينهم الكثير من الأمريكيين الذين جاءوا من بلادهم خصيصا لزيارة المدينة التاريخية الجميلة . وقلت لنفسي أنه لابد وأن يكون المسؤولون عن السياحة في البرتغال قد نجحوا في الترويج لمدينتهم بحيث أصبحت قبلة للزوار من شتى أنحاء العالم ، فقد لاحظت أيضا وجود أعداد كبيرة من اليابانيين والصينيين ، لكن لم يكن هناك أي وجود ملحوظ للعرب .

في ساحة فيغيرا حيث توجد بداية خطوط الترام التي كانت في السابق ١٩ خطا وتقلصت حتى أصبحت الآن ٥ خطوط فقط ، يوجد تمثال الملك خواو الأول يعتلي صهوة جواد وهو يمسك في يده بالسيف . والتمثال مشيد فوق قاعدة حجرية ضخمة ، ويتجمع حوله عدد كبير من الحمام .

من الطرف الجنوبي لساحة فيغيرا توجد عدة شوارع رئيسية موازية لبعضها البعض منها ثلاثة أطلقت عليها الشوارع السحرية ، فهي تتميز كثيرا بما تعج به من نشاط تجاري . هناك أولا «شارع الفضة» (روا دا براتا) الذي يشتهر بالمحلات التي تبيع المشغولات الفضية . وهناك شارع أوغوستا الرائع الذي أستمتع فيه بمشاهدة العمارات التي تتميز بطابع

عصر النهضة ، ومنها ما أصبح فندقا أو مقرا لإحدى الشركات ، وهناك شارع فانكيروس (أي شارع بائعي الأقمشة) ، ويمر به خط الترام القديم ، وشارع دورادورس أو الذهب ، وأخيرا ومن أهم هذه الشوارع شارع ماداليا . وكل هذه الشوارع تصب في النهاية في الساحة الكبرى التي ذكرتها من قبل وهي ساحة «الكوميرسيو» . ولعل البقعة المطلة مباشرة على النهر الواقعة في هذه الساحة هي أجمل وأكثر الأماكن التي أشعر فيها بالسعادة والاسترخاء . يمكن للمرء أن يجلس هنا بالساعات يتأمل أولا في عظمة المعمار الذي يميز القصر الملكي القديم الذي يحيط بالميدان من ثلاث جهات ، في سيميترية رائعة من الطرفين الأساسيين ، أما الطرف الثالث فهو يفتح على الشوارع التي ذكرتها ، وكنت أيضا أستمتع كثيرا بالجلوس في أحد المقاهي المفتوحة الموجودة على طرفي الساحة ، اتأمل في وجوه الناس وحركاتهم وأتعجب من أنه لا يوجد أحد يشبه الآخر سواء في ملابسه أو مشيته وطريقته في الحركة بشكل عام ، فلكل طريقته وأسلوبه الخاص . كثير من السياح وكنت منهم بالطبع ، كانوا يلتقطون الصور للقوس التاريخي المشيد كمدخل إلى شارع أوغوستا . وقد بني احتفالا باكتمال اعادة بناء المدينة بعد الزلزال المدمر في ١٧٥٥ ، وهو يتكون من ستة أعمدة وفوق قمته وعلى جانبي البوابة توجد تماثيل لشخصيات تاريخية عديدة ساهمت في نهضة البرتغال ولشبونة . إنه تحفة حقيقية ربما يفوق في جماله ورونقه سحر قوس النصر الذي شاهدته في مدينة برشلونة الاسبانية .

المباني المحيطة بهذه الساحة ، وهي متشابهة في التصميم ومازالت تحتفظ ببهائها حتى الآن ، هي في الحقيقة إعادة تجسيد لقصر الريفييرا القديم الذي دمر في زلزال القرن الثامن عشر . وقد أصبح اليوم مقرا

حكوميا لمسؤولي الجمارك والرسوم البحرية . وهو ما أثار تعجبي ، فمثل هذا القصر إن وجد في أي مدينة أخرى من المدن الأوروبية الشهيرة مثل باريس أو أمستردام أو حتى لندن ، لتحول إلى متحف كبير لتاريخ لشبونة أو لتاريخ البرتغال عموما ، فهو يضارع أفخم القصور الملكية القديمة التي شاهدتها في فيينا .

مصعد سانتا جوستا

في أحد جانبي شارع أوغوستا يوجد المصعد التاريخي القديم «مصعد سانتا جوستا» الشهير الذي أقيم في أوائل القرن العشرين وافتتح رسميا في ١٩٠١ ، يمكن الوصول إلى قاعدته بصعود عدة درجات ، وهو مشيد من الحديد على النمط القوطي الجديد ، وأشبه ما يكون بتصميم برج أيفل في باريس (شيد في نفس الفترة تقريبا) . والغرض الأساسي من انشاء هذا المصعد الذي افتتحه الملك كارلوس شخصيا ، الربط بين المنطقة السفلى من المدينة أو حي «بايكسا» تحديدا ، والمنطقة العليا أو حي لارجو دو كارمو . ومعروف أن لشبونة تقع على عدة تلال مثلها مثل روما . لكن هذا المصعد الكبير أصبح فيما بعد وسيلة سياحية وقد ركبته باستخدام نفس بطاقة المواصلات العامة التي اشتريتها لاستخدام المترو والباص والترام . وعندما وصلت إلى أعلى لم أجد- لدهشتي الشديدة- أي منفذ إلى الحي العلوي فقد كان هناك بوابة حديدية مغلقة وبعض الأعمال الجارية هناك . لكني وجدت فقط «رواقا» خشبيا أقيم فوقه مقهى سياحي صغير جدا لمن يريد أن يجلس لتناول المشروبات ومشاهدة المدينة من أعلى وخاصة منطقة الروسيو البديعة .

هبطت من المصعد وشققت طريقي بصعوبة وسط حشود ضخمة من السياح الذين يصطفون في انتظار دورهم لاستخدام المصعد ، ذهبت أولا إلى ساحة كوميرسيو لتناول القهوة في أحد مقاهيها المفتوحة الجميلة ، ثم نهضت وعبرت من تحت قوس أوغوستا في اتجاه الروسيو ، ومن هناك هبطت الى محطة قطارات الأنفاق الشهيرة «كيادو» التي يتجمع حولها الكثير من الشباب وتنتشر في الشوارع المحيطة بها محلات المأكولات السريعة البرتغالية والحلوى اللذيذة . ويجب أن أعترف بأن شبكة مترو الأنفاق في لشبونة واحدة من أرقى وأنظف الشبكات المماثلة في أوروبا ، وقد وجدت أن محطاتها تتميز عن غيرها بالاتساع والرحابة وسهولة التعامل والذوق الفني الرفيع . وتعجبت كيف أمكن أن يتحقق هذا الانجاز الحديث نسبيا في عهد الديكتاتور سالازار . فقد أنشئت شبكة قطارات الأنفاق في لشبونة في الخمسينات من القرن الماضي . أي أنها حديثة للغاية قياسا إلى مثيلاتها في لندن وباريس ونيويورك وغيرها التي أقيمت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . والغريب أيضا أن أجمل شبكات المترو في العالم وهي شبكة مترو الأنفاق في موسكو أنشئت أيضا في عهد ديكتاتور أخر هو ستالين!

يقطع القطار محطتين فقط من الروسيو إلى ساحة الماركيز دي بومبال وهي من أكبر محطات لشبونة ، أما الساحة نفسها فهي مستديرة ومميزة ، ويوجد في منتصفها تمثال ضخم لدي بومبال نفسه الذي يعتبر من الرموز الوطنية المرموقة ، فقد كان الرجل رئيسا لوزراء البرتغال في الفترة من ١٧٥٠ إلى ١٧٧٧ وهو الذي قاد عملية إعادة بناء المدينة بعد الزلزال المدمر الذي وقع في عهده . يجوار الساحة

المستديرة توجد حديقة الملك إدوارد السابع البديعة التي أعتبرها من أجمل الحدائق العامة في أوروبا رغم صغر حجمها قياسا بغيرها في لندن وباريس . والغريب أنني عندما وقفت في منتصف الحديقة وتطلعت في اتجاه طريق الحرية أو «أفنيدا دو لا ليبرداد» ، الذي يصب في الروسيو ومن ثم تمتد الرؤية إلى النهاية ، أي إلى النهر ، لاحظت أن صفحة مياه النهر مرتفعة عن سطح الشارع الذي يتدرج في الارتفاع وهي ظاهرة لم أجد لها تفسيرا علميا مقنعا حتى الآن ، فكيف يمكن أن تكون صفحة الماء أعلى في مستواها من اليابسة دون أن يفيض الماء عليها ويغرق الأرض؟

أما «أفنيدا دو لا ليبرداد» (طريق الحرية) نفسه فهو في رأيي أجمل كثيرا وأكثر رونقا وسحرا من طريق الشانزليزيه الباريسي الصاخب الذي فقد الكثير من أهميته ورمانسيته بسبب طغيان المحلات التجارية ومستودعات الملابس البالغ كثيرا في أسعارها . وهو رأي قد لا يوافقني عليه كثيرون ، بل إن «طريق الحرية» أطول من الشانزليزيه ، ويتميز بالمنازل الرائعة التصميم الموجودة على جانبيه ، وفي وسطه حديقة توجد فيها بعض المقاهي ، جلست في أحدها واستمتعت بتناول قدح من القهوة الجيدة وقطعة من الحلوى ، وانتهيت بأن دفعت ثمنا زهيدا لها مقارنة بجمال المكان الذي كان يوجد بجواره جدول من جداول الماء مزين على جانبيه بتماثيل ونافورة تصب الماء فيه . . وشعرت أنه يمكن لشخص مثلي أن يقضي ساعات هنا يتأمل ويكتب دون أن يشعر بمرور الوقت . كان المكان هادئا بوجه خاص في عطلة نهاية الأسبوع . والمشي في هذا الطريق السحري متعة لا تعادلها متعة . وتوجد بعض دور السينما والمسرح في هذا الطريق ولكن دون صخب .

من أكثر المتع في لشبونة تناول الأطعمة الشهية التي يعرف بها البرتغاليون ، وخاصة الأطعمة البحرية . وتعتبر المدينة متحفا حقيقيا للبحريات بشكل عام . لكنها لم تعد رخيصة كما كانت عندما زرتها للمرة الأولى . ففي تلك المرة اصطحبت زوجتي معي إلى أحد مطاعم الأسماك في شارع أوغوستا المخصص للمشاة فقط ، وجاء النادل واقترح علينا أن نأخذ طلبا واحدا مشتركا فيما بيننا من الأسماك والمأكولات البحرية المتنوعة مع زجاجة من النبيذ الفرنسي الفاخر . وقد كان . وجلسنا ننتظر وصول الصحنين . ومن بعيد رأيت الرجل يجر عربة صغيرة من تلك التي يضعون عليها الأطباق عادة ، وفوقها صينية كبيرة وبضعة صحون معدنية صغيرة ممتلئة عن آخرها بأطايب الأنواع البحرية . قلت لزوجتي يبدو أننا على وشك أن نحظى بوليمة خاصة . استبعدت هي على الفور أن يكون هذا الطعام كله لنا وقالت إن الرجل لابد سيقوم بتوزيعه على الزبائن الجالسين حولنا . لكنه وصل أخيرا إلى مائدتنا وأخذ يضع في طبقينا بعض الأنواع ، ثم ترك باقي الأطعمة في الصينية فوق العربة لكي نأخذ منها كما نشاء ، وتمنى لنا عشاء شهيا!

حاولنا ألا يفوتنا تذوق كل أنواع الأسماك والبحريات التي جاد بها علينا هذا الرجل الرائع في هذا المطعم الرائع . لكننا فشلنا في القضاء على أكثر من نصفها ، فطلبنا أن نأخذ الباقي معنا دون أن نستخدم التعبير الانجليزي الذي أجده تعبيرا زائفا يعكس ثقافة تميل دائما إلى تفادي المباشرة واللجوء إلى التعبيرات الملتفة المضحكة . فالانجليز إذا أرادوا أخذ ما تبقى من طعام شهي بعد أن ينتهوا من

الأكل يقولون عادة للنادل : هل من الممكن وضع ما تبقى من طعام في «دوغي باغ» أي في «حقيبة للكلب»؟ وكأنهم سيأخذون باقي الطعام لإطعام كلبهم المسكين القابع في المنزل في انتظار أن يعودوا ليطعموه ، بينما يعرف النادل وكل الموجودين بالمطعم أنهم يقصدون تحديدا أخذ باقي الطعام لكي يأكلونه فيما بعد طالما أنهم قد دفعوا ثمنه . وبرغم ما في التعبير الانجليزي من غياب للمباشرة ، فقد أصبح اصطلاحا يعرفه الجميع في أوروبا وربما خارجها أيضا . أما أبناء الطبقة الوسطى المصرية التي أعرفها جيدا ، فلأنها طبقة ذات أصول زراعية فلاحية ، لم تخض أصلا أي ثورة صناعية بل عاشت مثل غيرها في العالم الثالث على استهلاك منجزات الصناعة الحديثة ، فلديها من التقاليد العتيقة ما يجعل أبناءها يشعرون بالخجل من طلب أخذ باقي الطعام الجيد الذي دفعوا ثمنه بالفعل مهما كان غزيرا ، فهم يتعففون عن طلب ذلك بدعوى أنه من «العيب» و«لا يصح» ويحذو حذوهم العرب الأثرياء أو حديثو الثراء الذين يعتبرون أن هذا الطلب يخدش صورتهم- أو بالأحرى- ثراءهم . وهو ما أراه شخصيا نوعا من السذاجة والبعد عن الروح العملية . بل إن بعض من عرفتهم يستنكف أن يسأل أحيانا عن سعر السلعة التي يرغب في شرائها ، بدعوى أن هذا أمر يسبب الإحراج . وهي سذاجة وانعدام كياسة يصيبني بالذهول أحيانا ، فأنا شخصيا لا أستنكف أن أسأل عن سعر أي شئ أرغب في شرائه ، وقد أرفض شراء ما أجد أنه ليس جديرا بالثمن المطلوب له ، وقد أدخل محلا من المحلات وأطلب رؤية سلعة معينة من أنواع أو «ماركات» مختلفة ، وبعد أن يعرض علي البائع أنواعا متعددة ، ويسعى بكل ما عنده لإقناعي بالشراء ربما لا يعجبني ما أراه فأشكره وأنصرف . ولا

أجد حرجا في ذلك فهذه هي طبيعة عملية البيع والشراء . والمثل المصري الشعبي يقول «ما بين البائع والشاري يفتح الله» . وقد فعلت هذا ذات مرة في القاهرة وكان شقيقي الصغير معي فذهل ذهولا شديدا واعتبر أن تصرفي هذا فيه الكثير من «قلة الذوق» ، لكني لا أبالي فهكذا يتصرف الأوروبيون الذين تبلغ دخولهم أضعاف دخول سكان العالم الثالث . فقد أنجزوا الثورة الصناعية والحداثة واعتلوا فوق منجزاتهم وتخلصوا من العقد الاقطاعية الريفية العتيقة!

عندما عدنا في زيارة أخرى بعد سنوات ، زوجتي وأنا ، إلى مطعم السمك نفسه ، كانت الأسعار قد ارتفعت بشكل كبير ، ولم يكن هناك أثر لهذا النادل ولا لصينية الأسماك الكبيرة . فلم يعد هذا وقتا للولائم بل لأن تأكل مثل غيرك ، نوعا واحدا من الأسماك ، وتدفع ثم تمضي دون أي «طعام للكلب» المسكين!

١١
نيويورك.. نيويورك

لم أكن أفكر أبدا في زيارة أمريكا ، فأين يمكنني أن أذهب في أمريكا ، فهي ليست مجرد دولة بل «قارة» شاسعة المساحة ، متعددة الولايات ، متباينة الثقافات ، مختلفة التضاريس والمشارب والأهواء . إلى أين أذهب ، وكيف أتعامل مع هذا المحيط الجغرافي والسكاني والثقافي المتباين والفسيح؟ كانت تلك تساؤلات تقلقني ، وتجعلني أحجم عن فكرة «غزو أمريكا» من أوروبا ، وتحديدا من الشاطئ الشرقي للمحيط الأطلسي . وكانت فكرة ركوب طائرة تعبر الأطلسي وتطير فوقه لمدة سبع ساعات ، فكرة مقلقة معذبة ، فأنا أكره الرحلات الجوية الطويلة ، وأنفر من الطيران فوق البحار والمحيطات حيث لا يمكنك أن تلمح أي أثر لبلدان أو مناطق مأهولة بالبشر إلى الأسفل .

غير أنني كنت دائما على قناعة بأن «التجربة الأمريكية» ضرورية إذا أراد المرء أن يعرف كيف يدار العالم من الولايات المتحدة تحديدا ، وكيف أصبح الإنسان الأمريكي يعتبر نفسه «محور الكون» ، وكيف حققت أمريكا كل ما حققته من أسباب للتفوق على غيرها من بلدان العالم المختلفة رغم أنها أمة حديثة نشأت قبل أقل من ٢٥٠ سنة ، فتاريخ «إعلان الاستقلال» الأمريكي ، أي بداية التأسيس الفعلي للدولة الأمريكية ، يرجع إلى الرابع من يوليو عام ١٧٧٦ .

وأخيرا ، في مارس ٢٠١٦ حزمت أمري على ضرورة عبور الأطلسي واقتحام أمريكا من بوابة مدينتها الأكثر شهرة ، أي نيويورك ، وهي في الوقت نفسه ، البقعة الأكثر قربا من الشاطئ الشرقي للأطلسي حيث أقيم في العاصمة البريطانية لندن . وكنت قد سمعت من أصدقائي الأكثر خبرة ومعرفة بالولايات المتحدة ، بأن أمريكا بعدما وقع في ١١ سبتمبر ٢٠١١ ، لم تعد كما كانت قبل هذا التاريخ المشؤوم . وقد قرأت كثيرا عن تعرض الكثير من العرب وذوي الأصول العربية من حملة جوازات السفر الأوروبية ، للكثير من المضايقات في المطارات والموانئ الأمريكية . وعندما دخلت على موقع القنصلية الأمريكية في لندن على شبكة الانترنت بغرض الحصول على تأشيرة دخول- أصبحت مفروضة فرضا على المواطنين البريطانيين وحملة جوازات السفر البريطانية بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، وجدت أن من ضمن الشروط العجيبة المنصوص عليها ألا يكون قد سبق للراغب في السفر إلى أمريكا الذهاب إلى إيران أو سوريا أو العراق أو باكستان أو أفغانستان أو السودان خلال السنوات الخمس الأخيرة . وكان هذا شرطا مستجدا ، وكانت السلطات الأمريكية قد حظرت أيضا سفر المواطنين «البريطانيين» الذين ينتمون أصلا إلى أي من هذه البلدان الستة . ولم يكن هذا كله شيئا مقارنة مع ما اتخذه فيما بعد الرئيس الأمريكي الجديد دونالد ترامب ، من قرارات جديدة قاسية وغريبة بدعوى حماية الأراضي الأمريكية من الاعتداءات .

المهم أنني وضعت خطة جيدة لزيارة نيويورك فقط والاكتفاء بها في زيارتي الأولى إلى أمريكا . وسافرت على متن الخطوط الجوية الأمريكية التي أقلعت من مطار هيثرو في غرب لندن ، ويجب أن أقول

إن الرحلة كانت على عكس ما توقعت ، هادئة ناعمة ، لم أعاني خلالها من أي ارتجافات أو اهتزازات في جسم الطائرة . وقد أقلعت الطائرة في نحو السابعة والنصف مساء من لندن وعندما وصلت إلى الأراضي الأمريكية بعد سبع ساعات لم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة والنصف مساء ، وقلت لنفسي إنني قد ربحت بضع ساعات من عمري ، فما العمر سوى صراع مع الزمن!

هبطت الطائرة في مطار جون كنيدي الذي كثيرا ما شاهدته في الأفلام الأمريكية ، وكنت أعتقد أنه أكثر فخامة ورونقا وشموخا من مطار هيثرو اللندني ، لكنني وجدته أقل كثيرا في مستواه بل كان في الواقع مطارا كئيبا . وبمجرد أن أصبحت أنا وغيري من المسافرين في صالة الوصول كان هناك شرطي يسأل : هل سبق لك القدوم إلى أمريكا؟ فإذا كان الأمر كذلك كان يشير إليك أن تتخذ وجهة محددة ، أما إذا كنت قادما للمرة الأولى مثلي ، فكان يتعين عليك أن تصطف مع أمثالك من «المبتدئين» ، في صف آخر ، يمر على ضابطة جوازات كانت من الأمريكيين من أصول أفريقية شأن معظم العاملين في المطار ممن صادفتهم شخصيا سواء عند الوصول أو فيما بعد خلال المغادرة ، وهم يطلقون على ضباط الجوازات «ضباط الهجرة» وهي تسمية موجودة أيضا في الموانئ والمطارات البريطانية ، ولا أعرف سر بقاء هذه التسمية السخيفة حتى يومنا هذا سواء في بريطانيا أو أمريكا . وهي غالبا ترتبط بما كان قائما في الماضي ، وقت أن كانت مثل تلك البلدان تستقبل المهاجرين وتفتح لهم أبوابها مرحبة بقوة العمالة الرخيصة بعد التوسع الكبير في تشييد المصانع في أعقاب الثورة الصناعية الثانية ، وكانت أمريكا كدولة قد قامت أساسا على الهجرة والمهاجرين ، إلا أنها عادت

فقيدت الهجرة وقننتها بإصدار قوانين وتشريعات محددة تضع قواعد صارمة لقبول المهاجرين .

ضابط الهجرة ، أو بالأحرى «ضابطة الجوازات» (وأنا من المؤمنين بضرورة استخدم المؤنث في الصفة الرسمية للمرأة المسؤولة) سألتني أسئلة عديدة ، عن أصلي وفصلي ، وعن عملي وسبب قدومي وكم يوما سأمكث ، وغير ذلك ، ثم طلبت مني أن أضع أصابع يدي واحدة بعد الأخرى على صفحة بيضاء لأخذ بصماتي ، وتكرر هذا الأمر مرة ومرتان وثلاث مرات ، إلى أن أصبحت راضية عن النتيجة التي يتم تسجيلها على جهاز كومبيوتر ، كما تم تصوير وجهي أكثر من مرة . وبعد ذلك سمحت لي بالدخول فوجدت في انتظاري ضابط آخر سألني عن استمارة البيانات التي وزعوها علينا في الطائرة قبل الهبوط ، وكنت قد قمت بملئ بياناتها ووقعتها ، وهي بيان كامل شامل يتضمن الاسم وعنوان الإقامة في نيويورك ورقم الهاتف وما اذا كنت تحمل أي أشياء تخضع للجمارك . . الخ

كنت قد حجزت مسبقا على موقع شركة الحافلات التي تنقل المسافرين من المطار إلى وسط مدينة نيويورك ، أي إلى مانهاتن ، وتمر خلال ذلك بعدة محطات تتوقف عندها ، آخرها المحطة التي أريد النزول فيها والقريبة من الفندق الذي حجزت للإقامة فيه في وسط مانهاتن .

بعد أن خرجت من المطار ووقفت على الرصيف مثل أي قروي قادم إلى عالم مختلف تماما لا يعرفه ، أخذت أبحث عن هذه الحافلة المميزة التي كنت قد رأيت صورتها وشكلها المميز على موقع الشركة على شبكة الانترنت ، لكني لم أعثر عليها . وجدت أمامي شخصا ينادي بصوت مسموع «تاكسي . . تاكسي» فشعرت كما لو كنت في

مطار القاهرة أو غيره من مطارات «العالم السادس» ، فتسمية «العالم الثالث» لم تعد مناسبة اليوم بعد اتسعت كثيرا المسافة بين «العالم الأول» والعالم الذي كان ثالثا فيما مضى .

اقتربت من صاحبنا الذي كان يبحث عن زبائن بعيدا عن الطرق الرسمية المخصصة لوقوف التاكسيات وسألته أن يدلني على المكان الذي تقف فيه حافلات الشركة التي حجزت عليها . . تطلع الرجل إلي في دهشة كما لو كان يرى أمامه كائنا فضائيا ، وأشار بيده إشارة غير مفهومة ، فلما كررت عليه السؤال قال متعجبا إنه يبحث عن زبائن للتاكسي الذي يعمل عليه ، فكيف أطلب أنا منه أن يدلني على الحافلة التي فضلت أن أركبها على التاكسي؟ لكنه أشار مرة أخرى إشارة غامضة إلى جهة ما اتجهت إليها فلمحت علامة الشركة . ولم يطل انتظاري ثم جاءت الحافلة . كان الراكبون مختلفين كثيرا في سحنهم وأشكالهم وجنسياتهم . وكان من بينهم بعض الأمريكيين بالطبع ، منهم فتاتان مراهقتان ، جلستا على المقعد الواقع خلفي مباشرة وأخذتا تتحدثان طول الرحلة من المطار إلى المدينة ، دون توقف ثانية واحدة باللهجة الأمريكية القح ، وبصوت مرتفع على الطريقة الأمريكية التي لا تراعي أحدا ، وكنت بالطبع أنصت لكل كلمة يتبادلانها ، وكانت الفتاتان تتحدثان في أمور تعتبر شخصية تماما ، لكنهما على ما بدا لي ، لم تكونا تباليان .

هل هذه نيويورك؟

كان هذا أول سؤال ورد على خاطري وأنا مازلت في الحافلة التي كانت تقطع المسافات وتعبر الجسور ، وتدخل في منحنيات كثيرة ، ثم

تعبر على مناطق مليئة بالمنازل والحوانيت ، وإشارات المرور الضوئية ، حيث تبطئ الحركة كثيرا ، على العكس تماما من كل الطرق التي تؤدي من وإلى المطارات الدولية في العواصم العالمية التي أعرفها وأعرف مطاراتها ، وهي عادة ما تكون طرقا سريعة لا تقطعها إشارات المرور أو الشوارع الجانبية . كما أن كثيرا من الطرق التي كنا نعبر عليها في الطريق إلى نيويورك أو «التفاحة» كما يطلق عليها الأمريكيون ، كان مليئا بالحفر والنتوءات التي كانت تمر عليها الحافلة فتهتز بركابها . والغريب أننا عندما دخلنا نيويورك نفسها وجزيرة مانهاتن تحديدا ، بدأ بعض الركاب الذين يجلسون بالقرب مني يتساءلون عن محطات بعينها ، ويوجهون لي السؤال ، والغريب أنني وجدت نفسي أجيب عن أسئلة البعض منهم بمعرفة الخبير الضليع ، ولكني كنت أعتمد كعادتي ، على ما درسته وحفظته عن ظهر قلب ، عن نيويورك وعن شوارعها وبناياتها ومحطاتها الشهيرة خاصة في مانهاتن . لكني لا أعرف السبب الذي حدا بهم إلى أن يسألوني أنا تحديدا مثل هذه الأسئلة بينما بدا لي الكثيرون منهم من سكان المدينة لكنهم كانوا على ما يبدو يستخدمون للمرة الأولى هذه الوسيلة الحديثة نسبيا أي الحافلة التي تربط بين المطار والمدينة . وكنت قد دفعت ٣١ دولارا للذهاب من المطار والعودة حينما يحل موعد العودة . كان التوقف الأخير للحافلة عند محطة بنسلفانيا ستريت . وعندما هبطت لأخذ حقيبتي وجدت السائق يحتجز الحقائب خلفه لا يخرجها من مخزن الحقائب بالحافلة ويسلمها لأصحابها إلا بعد أن يحصل من كل منهم على «البقشيش» . ما هذا؟ هذا لا يمكن أن يكون بلدا متحضرا . . أي بقشيش؟ لقد دفعنا ثمن التذكرة ذهابا وإيابا . كان معي بعض

الدولارات ولكن أصغر ورقة منها كانت من فئة العشرين دولارا . وعندما اعتذرت للسائق بأنني لا أحمل عملات صغيرة ، قال إنه يستطيع أن يعطيني ما أشاء من الأوراق الأصغر وأخرج من جيبه مجموعة منها أمسك بها في يده وأخذ يلوح بها في وجهي متسائلا في وقاحة : كم معك؟ فقلت ٢٠ دولارا ، فطلب أن يتناولها ، وتصورت أنه سيرد لي المبلغ في شكل أوراق صغيرة في قيمتها ويترك لي حرية ما أمنحه له ، لكنه ناولني أولا عشرة دولارات فطالبته بالمزيد فأعطاني دولارين ثم ثلاثة دولارات وقال هذا يكفي ثم سلمني الحقيبة ، أي أنه احتفظ لنفسه- على سبيل البقشيش- بخمسة دولارات . أبديت دهشتي الشديدة من هذا السلوك الذي اعتبرته «عجيبا» ، فليس من الممكن أن يحدث شئ مثله في لندن . وكان أمامي رجل إنجليزي هبط معي من الحافلة سألني كم أخذ منك؟ فلما قلت له خمسة دولارات وأن هذه نسبة كبيرة من ثمن التذكرة ، ضحك وقال : إنهم يفعلون هذا . . إنهم مجانين تماما . . لقد أرادوا الحصول مني في أحد المطاعم على ٢٥ في المائة من ثمن ما تناولته من طعام ، على سبيل البقشيش!

شعرت بأنني وقعت ضحية سائق محتال . وتذكرت أنني عندما زرت لندن للمرة الأولى في أوائل الثمانينات ذهبت إلى ساحة البيكاديللي . وبمجرد أن خرجت من محطة قطارات الأنفاق ، التقط لي أحدهم صورة ، ثم اقترب مني وقال لي وهو يناولني إيصالا ، إنه يريد عشرة جنيهات استرلينية مقابل هذه الصورة التي سيرسلها إلى عنواني خارج البلاد ، وطلب مني أن أكتب له العنوان بالتفصيل . شعرت وقتها وأنا أدفع ورقة مالية من فئة الجنيهات العشرة للرجل المجهول ، أن هناك من أعطاني «قلما» على قفاي ، تماما كما كان يحدث للصعيدي

«الغشيم» القادم للمرة الأولى إلى القاهرة عندما يهبط من القطار في محطة مصر (التي كانت تعرف باسم باب الحديد) عندما يقترب منه أحد النشالين يعرض مساعدته ثم «يلهف» محفظته المنتفخة بالمال ، وهو كل حصيلته من بيع البقرة التي كان يمتلكها . وتذكرت أيضا فيلم «راعي بقر منتصف الليل» (أو ميدنايت كاوبوي) الذي شاهدته منذ سنوات بعيدة وكان أيضا عن ذلك الشاب «الكابوي» القادم من تكساس في الجنوب الأمريكي (أي الفلاح الغشيم) إلى نيويورك ، وكانت أول صدمة له عند وصوله المدينة ، أنه وهو الذي جاء ممنيا نفسه بتحقيق ثروة من وراء بيع جسده للنساء ، فوقع في حبائل عاهرة «محترفة» أوهمته بأنها معجبة به ثم ينتهي الأمر بأن يمنحها كل ما معه من مال!

كانت قصة الاحتيال للحصول على بقشيش كبير دون أي مقابل ، الصدمة الأولى في المدينة التي لا تعترف سوى بالدولار الذي تضاءلت قيمته في نظري كثيرا منذ تلك اللحظة ، وتوقعت أنني سأستمر في نزيف الدولارات كلما دخلت مطعما أو مكانا للحصول على شئ أتناوله او أشتريه ، فقد كان واضحا أنني انتقلنا إلى بلد تشيع فيها ثقافة البقشيش ، تماما مثل بلدان الشرق القديمة . لكني لم أكن بالطبع من السذج أو الذين يجهلون نمط الحياة في الغرب بعد تجربتي الطويلة في العيش في واحدة من أكبر المدن الأوروبية وأكثرها غلاء أي مدينة لندن .

ولأنها كانت زيارتي الأولى إلى نيويورك لم أكن أقبل أو أقنع بالإقامة في أي فندق والسلام ، بل كنت أود أن أستمتع بالإقامة في واحد من أكبر الفنادق ضمن سلسلة شهيرة في وسط مانهاتن ،

وتحديدا في الشارع الثاني والثلاثين أي على بعد خطوات من ناطحة السحاب الشهيرة الأسطورية امباير ستايت ، وبالقرب من ماديسون سكوايز ، وكان يمكن الوصول سيرا على الأقدام إلى الشارع الثاني والأربعين الذي خلده الفيلم الموسيقي الراقص من الثلاثينيات بالإسم نفسه ، وهو أشهر شوارع نيويورك وربما أطولها أيضا ، وهو معروف بوجود الكثير من الملاهي ودور السينما والحياة الليلية الصاخبة ، ويتقاطع عرضيا مع المنطقة العنكبوتية التي يطلقون عليها «تايمز سكوير» ولكنها ليست «سكوير» بالضبط أو ساحة مثل الساحات الأوروبية المعروفة أو الميدان المستدير أو المستطيل ، بل عبارة عن مجموعة من الشوارع المتقاطعة والمليئة بالملاهي الليلية والمراقص والحانات ، يتجمع فيها الشباب من كل أجناس الأرض ليلية الجمعة- السبت بوجه خاص ، للسهر والرقص واللهو والاستمتاع بالحياة على طريقتهم الخاصة .

أويت إلى فراشي في غرفتي بالفندق وكانت الساعة حسب توقيت لندن حوالي الرابعة صباحا أو نحو ذلك ، ووجدت نفسي أستيقظ وأتطلع إلى الساعة المعلقة على جدار الغرفة المقابل لي وكانت تشير إلى الثامنة والنصف صباحا . الآن عرفت انني اكتسبت بضع ساعات من الزمن . وتأهبت لبدء جولتي في المدينة ، واكتشاف المنطقة المحيطة بالفندق . كان انطباعي الأول عن نيويورك أو على الأقل عن المنطقة التي اخترت الإقامة فيها ، أنها الأكثر ازدحاما عل وجه الأرض ، ليلا ونهارا ، بل في كل الأوقات . كان هناك أناس من جميع الأجناس والألوان ، لا أعرف من أي جاءوا ولماذا وماذا يفعلون في هذه المدينة الجهنمية الواقعة في أقصى أطراف الأرض من وجهة نظري ، فلم تكن مثل المدن التي ذهبت إليها كثيرا مثل برلين وباريس وروما

وبرشلونة مثلا ، التي تفصل بينها وبين أي مدينة في شمال أو حتى جنوب المتوسط ما لا يزيد عن ساعات محدودة . كان هناك الكثير جدا من الصينيين أو ذوي البشرة الصفراء أي من الجنس الآسيوي . واكتشفت أنني على مقربة من ما يسمى بـ«الحي الكوري» أو كوريا تاون . وكان يمتلئ بالمطاعم التي تفوح منها رائحة الطعام الكوري الشبيه بطبيعة الحال بالطعام الصيني الذي يعد من أرقى أنواع الطعام ويقع ضمن قائمة العشرة الأوائل ، جنبا إلى جنب مع الطعام الفرنسي والإيطالي والتركي وغيره .

كانت أول مشكلة واجهتني ولم أكن مستعدا لها ، هي مشكلة توصيل جهاز الكومبيوتر المحمول بالكهرباء . فلم يعمل المحول الذي أحمله معي دائما ، فقد كان النظام الأمريكي مختلفا ، ليس فقط عن النظام البريطاني بل وعن النظام الأوروبي أيضا . وأخذت أبحث أول ما بحثت ، عن محول يقبل النظام البريطاني الثلاثي ويحوله الى النظام الأمريكي . عثرت على هذا المحول في «سوبرماركت» صغير يقع بجوار الفندق ، ولكن ثمنه كان ٣٥ دولارا وكانت صدمة أخرى ، فهذا النوع من المحولات لا يزيد ثمنه في بلاد الانجليز التي نعتبرها من أغلى بلاد العالم ، عن جنيه ونصف استرليني أي ما يقرب من دولارين أو أكثر قليلا ، وأخذت أبحث في أماكن أخرى إلى أن اهتديت على دكان لصاحبه الهندي وزميله الذي ناولني محولا جيدا جدا متعدد الاستخدامات أي يمكن استخدامه في مختلف بلاد العالم وكان ثمنه عشرة دولارات فقط . هذا ما تعلمته من زمن ، أي ألا يرضخ المرء لأول سعر يعثر عليه ، بل يجب أن تصر على «التسوق» إلى أن تعثر على ما يرضيك . وهذا ما يفعله الانجليز ، وهم يستخدمون تعبير «شوبنج

أراوند» أي التسوق في أماكن متعددة ، في هذه البلاد لا توجد تسعيرة محددة بالطبع ، أو أسعار ثابتة للسلع والخدمات ، ولا حتى بين محطات بنزين السيارات أو أسعار علب السجائر ، ويرتفع ثمنها عاما وراء عام إلى أن أصبح اليوم يصل إلى مبلغ فلكي بكل المقاييس ، لكن جنون التدخين لم يتوقف .

لكي أفهم نيويورك وطبيعة شعبها بأجناسه المختلفة ، وأفهم إيقاع المدينة وسر حركتها وحيويتها ، كان ينبغي أن أهبط إلى شبكة مترو الأنفاق تحت الأرض . وهي واحدة من أقدم شبكات القطارات التحت أرضية في العالم وأطولها أيضا . كنت قد شاهدت قطارات أنفاق نيويورك في عشرات الأفلام من قبل ، وكنت أستغرب لشكلها القبيح لكن ما شاهدته كان أكثر قبحا من الصورة التي ظهرت في الأفلام . لم يبد لي أن هذه الشبكة ، خاصة المحطات ، قد شهدت تطويرا ملحوظا منذ العصر الحجري ، فمازالت هناك محطات محاطة بما يشبه الأقفاص الحديدية ومنها محطة الشارع الثاني والأربعين ، التي يشبه الخروج منها الخروج من سجن كبير . وأدهشني أيضا الكم الكبير من القذارة والقمامة الملقاة على قضبان القطارات ، والزحام الشديد ، والتصميم المعقد الذي يشمل قطارات سريعة لا تتوقف سوى في محطات معينة ، وقطارات عادية تقف في كل المحطات ، وعلى المرء أن يعرف الفرق بينهما وإلا وجد نفسه قد انتقل إلى حيث لا يحب . كذلك لا توجد هنا ، على العكس من قطارات الأنفاق في البلدان الأوروبية ، اتجاهات أو وجهات محددة بأسماء الأماكن أو على الاقل نهايات الخطوط ، بل هناك فقط اتجاهات بدائية بسيطة مثل «أعلا المدينة» (أي شمالا) ، وأسفل المدينة (أي جنوبا) وعليك أن تعرف مسبقا أين تقع

المحطة التي تريد النزول فيها بالنسبة إلى المحطة التي تركب منها ، هل هي شمالها أم جنوبها ، أب تاون أو داون تاون!

عند تقاطع الشارع الثاني والأربعين مع الشارع الثامن على ما أتذكر وقفت أنتظر الباص الذي سيأخذني قرب مبنى الأمم المتحدة الشهير على ضفة النهر الشرقي (إيست ريفر) . وعندما ركبت الباص وجدته مليئا بأمثالي ممن كانوا ذاهبون للفرجة على صنم الأمم المتحدة الشهير ، وكانوا مسلحون بالكاميرات وأجهزة التليفون المحمول والخرائط . وذكرتني حافلات نيويورك بما كنا نطلق عليه في مصر في السبعينات «أوتوبيسات كارتر» ، التي كانت قد وصلت من الولايات المتحدة كهدية من الرئيس كارتر وقتها للرئيس السادات أي كمعونة أمريكية . وكانت تتميز بتصميمها الخاص الذي يجعلها تبدو مثل عربة مصفحة ، لكن ينبغي أن استدرك لأقول إنه رغم كل القبح البادي المعالم الذي وجدته في شبكة قطارات الأنفاق ومحطاتها ، وما وجدته في شكل الحافلات من تصميم قبيح ، إلا أن شبكة مواصلات نيويورك عموما ، تعمل بكفاءة شديدة ، ولكن خلال عطلة نهاية الأسبوع يجب على المرء أن ينتبه لما يحدث من تغييرات وتبديلات وقطارات تلغى وأخرى لا تصل إلى نهاية الخط ، وهكذا ، وهذه التغييرات قد تحدث في اللحظة الأخيرة بينما يكون المرء واقفا ينتظر على رصيف المحطة كما حدث معي كثيرا ، ولو لم أنتبه لما يقوله ويعلنه عبر مكبرات الصوت موظف المحطة ، لفقدت القدرة على التصرف ، ولضاع وقتي سدى ، وما حققت هدفي أبدا . والطريف أنني وجدت أن شبكة المواصلات العامة في نيويورك ، خاصة مترو الأنفاق ، تصبح أكثر ازدحاما في عطلة نهاية الأسبوع «الويك إند» ، أكثر منها في

الأيام العادية ، على العكس مما يمكن ملاحظته في معظم المدن الأوروبية ، التي تخف فيها الحركة كثيرا في أيام العطلات ربما لأن الناس تعمل خلال الأسبوع وتقضي وقتا في الخارج في عطلة نهاية الأسبوع .

وجدت مبنى الأمم المتحدة الذي يتطلع إليه كبار الدبلوماسيين في العالم أقل في رونقه وجماله من ناحية التصميم المعماري ، فأي ناطحة سحاب نيويوركية تبدو أكثر جاذبية ، منه فهو يبدو مثل مبنى سكني من تلك المباني «السوفيتية» التي انتشرت في بلدان أوروبا الشرقية مثل بولندا ، ورأيتها كثيرا في الجزائر في الثمانينات حينما كان المهندسون السوفيت واليوغسلاف والبولنديون يساهمون بدرجة كبيرة في الإنشاءات السكنية (أو مساكن الشعب) التي كانت تقيمها الدولة تحت سيطرة الحزب الوحيد أي حزب جبهة التحرير ، واستمرت كذلك حتى عهد قريب . والغريب أن مبنى المنظمة الدولية التي أنشأت بعد الحرب العالمية الثانية ، يحتل مساحة أصغر كثيرا مما كان يفترض ، فليس مفهوما كيف تكون «أرض الله واسعة»- كما يقال ، أي أن المساحة المتوفرة في المنطقة التي أقيم فيها المبنى على إحدى ضفتي النهر الشرقي تسمح بانشاء مبنى ضخم يليق بالمنظمة الدولية ، ثم يكتفون بهذا المبنى الضيق الذي يبدو بلا شكل ، فهو مجرد مستطيل مسطح عديم الملامح .

رأيت الكثير من السياح والزوار يتجهون نحو البوابة الكبيرة التي تؤدي إلى الساحة المحيطة بالمبنى ، ومن ثم يمكن للمرء أن يتجه ناحية باب آخر للمبنى مباشرة . فعلت مثلهم وأردت الدخول فأوقفني الحارس برشاقة وأشار بضرورة الحصول على تصريح بالمرور من مكتب

يوجد قبالة المبنى من الناحية الأخرى من الشارع ، فتوجهت إلى هناك فطلب الحارس الاطلاع على جواز سفري لكني أخبرته أنني لا أحمله معي ، فطلب أي شئ يثبت هويتي مثل رخصة القيادة البريطانية ، وكانت لحسن الحظ معي ، ثم مررت باجراءات فحص حقائب اليد والسترة أو المعطف عبر أجهزة الكشف والمسح الالكترونية قبل حصولي على تصريح يكفل لي دخول الساحة المحيطة بالمبنى الشهير لكنه لا يسمح بدخول المبنى نفسه بالطبع . ولاشك أن المنطقة ساحرة وهادئة ويمكن للمرء التقاط الصور الفوتوغرافية التذكارية الخلابة فيها كما رأيت الكثيرين يفعلون وفعلت مثلهم . وكنت أخشى أن يهرع أحد الحراس ليعتقل ، أو على الأقل ينهر- من يلتقط الصور بدعوى أنه يصور في «منطقة عسكرية» أو أن المبنى من «أسرار الدولة العليا» ، وأنه مستهدف من جماعات الإرهاب الدولي- ولاشك أنه مستهدف خاصة في ضوء ما وقع في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، لكن شيئا من هواجسي لم يتحقق .

بمجرد أن غادرت فضاء الأمم المتحدة شممت رائحة شواء قوية كانت تخترق «خياشيمي» كانت تصدر من عربة صغيرة تقف على الرصيف الآخر بالقرب من الأمم المتحدة . وكان الوقت منتصف النهار تقريبا ، ولم تكن هذه الرائحة محسوسة قبل أن أدخل محيط مبنى الأمم المتحدة ، لكن يبدو أن صاحب العربة كان قد أوقد الفرن وبدأ في الشواء بعد ذلك ، فاقتربت منها ووجدت داخلها شابا أمريكيا يقوم بوضع قطع من الدجاج واللحوم على شواية يصدر عنها دخان كثيف يغطي سماء المنطقة . سألته عما إذا كانت هذه المشويات السريعة جيدة فأكد بشكل قاطع أنها أكثر من جيدة ، وأنني يجب أن أنتظر قليلا فقط

لكي أرى بنفسي كيف سيتقاطر عليها المئات ويصطفون بعد قليل ، أي عندما تحين ساعة الراحة التي يحصل عليها العاملون والموظفون في منتصف اليوم ، وكانت المنطقة ممتلئة بمكاتب ومقرات الكثير من الشركات والمؤسسات .

أردت أن أجرب فاشتريت رغيفا محشوا بقطعة من الدجاج دفعت ستة دولارات ثمنا لها . وغادرت لكي أكتشف أن هذه «البدعة» ، أي حكاية العربة التي تبيع سندويتشات المشويات السريعة ، منتشرة كالوباء في جميع شوارع نيويورك وفي أرقى الأماكن ، بل أزعجني كثيرا أن أرى أنها غزت مانهاتن وضاقت المسافات فيما بينها وبين بعضها ، فأصبح من الممكن أن يرى المرء عربات لا تبعد عن بعضها سوى بعضة أمتار . وأدهشني أيضا أن أكتشف أن معظم أصحابها من العرب والمسلمين مثل الباكستانيين والأفغان والعرب ، وقد تحاورت مع بائع جزائري يعمل على إحدى هذه العربات التي تقف أمام المدخل الرئيسي لأهم محطة قطارات في نيويورك وهي محطة «جراند سنترال ستايشن» الشهيرة التي سبق أن رأيتها في عشرات الأفلام الأمريكية بتصميمها الداخلي البديع وهي موجودة في منتصف الشارع الثاني والأربعين في تقاطعه مع بارك أفينيو . ولم أفشل في التقاط صور عديدة لي داخل هذه المحطة التاريخية التي افتتحت عام ١٨٧١ وتعتبر أكبر محطة للقطارات في العالم ، فهي تشمل ١٠٠ خط من خطوط السكك الحديدية ، موزعة على ٤٤ رصيفا تحت الأرض وفوق الأرض . المحطة بشكل عام قطعة معمارية مدهشة ، بل وأقرب ما تكون إلى متحف ، بسقفها الذي يتميز بنقوشه البديعة ، وبجدرانها وأعمدتها وجدارياتها ونوافذها ، وهي بلاشك ، فخر للإنشاءات المعمارية الأمريكية التي

تميل دائما إلى تحقيق الأضخم ، والأكبر ، والأعلى . . وهذه الرغبة في التفوق أقرب إلى «العقيدة» في العقل الأمريكي . ولم أنس ما سبق أن قرأته عن شراء شركة إنشاءات أمريكية جسر لندن التاريخي الشهير من القرن التاسع عشر (لندن بريدج) بعد أن عرضته الحكومة البريطانية للبيع عام ١٩٦٧ ، ودفعت الشركة الأمريكية ثمنا له ، أقل قليلا من مليونين ونصف مليون دولار ، ثم قامت بتفكيكه ونقله بالسفن حيث أعيد تركيبه في مكان ما من ولاية كاليفورنيا .

أعود إلى الشواء والمأكولات المشوية الرخيصة ، فقد قال لي البائع الجزائري إنه لجأ إلى أمريكا منذ عشرين عاما وإنه يستيقظ في الخامسة صباح كل يوم ، لكي يعد الأطعمة التي سيستخدمها ، ويجهز مواد الشواء وغير ذلك ، ثم يخرج مع شقيقه الذي يكبره في العمر والذي كان قد سبقه في الهجرة الى المدينة ، ووجدت أن الرجل لم يتغير كثيرا فهو مازال يتعثر في اللغة الانجليزية ، ويستخدم الكلمات الأولية البسيطة التي تساعده على تسويق بضاعته لمن يشترون من الجائعين الذين يترددون على محطة القطارات أو محطة مترو الانفاق القريبة الكامنة تحت الأرض . وعندما قلت له إن سعر السندويتش وهو ستة دولارات ليس قليلا ، ضحك قائلا بل إنه لا يساوي شيئا عند سكان المدينة . وفي تقديري الشخصي أن سعر التكلفة أقل قليلا من ربع هذا المبلغ . لكن هذا على أي حال ما أصبح سائدا في أرقى مناطق مانهاتن وقد رأيت عددا من هذه العربات في شكلها البدائي بالقرب من أحد أهم فنادق نيويورك وهو فندق «والدورف أستوريا» ، الذي يعد أحد فنادق النخبة وكنت أبحث عن هذا الفندق وأتطلع إلى كل ما يقابلني من مبان مميزة . ومازلت أستغرب كثيرا أن يكون مناخ نيويورك قد أصبح

مسكونا بروائح الفلافل والمشويات السريعة للحوم لا تعرف لها أصلا من فصل ، وأن تكون عربات المشويات قد انتشرت هذا الانتشار المخيف في جميع شوارع المدينة ، وأن تكون رائحة الشواء قد أصبحت مختلطة برائحة الحشيش والهيروين التي كنت أشمها كثيرا في بعض أركان وشوارع مانهاتن خاصة قرب محطات قطارات الأنفاق .

والطريف أن الكثيرين من أصحاب هذه العربات التي تبيع المأكولات السريعة كانوا من العرب المهاجرين الذي أصروا على تعليق لافتة تؤكد أنهم يبيعون سندويتشات من «اللحم الحلال» . ولا أعرف كيف تسمح بلدية نيويورك بهذه الآلاف المؤلفة من عربات سندوتشات اللحوم التي تشوى بسرعة ، وبهذه الروائح والأدخنة التي تزكم الأنوف في أرقى شوارع نيويورك . لكنها على ما يبدو وسيلة فعالة لمقاومة البطالة بين أوساط هؤلاء المهاجرين . وطالما انها تجد لها جمهورا فلا بأس . شخصيا لم أحبها ولم أجدها فكرة جيدة بل كنت أفضل عليها كثيرا تناول الأطعمة الطازجة مثل قطع الدجاج المسلوق مع كثير من الخضراوات والسلاطات ، والمحلات التي تبيع مثل هذه المأكولات وغيرها متوفرة كثيرا ، وهي تبيع بالوزن وليس بالنوع ، وهم يتركونك تضع في صندوق ورقي تختاره أنت حسب الحجم الذي تريده ، ما تشاء من كميات من مختلف الأطعمة المطهية الطازجة كما تشاء وحسب ما تريد ، ثم يضعون الصندوق على الميزان لتعرف كم ستدفع بغض النظر عما إذا كنت قد ملأتها كلها لحوما أو اسماكا أم خضراوات فقط .

وجدت نفسي ذات مرة أمام هذا الفندق العظيم مباشرة في «بارك أفنيو» ، وهو يتكون من ٤٧ طابقا وافتتح عام ١٩٣١ ، وكان يعتبر حتى ١٩٦٣ كما قرأت ، أحد أعلا فنادق العالم . والغريب أنني لم أنبهر بشكله الخارجي ، فهو أقرب ما يكون إلى السجون ، فواجهته تمتلأ بالنوافذ . وكنت مهتما بوجه خاص بعدد تلك النوافذ . والسبب في ذلك الاهتمام غريب . فعندما كنت أعد مادة كتابي الأول «سينما الهلاك» عن السينما الصهيونية في العالم ، استوقفني ما قرأته من تعليق لناقد امريكي عن الفيلم الصهيوني الدعائي «الخروج» (١٩٦٠) للمخرج أوتو برمنجر ، فقد وصف الفيلم بأنه ملئ بالنوافذ وأن عددها يفوق عدد نوافذ فندق والدورف أستوريا . كان يسخر بالطبع من الفيلم ويشير إلى ما يحتويه من «ثقوب» وهفوات ، وقد انتفض واقفا بعد أن قضى ثلاث ساعات في مشاهدة هذا الفيلم الصهيوني الدعائي وصاح (موجها حديثه للمخرج) : أوتو . . دع شعبي يذهب ، أي كان يستخدم نفس العبارة التوراتية الشهيرة التي يفتتح بها الفيلم!

المهم أنني عرفت أن عدد نوافذ الفندق تبلغ ١٤١٣ غرفة ، وللمرء أن يتخيل عدد النوافذ التي تزدحم بها واجهته . وعلى العكس من المنظر الخارجي الذي لا يبدو مثيرا للالتفات باستثناء الارتفاع العمودي الذي يلقي بظله على الواقفين في الشارع إلى أسفل (يبلغ ارتفاع مبنى الفندق ١٩٠ مترا) وجدت الفندق من الداخل أشبه ما يكون بقصر من قصور العظماء . . قمة الفخامة والأناقة والتصميم الرفيع والحس الجمالي المدهش . وعندما كنت أعبر الباب الخارجي للفندق الذي ينزل فيه عادة كبار الشخصيات لم يستوقفني أحد من الحراس وهو ما

أدهشني ، فلابد أن تكون هناك عيون «سرية» تراقب وإلا لوقع ما لا يحمد عقباه . لكنني على أي حال ، استطعت أن أتجول بحرية تامة داخل الفندق بل وأدخل أيضا مطاعمه الثلاثة ، وكان أحدها مزدحما بالرواد الذين كانوا يتناولون الطعام على وقع نغمات البيانو الذي كان يعزف عليه عازف شاب يجيد عزف مقطوعات تنتمي لعصر الموسيقى الحقة .

كان سر دهشتي من سلوك الحراس أنني كنت كلما مررت عبر بوابة الفندق الذي أقيم فيه وهو من فنادق مانهاتن الشهيرة ، كان الحارس يطلب أن يرى البطاقة الخاصة التي تعتبر مفتاح الغرفة التي أقيم بها ، إلا إذا كان قد سبق له رؤيتك وتفحصك من قبل ، والحراس عادة ما يتناوبون لذلك كان لابد أن تمسك في يدك بالبطاقة الالكترونية التي تفتح لك باب غرفتك بل وتكفل لك أيضا استخدام مصاعد الفندق فمن دونها لا يعمل المصعد . كان هذا سلوكا مفهوما في أعقاب هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ . لكن والدورف أستوريا- على ما يبدو- كان من المعالم السياحية النيويوركية ، وكان لذلك مفتوحا أمام السياح والزوار الراغبين في الاستمتاع بالتواجد ولو لدقائق داخل هذا البناء الشامخ المهيب ، والتقاط الصور التذكارية .

وبمناسبة الحديث عن الفنادق لابد أن أذكر في هذا السياق ، أنني بعد الليلتين الأولتين اللتين قضيتهما في غرفتي بالفندق الواقع في حديقة ماديسون سكوايز ، بدأت أشعر بالضيق بسبب قرب غرفتي من المصعد ، وبالتالي كانت ضجة القادمين في الليل من الخارج تقلقني ، فقمت بالشكوى إلى المشرفين على الاستقبال وطلبت نقلي إلى غرفة اخرى . ولدهشتي استجابوا لطلبي بل ونقلوني إلى جناح في الطابق

الثامن عشر ، ضمن أجنحة «الكلوب» أو النادي المخصص لما يسمى بالـ VIP أي رجال الأعمال و«الأشخاص ذوو الشأن» وكان جناحا رائعا مريحا وكانت المشروبات والحلوى والشاي والقهوة وغير ذلك من المشروبات متوفرة بالمجان في الصالون الملحق بالنادي . ومن بين ما أدهشني أيضا أن المشرفة على عاملات النظافة بالفندق كانت تأتي بنفسها بعد ظهر كل يوم ، تطرق الباب لكي تتأكد من قيام عاملات النظافة بواجبهن على أكمل وجه .

شوارع السينما

كنت مصرا على دخول السينما لمشاهدة أحد الأفلام في إحدى دور العرض الكائنة في الشارع الثاني والأربعين . عثرت على فيلم جديد بعنوان «سقوط لندن» ، كان فيلما خياليا يصور قصة قيام جماعة إرهابية باغتيال رئيس الوزراء البريطاني ثم انتهزت فرصة حضور الرئيس الأمريكي الجنازة التي شارك فيها كثير من الزعماء ، وقامت باختطافه ، ثم بدأت في تدمير معالم لندن التاريخية الشهيرة ، مطالبة بتنفيذ مطالبها باطلاق سراح أعضائها المعتقلين من الارهابيين . وكان زعيم العصابة رجل باكستاني معروف لدى المخابرات الأمريكية التي سيقوم أحد ضباطها بمطاردته .

لم يكن الفيلم مهما في حد ذاته ، وكان غرضي أن أمر بتجربة مشاهدة فيلم تجاري مع الجمهور العادي في المدينة في «تايمز سكوايز» وتحديدا في جزء من الشارع الثاني والأربعين . كان العرض مساء يوم السبت وكان الزحام كبيرا على كل الأفلام التي كانت تعرض في هذه الدار المكونة من ٧ قاعات للعرض ، وقد اخترت مكانا قصيا في أعلى

مدرج القاعة ، تصورت أنه بعيد عمن يرهقهم طلوع السلم ويفضلون الجلوس في مقاعد الصفوف الأولى . وفعلا كان هذا ما حدث ، إلى أن لمحت رجلا شابا مع سيدة تبدو أنها زوجته ، كانت متأنقة كثيرا ، وكان يفوح منها عطر نفاذ ، وكانت تبدو على ملامح الاثنين أنهما ينتميان (إلى المنطقة) وهو التعبير الذي أطلقه على القادمين من بلداننا العربية ، وأحيانا أداعب أصدقائي عندما أشير إلى من يبدو عليهم القدوم من عالمنا فأصفهم بأنهم «من حارتنا»!

ظل الشاب وزوجته يصعدان إلى أن اختارا الجلوس وراء ظهري مباشرة . ولم يكن في هذا شئ يزعج بل على العكس ، كنت سعيدا بأنني عثرت أخيرا على من يمكنهم أن يشعروننى بالألفة وبعالمية نيويورك . ولكن المشكلة أنه منذ أن بدأ عرض الفيلم ولم تتوقف السيدة عن الحديث ، وكانت تترجم للرجل عبارات الحوار في الفيلم . يالها من ليلة . . أنا القادم من بلاد الانجليز حيث يمكنك أن تلقي الإبرة على أرضية قاعة السينما لتسمع صوت ارتطامها بالأرض ، الآن وجدت نفسي أجلس وسط النيران المتقاطعة ، فأمامي كانت تجلس مجموعة من الفتيات السمينات بشكل ملحوظ ، حوالي أربعة أو خمسة من الافريقيات الأمريكيات ، جئن متسلحات بأكياس ضخمة من «الفيشار» . فهذا هو «الويك إند» ، والناس تريد أن تحتفل بوجودها في السينما ، ولو على حساب شخص مثلي يعتبر السينما مثل قاعة الأوبرا حيث لا يجوز الحديث أو تناول الفيشار أو قزقزة اللب ، لكنني حمدت الله أن أحدا- على الأقل- لم يستخدم التليفون المحمول في الحديث مع صديقه كما يفعل جمهور السينما في العالم العربي ، وإذا حاولت أن تلفت نظر أحدهم إلى أن ما يفعله خطأ ، ينظر اليك الجميع

باعتبار أنك شخص غريب الأطوار .

على أي حال لم أكن قد أتيت إلى نيويورك لمشاهدة الافلام ، بل لمشاهدة المدينة بأحيائها وشوارعها المختلفة التي يحمل كثير منها علامات بارزة محفورة في ذاكراة عشاق السينما ، من الأفلام التي صورت فيها ومن أشهرها فيلم «الأب الروحي» (أو «العراب») الذي قام ببطولته مارلون براندو وآل باتشينو وروبرت دي نيرو . وكان المشهد الذي حفر في ذاكرتي ولا أنساه ، هو مشهد اطلاق الرصاص في محاولة لاغتيال دون كورليوني (براندو) بعد مغادرته داره ومقر عمله في محل بيع زيت الزيتون «جنكو» في موت ستريت ليشتري بعض الفاكهة من بائع وضع فاكهته على عربة . كانت مفاجأة صادمة ، ومنظرا غريبا ، أن يستقر جسد هذا الرجل العملاق ، زعيم أكبر عائلات المافيا النيويوركية على أرضية الشارع . وكان الشارع والمبنى الذي خرج منه وهو لايزال موجودا حتى اليوم ، في الحي المعروف باسم «إيطاليا الصغيرة» (ليتل إيطالي) .

يقع هذا الحي في الجزء الجنوبي من مانهاتن ، وكان تقليديا حي المهاجرين الإيطاليين ، وإن لم يعد يقطنه سوى عدد قليل منهم ، لكن المحلات والمطاعم الإيطالية مازالت منتشرة فيه . وعندما كنت أسير في شارع «جراند ستريت» وهو أحد الشوارع الرئيسية في «إيطاليا الصغيرة» وأتفقد الأسماء الايطالية لبعض المحلات ، لفتت نظري لوحة موضوعة أمام محل صغير تقول إنه أقدم محل لبيع الأسلحة في أمريكا كلها . وكان هناك نموذج لمسدس ضخم معلق أعلا المحل ، لا يمكنك ألا تراه . واسم هذا المحل هو «جون جوفينو» . وهو يعود إلى عام ١٩١١ لكنه انتقل في العشرينات إلى موقعه الحاليَ . وهو مملوك لعائلة إيطالية ،

وعلى اللوحة التي أشرت إليها ما يفيد أنه يبيع الأسلحة للشرطة ، ولا أعرف لماذا تحتاج الشرطة الى شراء الأسلحة من تجار القطاع الخاص ، لكن هذه هي أمريكا . وقد علمت عندما تجرأت ودخلت إلى المحل وتبادلت الحديث مع رجل متقدم في السن كان يتطلع إلي في تشكك وريبة ، أن العائلة التي تملك المحل تمتلك أيضا أكثر من مصنع للأسلحة . لكن لاشك عندي أنه لابد أن يكون البيع قد شمل الخارجين عن القانون أيضا ، خاصة وأن المحل يقع في قلب حي الجريمة الإيطالية في نيويورك ، وكان يمكن أن يسطو عليه رجال المافيا إن لم يكن يتعاون معهم ويرضيهم . وقد التقطت صورا للمحل من الداخل ومن الخارج ولم يمانع الرجل في ذلك بل أبدى فقط رغبته في عدم الظهور في تلك الصور .

من «إيطاليا الصغيرة» انتقلت إلى «تشيناتاون» أو «الحي الصيني» وهو يختلف كثيرا عن الحي الصيني في لندن الذي يقع في وسط المدينة بل في أشهر مناطقها وأكثرها ازدحاما بالسياح أي ليستر سكوير . أما هنا فيبدو الحي الصيني فقيرا ، متدنيا ، وتبدو مبانيه قديمة عتيقة بالية ، توحي بأنها آيلة للسقوط . وقد أدهشني أن أرى أيضا عشرات الدكاكين التي تبيع الخضراوات والفواكه والمواد الغذائية الصينية أو التي تدخل في الأطعمة الصينية ، وكثير من هذه الأشياء معروضة على الأرصفة . والمناخ بشكل عام غير مريح ، ويختلف كثيرا عن الصورة الحية الصاخبة التي شاهدتها للحي في فيلم «عام التنين» لمايكل شيمينو من عام ١٩٨٥ ، وكان يصور المافيا الصينية وكيف حولت مطاعم الحي إلى أوكار للتخطيط للجرائم وتوزيع الهيروين .

عندما أردت الانتقال بالمترو إلى محطة قريبة من مكان مركز

التجارة العالمي أو البرجين اللذين تم تفجيرهما في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، لأرى ماذا فعلوا في هذا المكان الآن ، استخدمت البطاقة الالكترونية التي تفتح بابا حديديا حلزونيا كئيبا ليعبر المرء الى رصيف القطار تحت الأرض ، وهو باب أو بوابة بدت أنها تنتمي للقرن التاسع عشر أو بدايات القرن العشرين . لكن الباب لم ينفتح فكررت استخدام البطاقة مرة أخرى ومرتين ، فعجزت عن الدخول تماما ، وكان أحد الرجال يتطلع إلي في دهشة وأنا أواصل محاولاتي فتذكرت ما سبق أن قرأته عن استخدام بطاقات الدخول إلى أرصفة محطات المترو النيويوركية ، وهو أنك إذا فشلت أكثر من مرتين أو ثلاثة ، يصبح عليك أن تنتظر لمدة ١٨ دقيقة قبل أن تستطيع استخدام البطاقة مجددا . ولم أقتنع بهذا النوع من العقاب ولم أفهم سببا له ، لكنها نيويورك ، حيث لا يتعين عليك أن تفهم كل شئ .

لم أشأ الانتظار لمدة ١٨ دقيقة وإضاعة مزيد من الوقت ، فصعدت درجات السلم الجدرية العتيقة إلى أعلى . وبالمناسبة معظم محطات قطارات الأنفاق في نيويورك غير مجهزة بالسلالم الكهربائية المتحركة ، ولا بالمصاعد ، إلا فيما ندر ، ولا أعرف ما كل هذه القسوة في التعامل مع كبار السن والمرضى والمقعدين . نيويورك بالقطع ليست مدينة رحيمة بالبشر ، كما أنها ليست من المدن الصديقة لراكبي الدراجات . ومن لا يحصل على دخل كاف سينتهي مثل كثيرين ممن رأيتهم يتسكعون قرب صناديق القمامة الموجودة أمام مطاعم الوجبات السريعة لالتقاط ما يمكنهم منها . ألم يضطر «راعي بقر منتصف الليل» الذي قام بدوره الممثل جون فويت في الفيلم الشهير ، إلى بيع دمه حتى يتمكن من مواصلة العيش في نيويورك . لكن أحد لم يتهم الفيلم ولا

أصحابه في ذلك الوقت (١٩٦٨) بتشويه صورة أمريكا أمام العالم ، والضلوع في مؤامرة لـ«هدم الدولة الأمريكية» ، كما يحدث في بلادنا العزيزة اليوم . لكن هذا موضوع آخر!

تمتلئ محطات المترو أو قطارات الأنفاق بأعداد كبيرة ممن يبدو عليهم أنهم من الفقراء أو على الأقل ليسوا من أهل النخبة أو أصحاب الوظائف الكبيرة كما هو الحال في لندن مثلا حيث تزدحم قطارات مترو الأنفاق بالموظفين الذين يعملون في حي المال بالمدينة ، لحساب الشركات المالية والبنوك الكبرى ، وهؤلاء يحصلون على أعلى الرواتب في بريطانيا التي تصل إلى أرقام فلكية . أما في نيويورك فالبؤس يغلب على ركاب قطارات الأنفاق ، كما أن الكثيرين منهم يعانون من البطالة غالبا فهم ينتقلون كثيرا في أوقات العمل . ولكن ينبغي أن أقول إن أهل نيويورك بشكل عام ، رغم سرعة إيقاع الحياة وما يقال كثيرا عن غلبة الطابع العملي ، يتميزون عن سكان لندن بل وسكان كثير من المدن الأوروبية التي زرتها ، بالألفة والتعامل الإنساني الراقي . ولم يحدث أن توجهت بالسؤال إلى أي شخص إلا وأرشدني بابتسامة ودودة يشعرانك بأنك جزء من «الحالة الإنسانية» النيويوركية التي تجمع البشر من كل الأجناس والأعراق دون تفرقة أو استغراب ، ودون أن يسألك احد السؤال التقليدي الذي لا أحبه والذي يسأله كثيرون في لندن وهو : من أين أنت؟ فهذا السؤال يعزلك ويصنفك ويجعلك تشعر دائما بأنك لن تستطيع أبدا أن تصبح مقبولا كأحد سكان المدينة ، فهم يفترضون أنك غريب قادم من الخارج ، وبعد سنوات طويلة من الإقامة في لندن مازلت أقابل كثيرين يعتقدون أنني من السياح .

سألت سيدة كانت تبيع الصحف في «كُشك» يقع عند تقاطع «كانال ستريت» (أو شارع القناة) كيف يمكنني أن أذهب سيرا على الأقدام من عند هذا التقاطع قرب المحطة التي رفض بابها الحديدي اللعين أن يدعني أمر ، لكي أذهب إلى موقع مركز التجارة العالمية الذي أصبح أثرا من بعد عين ، فقالت إنني يجب أن أسير في تشرش ستريت (شارع الكنيسة) القريب إلى أن يقابلني «تشامبرز ستريت» (شارع الحجرات) وأن أقطعه حتى قرب نهايته ثم أردفت ضاحكة «سوف لن يمكنك أن تخطئ الموقع . ستجده بسهولة» .

أمكنني الوصول إلى المكان بسهولة فعلا . وكان هناك الكثير من السياح والزوار ، وكانت عمليات البناء والتشييد بواسطة رافعات عملاقة وأجهزة ضخمة للحفر مازالت تعمل في محيط المكان ، لكنهم كانوا قد انتهوا من تشييد برج طويل نحيف لم أشعر بالارتياح لشكله الحلزوني العجيب ، وأطلقوا عليه اسم «مركز تجاري عالمي واحد» ، كما أنشأوا متحفا لتخليد ضحايا الحادث المروع لم أهتم بدخوله اكتفاء بمشاهدة مساحتين في الخارج جعلا منهما بؤرة لتحية الضحايا ، كل منهما على شكل مستطيل كبير عميق في الأرض ، توجد في منتصف فتحة مستطيلة يسيل فيها الماء وعلى جانبيه أسماء الضحايا منقوشة على الحواف . أما الانجاز الأكبر في رأيي فهو محطة قطارات الأنفاق الجديدة التي أقيمت على أنقاض المحطة القديمة التي أغلقت بعد التفجيرات ، وهي تتميز بتصميم معماري وفني يعكس ذوق العصر ، يتخذ الجزء المرتفع منها الذي يظهر على سطح الأرض شكل حمامة سلام بجناحين ، وقد افتتحت في ٤ مارس ٢٠١٦ أي قبل أسبوعين من زيارتي للمكان . أما تحت الأرض فأنت تجد نفسك داخل

ما يشبه مدينة عملاقة هائلة ، لها جدران مرتفعة ، شامخة ، وأرضيات مصقولة من الرخام ، وهي تذكرني بالمدينة العصرية كما صورها المخرج الألماني فريتز لانج في فيلمه الصامت الشهير «متروبوليس» (١٩٢٧) . لقد أرادوا على ما يبدو ، أن يجعلوا المحطة بوابة كبيرة إلى حي المال . فعلى مقربة منها يقع ما يمكن أن أعتبره «أهم شارع في العالم» ، أي «وول ستريت» (شارع الجدار) . والغريب أنني وجدت هذا الشارع الشهير الذي ظهر أكثر من فيلم يحمل إسمه ، أهمها فيلم المخرج المشاغب أوليفر ستون «وول ستريت» (١٩٨٧) ، صغيرا وقصيرا لا يليق بكل هذا المجد الذي يضفونه عليه ، ولاشك أن سر شهرة «وول ستريت» وأهميته ترجع إلى احتوائه على مبنى بورصة نيويورك التي تتحكم في أسواق العالم بفضل قوة الدولار الأمريكي . أما مبنى البورصة نفسه فهو مبنى تاريخي يتميز بمعماره الكلاسيكي الذي يجعله يبدو كما لو كان أحد المعابد الرومانية القديمة . ولكن يجاوره في الشارع نفسه البرج المرتفع الكبير الذي يمتلكه الملياردير دونالد ترامب الذي أصبح رئيسا للولايات المتحدة . وتتكون ناطحة السحاب هذه التي أنشئت عام ١٩٣٠ من ٧١ طابقا . ويقال ان ترامب يحتفظ بمكتب له في أحد طوابقها .

من جنوب مانهاتن كان بوسعي أن أتوجه إلى جسر بروكلين المعلق الشهير الذي ظهر في أفلام عديدة ، والذي يبلغ طوله ما يقرب من كيلومترين . وقد سرت عليه وقطعته الى أن وصلت إلى الناحية الأخرى المقابلة لمانهاتن ، فوجدت نفسي في حي بروكلين . كان الجو صحوا في ذلك اليوم ، ورأيت الكثير من السياح بينهم الكثير من الصينيين ، يلتقطون الصور لناطحات السحاب على الضفة الأخرى في

مانهاتن وهي تعكس الذوق الأمريكي الذي يباهي بالضخامة والارتفاع في تصميم الجزء الأكثر حيوية من نيويورك .

غير أن أهم ما قمت به خلال زيارتي لهذه المدينة كان الرحلة المخططة مسبقا ، لجزيرة «إيليس» ، ليس فقط لمشاهدة ودخول الأثر العملاق «تمثال الحرية» ، ولكن أساسا لزيارة الموقع التاريخي لوصول المهاجرين عبر سنوات عديدة ، عندما كانوا يأتون من العالم القديم إلى العالم الجديد ويعبرون عبر تلك البوابة ، ثم إلى مكان فسيح كان مكانا للفرز ، فمن كان يبدو عليه المرض كان يتم عزله في الحجر الصحي داخل مبان أخرى مخصصة لذلك ، كما كان هناك مستشفى وسجن ، والحقيقة أنني أعجبت كثيرا بالمكان الذي يحافظون عليه كما كان بالضبط قبل أكثر من ستين عاما ، وقد وضعوا هناك لوحات تحمل كل تفاصيل عملية استقبال المهاجرين القادمين والمراحل التي مروا بها ، وأشهر الشخصيات التي عبرت من هنا ، وغير ذلك الكثير من المعلومات والصور ، بل وكانوا يعرضون أيضا الأفلام الوثائقية التي تسجل الكثير من مراحل العملية . وتقول المعلومات المتوفرة هناك إن نحو إثني عشر مليون مهاجر جاءوا الى أمريكا عبر هذه البوابة قبل أن تغلق عام ١٩٥٤ .

توجد أيضا كل تفاصيل إقامة تمثال الحرية والمراحل المختلفة التي مر بها إلى أن أصبح منتصبا في موقعه الحالي على الخليج المقابل ، هذه التفاصيل موجودة في جوف التمثال في الطابق الواقع تحت الأرض على شكل متحف خاص بتمثال الحرية . فلا شئ متروك للصدفة ، أو للتخمين ، وكل المعلومات موثقة بالصور والرسومات . وقد وجدت التمثال أضخم وأكبر وأعلا كثيرا مما تصورت (يبلغ ارتفاعه ٩٣ مترا) ،

وكان من الممكن أن أراه والتقط له الصور مع غيري من الزوار ، من زوايا مختلفة خلال اقتراب أو ابتعاد السفينة التي نقلتني من الشاطئ ، من الحديقة المعروفة باسم «باتري بارك» إلى جزيرة التمثال ومعبر المهاجرين في ليبرتي بارك .

المتروبوليتان

لم أنبهر كثيرا بمتحف الفن الحديث صاحب الشهرة العالمية ، ففي لندن ما يفوقه أهمية من حيث المحتويات والضخامة . لكن ما سعدت به سعادة غامرة كان متحف المتروبوليتان الواقع بالقرب من الحديقة الهائلة المساحة التي تعتبر الرئة التي تتنفس بها نيويورك ، وأقصد «سنترال بارك» (الحديقة المركزية) الأسطورية التي كانت في ذلك اليوم مزدحمة بالزوار وخاصة العائلات التي تصطحب أطفالها ، فالحديقة تمتلئ بكل انوع التسلية التي تعجب الأطفال بوجه خاص . ومنها منطقة للألعاب ، وبعض الطيور النادرة ، وبحيرة تسير على صفحتها القوارب .

اما متحف متروبوليتان فقد كان من أكثر ما أدهشني فيه احتوائه على مجموعات هائلة من كنوز العالم ، بما يجعله يكاد يوازي متحف اللوفر الشهير في باريس . وعندما دلفت إلى قسم المصريات أو الآثار المصرية القديمة ، وجدت نفسي أمام معبد كامل منصوب بأركانه هو معبد دندور الشهير الذي حصلت عليه الولايات المتحدة من حكومة الرئيس المصري جمال عبد الناصر عام ١٩٦٣ تقديرا منها للدور الأمريكي في إنقاذ «معابد فيلة» الشهيرة التي كانت تقع جنوب أسوان وكانت مهددة بالغرق في بحيرة ناصر التي نتجت عن إنشاء السد

العالي . وقد تم تفكيك معبد دندور ونقله إلى حيث أعيد تركيبه في جناح خاص بمتحف متروبوليتان . وقد فوجئت عندما عرفت أنه في الأصل معبد روماني أنشئ بأوامر من الامبراطور الروماني أغسطس كهدية لإيزيس وأوزوريس حسب الأسطورة المعروفة .

في الجناح التالي كانت هناك الكثير من التماثيل والمومياوات الفرعونية وكانت هناك سيدة أمريكية عجوز مخضرمة تبدو خبيرة في الآثار المصرية ، وقد أخذت تشرح للزوار أن هذه الآثار المصرية الهائلة في حجمها وعددها ، ليست مسروقة بل حصل عليها المتحف من الأفراد والشركات التي قامت باكتشافها في مصر ، وكانوا بدورهم قد حصلوا عليها بموجب اتفاقية رسمية مع الحكومة المصرية (قبل عام ١٩٤٩) كانت تقضي بحصولهم (أي المكتشفين) على ٥٠ في المائة من الآثار التي يعثرون عليها . ولما توجهت إليها بالسؤال عما يحدث حاليا ، قالت إن هناك الآن اتفاقيات مع الحكومة المصرية طبقا لشروط أخرى . لكنها عادت فأكدت أن هذه الآثار التي نشاهدها ليست آثارا منهوبة أو مسروقة . والواضح لي أن الكثير من الزوار كانوا يتساءلون عن قانونية وجود كل هذا العدد الهائل من المعروضات من الآثار المصرية ، التي تضاهي كثيرا في عددها وأهميتها بل وضخامتها ، ما رأيته عندما زرت متحف الآثار المصرية في مدينة تورينو الإيطالية والذي يوصف بأنه الأكبر في العالم بعد المتحف المصري . لكني عرفت أيضا أن المقصود بـ«الأكبر» كان الإشارة إلى «متحف» مستقل لا إلى قسم خاص ، فقد كانت الآثار المعروضة في «متروبوليتان» جزء من كثير من الآثار الأخرى التي جاءت من شتى أنحاء العالم .

تذكرت وأنا أهبط الدرج الحجري العريض لمبنى المتحف التاريخي

الذي أنشئ عام ١٩١٦ ، المشهد الشهير الذي شاهدته في فيلم «تخفى ليقتل» Dressed to Kill للمخرج بريان دي بالما من عام ١٩٨٠ .

تصعد امرأة جذابة سلالم متحف «متروبوليتان» وهي ترتدي ملابس بيضاء . تدلف إلى المتحف ، تتطلع في نوع من الحسد الى شاب وفتاة يتبادلان قبلة . تسجل ملاحظات في دفتر صغير تحمله في يدها ، تشاهد صورة لقرد يستلقي ، يتسلل رجل يجلس بجوارها على المقعد المستطيل في المتحف يرتدي نظارات سوداء ، يدون شيئا دون ان يتطلع إليها . . لقطة لقدمها تدق الأرض في توتر . . يتبادلان النظرات بسرعة . . تتطلع إليه ، تخلع القفازات من يدها ، ينهض هو ليغادر الى القاعة المجاورة ، تسقط هي فردة من القفاز . . تتبعه الى القاعة الأخرى ، يتحرك منتقلا من قاعة إلى أخرى ، تتبعه المرأة والكاميرا تتابع هذه المطاردة الغريبة ، تسرع في إيقاع الحركة . . يراقبها هو خلسة بينما تبحث عنه بعينيها القلقتين . تراه فجأة ، ترتبك ، تسير مبتعدة فيتبعها هو . تتوقف فجأة لتواجهه لكنه يكون قد اختفى .

تتركز الكاميرا على فردة القفاز الملقاة على الأرض . . يتناولها الرجل . . يلمس كتف المرأة فجأة . . ترتجف وتهرب للبحث عن باب الخروج . . تتذكر أنها رأت القفاز في يد الرجل وهو يضع يده فوق كتفها . . تعود للبحث عنه في قاعات المتحف . . الكاميرا تتخذ وجهة نظرها وهي تتحرك من قاعة لأخرى ، تراه ، تتجه نحوه ، يبتعد هو ، تزداد خطواتها سرعة وتسرع معها الكاميرا في حركتها ، يهرب منها ، كأنه يشدها للخروج . . وبعد أن يختفي تغادر هي المتحف في يأس . . تهبط سلالم المتحف وهي تمسك بفردة القفاز الأخرى ، تنظر إليها في عدم مبالاة ثم تلقي بها على الأرض فلم تعد ذات فائدة الآن . .

تتحرك الكاميرا نحو الشارع ، تشاهد المرأة يدا ممدودة بالقفاز تبرز من نافذة سيارة تاكسي ، تتجه نحوها وهي تبتسم وعندما تبدأ في مخاطبة الرجل الجالس داخل السيارة ، يجذبها بقوة إلى الداخل ويقبلها ، تحتضن رأسه وتقبله ، وتتحرك السيارة بهما ، السائق يدير المرآة ليتمكن من مشاهدة ما يحدث على المقعد الخلفي .

ما سيحدث بعد ذلك هو تحذير لاشك فيه لكل من يطأ بأقدامه نيويورك : لا تغامر بالذهاب مع شخص لا تعرفه من قبل . وأكتفي بهذا القدر دون الدخول في التفاصيل . يمكنني فقط أن أنصح بمشاهدة الفيلم ، فهو عمل مثير للفكر وللخيال .

الفهرس

اسْتِهلال	5
مقدمة	11
المرة الأولى : إلى الجزائر	15
الطريق إلى تونس	31
عبور الماء إلى هولندا	49
باريس هبة المترو	57
المغامرة البلغارية وراء الستار الحديدي	90
التجربة الإيرانية الأولى	118
التجربة الإيرانية الثانية	148
الهند من دون أفيال	173
برلين المدينة الحزينة	187
لشبونة مدينة الدهشة المتجددة	203
نيويورك . . نيويورك	231

سندباد الجديد

العالم في حقيبة سفر

أمير العمري

THE WORLD IN A TRAVELLER'S BAG

هذا كتاب مسافر عبر القارات، يجمع بين جلدتيه يوميات ناقد سينمائي يتجول في عواصم العالم مطّاردا أفلام السينما، في رحلات قام بها عبر ثلاثة عقود ونيف، من القاهرة إلى الجزائر، وتونس والمغرب، ومنها إلى باريس، ومن باريس إلى لندن، فامستردام. ومن مقر إقامته في لندن إلى إيران، والهند، وبرلين ونيويورك... رحلات بدأت مع أواسط الثمانينات، لمشاهدة أفلام السينما ناقداً سينمائيا، ومحكما في لجان التحكيم لمهرجانات عربية وأجنبية.

في مقدمة يومياته يعترف أمير العمري بأن السينما والسفر والكتابة أفق في مغامرة، ويومياته سطور كاتب لا يتوقف عن البحث في الجمال الفني، والمعنى، والإنسان. رحلته في دنيا السينما إنما هي طواف في مدار ملهم فـ"عالم السينما نفسه هو الذي ألهمني ودفعني إلى التعرف على الثقافات الأخرى، التي تتجسد على نحو أو آخر (...) من خلال السينما كان اكتشاف المدن". ومن "الإبحار في التاريخ والتأمل في فنون العمارة والسينما والتصميم الفني، ومحاولة العثور على مفاتيح المدن المختلفة، جاء هذا الكتاب الذي أعترف أن تجربة كتابته كانت بالنسبة لي بمثابة اكتشاف أيضا للذات، للنفس الباحثة عن الجمال وعن متعة اكتشاف العالم.". إنه العالم في حقيبة سفر.

وقد نال عنه جائزة ابن بطوطة للرحلة المعاصرة ■

ارتياد الآفاق

ISBN: 978-614-419-857-5
9 786144 198575

ارتياد الآفاق
Irtyad Al- Afaaq
المركز العربي للأدب الجغرافي